دكتورة نعمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة

إبراهيم ناجي • أبو القاسم الشابي • الأخطل الصغير



تصميم الغلاف : حسين أبو زيد

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة

- إبراهيم ناجي
- أبو القاسم الشابي
- الأخطل الصغير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

مقدمة

فى هذا العصر الذى تتصارع فيه الحكومات والشعوب بل أبناء الشعب الواحد فى وطنهم الواحد ·

فى هذا العصر الذى يلهث فيه الكل حتى الأغنياء وراء المال والمادة بألوانها ·· فى هذا العصر الذى تتهدد الانسان ، فيه ، الحروب الباردة والساخنة ، القنابل الذرية والنووية ··

فى هذا العصر الذى يقاسيه الانسان اذ يتهدده الجوع والجفاف والأمراض الوبيلة التى لم يتوصل علماؤه بعد ، الى علاج كامل حاسم لها لأن الأقوياء يصرفون على حرب الكواكب ، الوقت ·· والمال ·· والاهتمام ·

فى هذا العصر الذى أصبح فيه ، الحب ، رياء ··· والكلمة رثاء ، والنعيق غناء ··

فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الأعصاب مشدودة والنفوس مكدودة ، وأصبح فيه العيش كربا ، والسلام الظاهر حربا ···

فى هذا الوقت الثقيل الوطأة ، لا نجاة للانسان الا بالعودة الى :

الدين و الفن

انى أجل العلم بما خفف من عذابات الأمراض بانجازات بارعة فى الطب ، وانجازات باتعة فى الصناعة ولكنه حين أعطى الانسان أزرارا كبيرة تسهل حياته المادية ، فشل فى اعطائه السعادة ·

العلم انجازاته محسوبة رقمية ولكن الدين أعمق ، والفن أرحب ·

فالدين ارواء لظمأ الروح ، وفيه اضفاء على الكيان ، واعلاء للنفس ٠٠٠ وفى الفن « تحضير » للحياة ، وتنضير للعيش يجعله يستحق أن يعاش ٠

الدين يطيب لروح الانسان ، والفن يهدهدها ويمسح عليها فتتوازن بعد معاناة ومكابدة ٠

لهذا طال شوق الانسان المحروب المكروب الى الغناء وهنا يشتد أو يشتعل الحنين ، بعد الهجير ، الى راحة الواحة حيث الماء سائغ والظل فينان ٠٠٠ وينفض انسان العصر رهقه بعد أن سافر قلبه طويلا فى الزمان والمكان فاذا الكل باطل وقبض الريح ٠

ويعود من جديد الى الشعر الرومانسى ، روعته وطلاوته ٠٠ وحلاه ورؤاه ٠٠٠ ويقرؤه الانسان وكأنه يغنى أشواقه هو ٠٠٠

وما أعذب الأشواق ٠

وما أكثر العشاق ٠

ودراسات الشعراء الثلاثة التى يضمها هذا الكتاب ، أصحابها يحتلون مكانا متميزا فى خريطة الأدب العربى ويتمتعون (بالحضور) على ساحته العريضة بالشعر مقروءا وملحنا ومرنما ٠٠٠

فناجى صاحب الأطلال قمته وقمة أم كلثوم وكفى ٠

وبشارة الخورى قد شاغل الأوتار بقصيدته (الصبا والجمال ملك يديك) أما أبو القاسم الشابى فشاعر المجد وشاعر الوجد ٠٠ أما المجد فقد ناداه ببيته الذائع :

اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وأما الوجد ، فقد ناغاه بشعره الرائع فى قصيدته (صلوات فى هيكل الحب) ٠

أنت أنشودة الأناشيد غنا
ك اله الغناء ، رب القصيد

أنت قدسى ومعبدى وصباحى
وربيعى ونشوتى وخلودى

والخالدون كما يقول شوقي أربعة :

شاعر سار بيته ٠٠ ومصور ضحك زيته ٠٠ ومثال نطق حجره ٠٠ وموسيقى بكى وتره ٠٠

وقد أنطق الشابى ، شاعرا ، الحجر ٠٠ وأبكى الوتر فاعجب وأطرب ٠

والدراسات كما كتبتها أول مرة مع أن عندى ما يضاف ويداف ولكنى أريد أن أحتفظ ببكارة الاحساس ٠٠ احساسى عند القراءة الأولى والكتابة الأولى ٠

سـكون

لنستمع الى الغناء من :

ناجى الشابى الخورى

د ٠ نعمات أحمد فؤاد

- إبـراهيم نـاجى

مقدمة

لقد كتب الكاتبون قبلي عن الدكتور ابراهيم ناجي الشاعر أو الروح الحساسة الرفافة المعبرة ··· واليوم سوف أضيف الى رأيهم الجميل فيه ، رأى النقد ···

لقد شكا الطبيب الشاعر من ظواهر غريبة بدت في الجو الأدبي أولها : ابهام في القيم ، وغموض في المقاييس ، وثانيها : وهو المهم اختفاء النقد بالذات من عالم الأدب ···

هناك انتاج أدبي ضخم بدون شك ، ولكن هذا « الترف من الفوضى » على حد تعبير جوفرى ويست ، أو بعبارة أخرى هذه البضائع المكدسة في أسواق الأدب ، بلا ضابط ولا صيرفي يبين صحيحها من زائفها — يدل على أننا في عصر متسم بخاصية من عدم المبالاة ، وعدم الالحاح في ايجاد روابط ، وضوابط (١) ·

هذه الصرخة التي ندت عن شفتي الشاعر تحفزني الى نقد شعره استجابة لدعوته وتلبية لندائه ··· تحفزني الى نقد شعره ذلك النقد الذي وصـــفه بأنه « وعى الفن » ··· ان « ناجى » يرى أن (الفن يبلور القيم الانسانية ، أما النقد فيجلو هذه القيم المتبلورة للأنظار) (٢) ·

على ضوء هذا التعريف الصادق للنقد ، سأمضي باذن من الله وتوفيق ، في نقد شعر ناجي الذي حسب أن الناس ستنساه ··· وأفزعه هذا الخاطر عندما مرض وشعر أنه ينتهي فقال :

(١) كتاب رسالة الحياة للدكتور ناجي ص ٧٩ — ٨٠ ·

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣ ·

قف تأمل مغرب العمر واخفاق الشعاع

وابك جبـــار الليالى هده طول الصراع

واضياع الحزن والدمع على العمر المضاع

وهتاف القلب بالشـكوى على غير انتفاع

ما يهم الناس من نجم على وشك الزماع

غاب من بعد طلوع وخبا بعد التماع (١)

لقد كان ناجى نجما خبا بعد التماع ، ولكن اسمه عندنا لم يخب له ضياء ، ولعل هذه الصفحات تطمئنه في مثواه على اهتمام الناس به وحفظهم لتراثه وذكراه ، مادام الحزن لايجدى ، والدمع لايغنى شيئا عن العمر المضاع ...

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٥١ .

لمحة من حياة

حقول خضر ، ومروج فيح ، تنبسط على مدى الطرف غناء متماوجة ، وعلى جانبيها قامت الأشجار ، كأنها متجردة لحراسة النعمة التى أغدقها الله فى تلك البقعة بغير حساب ...

وفى وسط تلك الجنة بنوارها وأشـــجارها وغدرانها وطيورها الغريدة ، قام بيت ، عليه من النعمة جمال ضاف ، وظل فينان . وكأن تلك المروج لم تشبع الحاسة الفنية فى أهله ، فأحاطوها بحديقة نسقوها على هواهم ، ووشوها بذوقهم ، لتزيد جمال المكان كله اشراقا ، وخضرته نضرة ، ونعيمه راحة ، وترفه فنا وعطرا وسحرا ...

وكان فى الحديقة ساقية تئن ، لأنها تروى هذا الجمال كله وتنميه ، وبها حاجة الى ارواء .. مسكينة تلك الساقية تمتلىء بالماء لتسكبه ثم لا يبقى فى جوفها الحيران شىء ... ما أقرب حالها وأشبه حظها بالعيس التى يقتلها الظمأ والماء على ظهرها محمول .. ان الأشياء كالناس : فيها السعيد وفيها الشقى ... وفيها الحران وفيها من يزيد على حاجته الرى.

ولكن ساقية الحديقة لا تدرك هذا ، فهى تئن أنينا متصلا يضيع فى زحمة النهار وصخبه ، ويتميز فى الليل الساجى ، حتى ليخيل اليك أنه ينبعث لساعته رتيبا حزينا شجيا ... ولما كان الأسى يبعث الأسى فان ساقية الحقل كانت من وراء جدران الحديقة تتجاوب مع زميلتها بمثل أنينها وشكواها ، هنا يفضفضان اذ يظنان أنهما فى الليل حيث لا يراهما أحد ، ولا يسمعهما أحـد ...

فى ذلك البيت بجوه الفاغم ، وأنسه الناغم ، ولد ابراهيم ناجى ، فزاد أهل شبرا واحدا ، وزاد أهل مصر زيادة لا تحصى ، لأن الوليد

شاعر ... وما بالقليل فى الأمة أن يولد فيها شاعر ، فقد انتصر الألمان على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فهان نصرهم فى عين أحد الفرنسيين الذى تهانف قائلا : « وما قيمة هذا النصر ماداموا ليس عندهم شاعر كفيكتور هوجو يغنى نصرهم ويخلده ؟ » .

ودرج الوليد مع الأيام وبدأ يتعرف على مافى البيت حوله ... ماهذا ؟ انها مكتبة ضخمة ، صنفها والده بنفسه ، وقد قرأها كتابا كتابا .

ووعى الغلام هذا الجواب حتى اذا تعلم القراءة هرول الى المكتبة ... يقرأ ... انه الآن يفتح كتابا هو قصة (عذراء الهند) لمؤلفها أحمد أفندى شوقى بالمعية السنية .. ها هو ذا الصبى تستغرقه القصة واذا بوقع أقدام فى الخارج ، ثم يدخل والده عليه .. ويرى الوالد القراء ابنه الصغير على تلك الهيئة فتلمع عيناه ويحمد مولاه ، ويربت على الغلام ويتعرف على الكتاب الذى فى يده ، ثم يأخذ مكانه الى جواره ليحدثه عن قصة عذراء الهند ، ويتطرق الحديث بالطبع الى المؤلف أحمد أفندى شوقى ، فيقول الوالد : « هذا يا ابنى شاب ستسمع عنه كثيرا فتذكر ما أقوله لك » ، ثم يضيف : « انه فلتة من فلتات الطبيعة » (١)

أرأيت ؟ كيف يفتح الآباء الأبناء ، وكيف يوحون اليهم ؟

وذات يوم صحب الوالد ابنه الى طنطا فى مولد السيد البدوى ، فمرا بكتبى رأى فى المولد فرصة ذهبية لتصريف ما عنده ... ووقف الأب يتفقد النفيس المجهول ، فعثر بين الكتب المبذولة بالعرض الغافل على ديوان حافظ ابراهيم ، فالتقطه ونقد الكتبى الثمن ، ثم التفت الى ابراهيم وقال له : « اقرأ هذا أيضا ولو أن الفرق بينه وبين شوقى كبير - كبير جـــدا ...) (٢) .

وفى يوم آخر اصطحب الوالد ابنه الموهوب لزيارة قريب قاطن بحى الامام الحسين رضى الله عنه - وفى عودتهما اشترى له ديوان الشريف الرضى ، وأقبل عليه يقول فى صوت النجى : (هذا رجل عظيم وشعره شعر رجال ، عليك بدراسته جيدا) (٣) .

ومضيا فى طريقهما حتى مكتبة أمين هندية ، فأشار الأب الى المكتبة وعرف ابنه بها ، وقال له : « سأشترى لك ديوان خليل مطران ليكون عندك فكرة كاملة عن شعراء مصر) (٤) .. ثم تمهل قليلا وقال : (أما المتنبى فسنقرؤه معا ...) .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الوقائع من مقال للدكتور ناجى من تاريخ حياته .

أتدرى كم كان عمر الغلام فى ذلك الحين ؟ تخيل ! ان طفلنا كان يبلغ من سنيه اثنى عشر عاما تقريبا ··· مستحيل ، لماذا ؟ ان الموهوبين كالأهلة لا تحتاج السنين الطويلة لتستدير ، بل يكفى بضعة عشر يوما ليصير الواحد منها بدرا كاملا ···

وحبذا الموهبة يفتحها التلقين المبصر ، ويزكيها التبصير الواعى المدرك ، ويصقلها التعهد الفنان ···

وهكذا كان والد ابراهيم ·· كان قراء يعرف ماذا يقرأ وكيف يقرأ ، كما يعرف قيمـــة الوقت وكيف ينفقه وكيف يضـــن به على التضييع ···

كان بيته منتدى له ولأولاده يجلس بينهم ، ثم تتحلق حوله من فلذاته الندوة ··· هنا جو القلب ، وهنا أكرم الحب ، وهنا يعذب السمر ويطيب الحديث ··· وعلى مثل هذه الجلسات يطل الله من عل ليباركها ويضفى عليها السلام والرضا والطمأنينة ··· ما أهنأ وما أصفى ···

نعم ما أهنأ وما أصفى ، ولكن التاريخ يحلو له أن ينزل ضيفا على بيوت صانعيه ، ولا يتحرج من مشاركتهم فى شئونهم الخاصة · وحجته أنهم ملكه أكثر مما هم ملك أسرهم أو حتى ملك أنفسهم · وهكذا يأخذ التاريخ مكانه فى تلك الندوة الى جوار الطفل ناجى ليسجل ···

على كل حال كان الأب مشغولا عن هذا كله ·· ان همه أن يقرأ لأولاده روائع الأدب من الشرق والغرب ... ويقرأ حينا ويفسر آنا ويتحدث أحيانا ويكركر فى (الشيشة) آونة أخرى ··· ويظل فى مجلسه حتى يحين ليل ويهوم على الأجفان الصغيرة النعاس ، فيفض الوالد المجلس قبل أن تستسلم للنوم ···

ويأوى الأطفال الى سررهم لينعموا بأحلام الطفولة السعيدة ، ويأوى معهم أخوهم ابراهيم ولكن ··· ولكنه لا ينام ··· انه مسحر بما سمع ، وفى نفسه بقية شوق ··· ان الحظ حفى به · فقد جعل نصيبه الغرفة المجاورة لغرفة والده ·· ان فى مقدوره الآن أن يتابع الاصغاء الى الصوت الهادىء الجميل الذى يعرف كيف يصور ببدع ساحر ويلون بريشـــة فنان ما عنده من قنى الفن وطرائف الأدب ·

وهكذا يظل صاحبنا الصغير ساهرا لا يغمض له جفن ، يسمع من وراء الجدران ما يقصه والده على أمه مما يكون قد قرأه بنهار ··· ويود ابراهيم لو استرسل الوالد السمير يتحدث كشهر زاد الى الصباح · ولكنه

بعد فترة قد تطول أو تقصر يسمع مفتاح النور وهو يمن بنعمته ، فاذا الغرفة ظلام وسكون فيفهم ابراهيم أنها تتهيأ للنوم ...

وعلى هذه الطريقة ، طريقة الانتساب الى الغرفة المجاورة ، سمع شاعرنا وهو طفل (أوليفر تويست) كما سمع كل قصص شرلوك هولمز ، وأغلب قصص رايدار هاجارد ... وكثيرا سواها .

تفتح الشاعر الموعود للأدب العربى بعد أن تفجر نبعه أمامه ، فاقبل عليه يعب منه عللا بعد نهل ، فلا هو يروى ولا هو يسلو الرشيف ...

واطمأن الوالد وقرت عينه ورأى من كمال الصواب أن يتجه به الى ناحية أخرى ... الى الأدب الغربى وهو زلال سائغ يلذ الشاربين ...

وفكر الوالد مليا بماذا يبدأ ؟ ولم يلبث أن اختار الكاتب الانسان (ديكنز) وأخذ الوالد يقرأ ديكنز ويعلق عليه ويشرحه .. والولد ينظر وقد اتسعت حدقتاه من العجب والاعجاب معا ... انه القصص الذى يسمع به من الغرفة المجاورة ويشتهى أن يسترسل والده فيه ...

وفى يوم من أيام الشتاء خرجا معا ... ثم حدث أن جادتهم السماء بالقطر ثم انهمر الغيث ، فأظل الوالد ابنه بمظلته ، وسار الاثنان تحت مظلة واحدة كما تجاورا فى الحياة غصنين فى دوحة واحدة ، ودلفا الى مكتبة بمصر القديمة ....

أتعرف هذا الكتاب الذى يحمله الوالد ... دا .. فيد .. مه ! انه دافيد كوبر فيلد ... احدى روائع ديكنز صديقه الجديد . ليت ابراهيم يلتفت الينا ليرى ...

* * *

عندى لك مفاجأة أخرى ... لقد دفع الرجل الثمن وحمل الكتاب ليمضى به والتفت الى ابنه فاذا به مشغول بقراءة ورقة فى يده ... وحلا للوالد أن يعرف مافيها ... أتدرى مافيها ... أتدرى ماذا ؟ لقد كانت قصيدة غزل ! نظمها هذا الشويعر الصغير ... أتصدق ؟ على كل حال لقد ضبطه أبوه متلبسا بها ... وأخذ الرجل الأديب يقرأ وهو يخفى ابتساما يصر على التبدى والافشاء ... ووشى بغبطة الرجل افترار ثغره ، ونم على سروره طلاقة وجهه ، ولكنه تكلف الجد على عادة الآباء وقال له : « هذا أكبر من سنك » ... ولكن هذه العبارة مدح سافر ، قد يغرى غرور الحداثة فى ابراهيم بالتمادى فى غزل حين لا يريد الأب هذا ... ماذا يفعل لقد أردف قائلا : (لاتمعن فى الغزل ، بل أكثر من شعر الحماسة والوطنية) ...

* * *

ان ابراهيم الآن لا يفكر فى شعر الغزل أو شعر الحماسة والوطنية ..
لقد حبس نفسه فى غرفته أياما طويلة . ومعه دفيد كوبر فيلد والقاموس وأقبل على القصة يقرأ فى نهم على الرغم من اعتراض سيل من الألفاظ الصعبة عليه ، ولكن ما عمل القاموس اذن ؟ كان يكشف عن كل لفظة تنبهم عليه حتى لا يفوته شىء من المعنى وظل على هذا المنوال حتى التهم القصة كلها التهاما ... التهمها بعينه ولسانه وعقله ... كان الثلاثة فى سباق ... العين تحدق ، واللسان يرتل ، والعقـل يعى ويختزن ويتمثل ...

وحفظ ابراهيم قصة دفيد كوبر فيلد وحفظ بحفظها محصولا من كلمات اللغة الانجليزية كان رصيده على الأيام ، حتى استطاع أن ينظم الشعر بالانجليزية قبل العربية .. وحتى استطاع أن يشترك فى مسابقة شعرية ، كانت جائزتها حدس ... ما هى الجائزة ؟ ... وحدس أيضا من الفائز ...

الفائز ابراهيم ناجى ! مرحى .. مرحى ... بقى عليك أن تتخيل معى الجائزة ؟ لا عليك .. سأنبئك بها ... انها مؤلفات .. دكنز .. ومن بينها بالطبع القصة المرموقة دفيد كوبر فيلد !

دفيد كوبر فيلد القصة التى كتب عنها فى حرارة وايمان ..

بعد هذا :

الذى انطبع فى ذهنى هو دافيد كوبر فيلد . لا أعـرف السر فى ذلك ، ولكنى أعتقد الآن أن قوة هذه القصة فى أنها سيرة صادقة لديكنز بالذات ، عبر فيها أصدق التعبير عن انفعالاته ، وشرح فيها الحب العفيف الراقى أوفى شرح ، وكنت أنا اذ ذاك فى بدء محاولاتى للشعر (١) ، فلم يكن عجيبا أن ينتعش ديكنز فى خيالى بسمو روحه ونقاء قلبه ، مع أنه لم يكن شاعرا ، ولكن الذى كتبه نثرا هو فى الحق أرفع وأغلى من شعر ألوف من الشعراء ..

وماذا فى قصة دافيد كوبر فيلد ؟ انها تذكرنى - أو على الأقل تجرى فى خيالى - مع عودة الروح لتوفيق الحكيم ... لاشىء غير الصدق والواقع ... قصة غرام قد تنتهى للاشىء ولكنها فى الحياة كل شىء ...

قصة غرام ديكنز بالفتاة (دورا) .. دورا التى كان لا يقول انها حبيبته بل كان يسميهـا وجـوده العزيز .. أبدع وصف فى لغـة الهوى

---

(١) يضم ديوان الدكتور ناجى (وراء الغمام) قصيدة قالها وهو فى الثالثة عشرة مما يدل على أن محاولاته بدأت قبل هذا .

الوفيع ٠٠ لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا ٠٠ كونه الملهم ، وحبه الصافى (١) ٠

ان (ناجى) يصور شعوره بالقصة اذ قرأها أول مرة ٠٠ عندما كان غلاما فوق العاشرة بقليل ، لقد نفذ وقتئذ الى ما فى تعبير ديكنز عن الحبيبة بالوجود العزيز .. لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا ٠٠ كونه الملهم ، وحبه الصافى ٠٠

أرأيت شفافية الطفل وذكاء حسه ، وصفاء نفسه المطبوعة على الحب ، المهيأة له ؟

« لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده جميعا) ٠٠٠

لقد غاص الصغير فى أعماق الفنان الكبير وعرف سره ووعى قصده٠ وما بالقليل وما باليسير هذا ٠٠٠ ان المتذوق يكاد يرتقى الى مرتبة الفنان، وهيهات أن يتذوق العمل الفنى شخص عادى غير مزود ولو بقبس مما وهبه الفنان من موهبة الفن بما تقوم به من حس ونفاذ (٢) ٠

وهكذا كان اليافع ابن الثانية عشرة يدرك مرامى القول الفنى ويحس جماله ٠٠ كانت نفسه طلعة وروحه متلهفة تحس وقدة الظمأ ، تواقة تهفو الى ٠٠٠ شىء ٠٠ والفن يخايلها على صورة مكتبة وقارىء ذواق ٠٠ ان جدران البيت لا تعترف بغير زينة الكتب ، وصاحب البيت لا يغالى بشىء فيه كتلك المكتبة ٠٠ وهو يحاول جهده أن يغرس فى ولده حب الفن ، ويورثه اعزازه للمكتبة ٠

---

(١) مقال للدكتور ناجى بعنوان : (كتب أثرت فى حياتى) ٠٠ الجمهور المصرى بتاريخ ١٩٥٣/٢/١٦ ٠

(٢) يقول كولنجوود R. G. Collingwood « ان الفنان يضع فى الصورة الوانا لا نابث أن نجدها حالما نبصر الصورة ٠ فهل هذا هو كل ما فعله ، أعنى تلوين الصورة ؟ كلا طبعا ، فهو عندما كان يلونها كان يعيش تجربة نفسية تختلف تمام الاختلاف عن مجرد رؤية الألوان التى يضعها على اللوحة ، كان يعيش تجربة خيالية تكشف عن نشاط كلى وتشبه فى كثير أو قليل ما نشيده لانفسنا عندما نتأمل لوحاته ٠ فاذا عرف كيف يصور ، واذا عرفنا كيف ننظر الى الصورة فان التشابه بين التجربة الخيالية لديه وتجربتنا الخيالية التى تحصل لنا من تامل عمله يوشك ان يكون تاما ٠ ومن هنا نستطيع ان نقول : ان التجربة التى تحصل لنا من مشاهدة هذا العمل لا تكون هبة تلقاها بقدر ما هى فعل نبذل الجهد فى انجازه ٠ ومن هنا صح القول بأن المتذوق يلزمه ان يبذل من الجهد ما يكافىء جهد الفنان » ٠

النص منقول من كتاب (الأسس النفسية للابداع الفنى) للاستاذ مصطفى سويف ص ١٦٦ — ١٦٧ ٠

وفى الحق أن مهمته لم تكن بالعسيرة ، فان الصبى كان شديد الاصغاء اليه سريع الوعى عنه ، سريع التنفيذ لما يقول ··

وانصرم الشتاء ليخلى بين الدنيا وبين فصليها الأثيرين الربيع فالصيف ·· وكان والده يؤثر فى الصيف مكس الاسكندرية حيث يلتقى فى هذه الآونة من كل عام بصفيه خليل مطران ··

ولم يفت ناجى المفتوح العين دلالة الاختيار ، فسأل أباه عن سر غرام مطران بالمكس ·· فأسر اليه الوالد الصديق ان (مطران) له قصيدة طويلة عند صخرة المكس ، ثم قرأ له قصيدته الخالدة « المساء » ·

وطرب الصغير ناجى للقصيدة أيما طرب ·· وسرعان ما طلب ديوان الخليل ليستزيد ·· ولكنه نفد ·· ولم يتبق منه الا نسخة وقد أخذت مكانها بالفعل فى مكتبة المرحوم عبد الهادى (باشا) فأعطاه ابن عمه هذه النسخة ، لا ليقرأها فحسب ولكن ليتعلم منها الشعر الجيد ·· وهنا يتواضع ناجى فيقول : (ولست أعلم ان كنت قد نفذت هذا الشرط ؟)

ومضى الغلام بالنسخة حفيا بها ، وانكب عليها حتى حفظها حفظا واعيا ·· ثم تولت الأيام بدورها توثيق صلته بالخليل حتى صار يدعوه يا « عمى » ·

وكأنما عز على الأيام أن تتكلف عناء توثيق الصلات ، فأنست الناس خليل مطران حتى صاروا لا يذكرونه كثيرا فى مغرب عمره ·· ألم تمنحه مودة ناجى ·· لها بعد هذا أن تسلب ما تشاء ·· هذا هو منطقها ·· أو على الاصح هو دستورها ··

★★★

اجتمع ناجى الذى تميزت شخصيته الآن بالشاعر الكبير فى منزل صديق ·· وكان مطران شاحب الوجه ، ضارع الجسم كسير القلب ، بادى العلة ولكن الذى كان يمضه أكثر من سواه « الجحود » جحود الذين أطربهم فشجاهم فكان جزاؤه منهم « النسيان » ·· النسيان فى العمر الذى تتوج فيه أكاليل الغار مفارق حملة المشاعل فى طريق الانسانية ··

ان « ناجى » فى مجلسه الان يعتصر من أجل مطران ، ماذا تراه فاعلا ؟ أيسرى عنه ؟ وماذا وراء التسرية وما جدوى العزاء ؟ هل فى بضع كلمات دواء الداء ؟ اذن ما أيسر ··

صه ! لقد لمعت فى ذهن ناجى فكرة ·· ولم يتريث فى الأخذ بها اذ انطلق ينشد شعر مطران من أوله ·· فلا ينتهى من قصيدة الا ليبدأ

الخزى والحاضرون مأخوذون .. بجمال الشعر ، أو بروعة المفاجأة لست أدرى .. ولكنهم مسمرون .. ولكنهم مبهورون ... ولكنهم فى صمت بليغ السكون لم يقطعه الا نشيج مطران الذى بكى من فرط التأثر ، وأخذ يقبل ناجى وهو يقول فى راحة المطمئن ورضا الآمن بعد خوف

الآن أموت مسرورا ...

ولاء ... لا بل وفاء ... سم صنيعه ما شئت من أسماء ، ولكنه عندى ارهاص العبقرية ، التى تزمع الظهور ، وتمضى فى التكوين

★ ★ ★

وممن قرأهم ناجى وتأثر بهم « شكسبير » لقد كان يحفظ رواياته كلها بل كان يجيد تمثيلها وطالما حاضر عنه .

ومن طرائف ناجى أنه دعى مرة للمحاضرة عن شكسبير فى المعهد البريطانى الذى كان فى المنيا ... وحل الميعاد وهو ذاهل عنه ، ولكن عليه أن ينهض الى الصعيد ... فركب القطار وأخذ يحاول الكتابة فلم يوفق الا للنوم الذى غلبه ودفعه فى سخرية الغالب أن يسطر حروفا لم يستطع هو نفسه حل رموزها فيما بعد ...

وقد تعجب اذا علمت أن ناجى الخالى من موضوع المحاضرة قد ذهب الى المعهد المنتظر ... وحل موعد المحاضرة ! .

وتقدم رئيس النادى اليه طالبا نسخة مما سيقول .. وهنا جلله الخجل وقال له فى صوت خفيض (عندى « بضعة أسطر ») ، وبهت الرجل وامتقع وجهه ، ولكنه ضبط نفسه ولم ينبس بكلمة واحدة ...

واحتشد الجمهور الذى تدافع الى المكان فى سباق متلهف على سماع المحاضرة القيمة ، لقد أفلحت الدعاية الطنانة التى سبقت ركب ناجى الى المنيا فى جذب الجموع الغفيرة ...

وامتلأت الصفوف ، وأتلعت الأعناق ، واشرأبت الرؤوس الى رئيس النادى ، وهو يقدم المحاضر العظيم الدكتور ابراهيم ناجى ...

أتدرى ماذا قال الرجل ؟ لقد ذكر الحقيقة كاملة ... لقد ذكر أن المحاضر نسى أن يعد المحاضرة وأنه حضر من القاهرة الى المنيا ببضعة أسطر ...

هل نلوم الرجل ؟ كلا ... أنقسره على الكذب ؟ أم نورطه فى وعد الجمهور بسماع مالا أذن سمعت ؟ لو فعلنا لكنا ظالمين ...

وعرت ناجى دهشة حار معها ، ماذا يقول وكيف يتصرف ... أيعتذر ؟ .. أنه عندئذ العذر الذى يصفونه بأنه كالذنب فى الخلاقة أو أقبح ... أيرتجل ؟ .. انه الارتجال غير المقصود من صاحبه ، وغير المألوف له فى هذا الجو المشحون الذى لا يعين عليه ...

لم يبق الا أن يزعم ناجى للحساضرين أنه نعمد الا يكتب عن شكسبير ، لأنه ليس بحاجة الى الكتابة عنه بعد أن عاش معه فى كتبه زمنا ليس باليسير . فكيف يتحدث عنه من ورقة ؟ .. لباقة بلا شك .. اليس كذلك ؟

ومن الغريب أن (ناجى) صدق زعمه ونسى نفسه ، وأخذ يتحدث ويفيض وكأنه يغترف من نهر ، وسحر بما صار اليه ، فلا هو يتوقف ولا الكلام يغيض ...

تعال معى الى الصفوف المتواكبة ... ألا ترى السامعين يكادون يحبسون أنفاسهم حتى لا تفوتهم كلمة ؟ ولكن دعهم وانظر الى ذلك الذى يحملق الى المحاضر فى ذهول عجيب . ألا تعرفه ؟ انه رئيس النادى الذى قدم (ناجى) منذ ساعة كاسفا آسفا ، وان دارى ... ولكن حسبه أن يقول : ان المحاضر نسى المحاضرة ولم يكتب الا بضعة اسطر .. لتفهم الحقيقة كلها ...

على أى حال ان الرجل الآن لا يكاد يصدق ...

واسترسل ناجى حتى أوفى ، فاذا بالتصفيق يدوى فى المكان كله ، واذا بالرئيس المذهول يثب الى المسرح ويضم (ناجى) ويقبله ويطرى : « المصرى الذى يعرف شكسبير كل هذه المعرفة » .

★★★

أما قصة (التلميذ) للكاتب الفرنسى بورجيه فلها قصة سادع ناجى يرويها لك حتى لا يفوتك ما فى طريقته من اطراف .

(ملخص الموضوع أنى كنت أعرف الانجليزية فقط لأن القسم العلمى فى التعليم الثانوى لا يعلم الفرنسية ، ولكن ما حيلتى وأنا «مضطر» للتفاهم بالفرنسية مع أعز مخلوقة فى الوجود ! وهى لا تعرف غير الفرنسية ، وهى لا تحب غير بورجيه ، وتعتقد أن (التلميذ) قصة خالدة ... وتتمنى لو قرأناها معا بالفرنسية !

أمنية عزيزة ، ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ على أن أتعلم بسرعة ، وأقرأها معها بسرعة ، والا فات الوقت !

لست أعرف فى تاريخ « الضرورات » أغرب من هذه الحكاية ٠٠٠ قلت لنفسى : أتعلم كما يتعلم الطفل ٠٠٠ أحفظ الكلمات ، ثم أتعلم ربطها ، ثم أتكلم ، كلمات أولا ، ثم جملا ٠٠٠ وهذا هو الذى حدث ٠٠٠ ففى الشهر الأول أخذت أحفظ كلمات فرنسية ٠٠٠ وأتعلم نطقها من قاموس خاص بالنطق ، ثلاثين كلمة كل يوم ٠ بعد شهر كان محصولى ألف كلمة ٠٠٠ أحفظها حفظا تاما ٠

وفى الشهر الثانى اخذت أقرأ (آجرومية) اللغة وربط الكلمات التى أعرفها ببعضها ، وفى الشهر الثالث أخذت أحاول تطبيق هذا على قصة (التلميذ) ، فى المحاولة الأولى لقراءتها ولم أفهم شيئا ، وفى القراءة الثانية فهمت قليلا ، وفى الثالثة فهمت أكثر ، وفى الرابعة ازداد فهمى لها ٠٠٠ وفى المرة الثامنة فهمتها تماما ٠٠٠

وعدت الى صديقتى ، فقرأت معها قصة التلميذ لبورجيه وهى لا تكاد تصدق !) (١) ٠

لقد طغى حب الأدب على ناجى حتى غلب فى نفسه على سائر الميول الأخرى فما عدا عما بدا ؟ ما الذى حدا به الى الطب ؟ ٠٠٠ هنا فقط أترك لشاعرنا الحديث ٠٠٠

« كانت نزعتى للأدب طاغية ، وكنت أعد نفسى لمستقبل أدبى ، ولم يكن عندى أية فكرة عن الناحية العلمية الرياضية ، غير أن الأقدار تلعب دورها بدون أن تعلم ٠٠٠ ففى السنة التى قررت فيها أن ألتحق بالقسم الأدبى أرسل الله لنا معلما سوريا ، لم يكد ينظر الى حتى توسم فى شيئا لا أعلمه جعله يؤمن بأننى قد أكون نابغة فى الرياضة ، فوجه اهتماما الى ، وكان قاسيا جدا ، اذ كان يضربنى ويشتمنى وكثيرا ما دخل الفصل وهو ثمل ثم أخذ يبسط هذا الظل بالضرب و « التريقة » والشتم واللعن . وأنا صابر لا أتفوه بكلمة ، وكان رحمه الله طيب القلب يخفى خلف هذه القسوة نفسا من الذهب ، فكان يلاطفنى بعد قسوته ، ويمد يده الى (بواجبات) خاصة منه لى ٠٠٠ ثم يعود فى اليوم الثانى فيسألنى فى خشونة « هل عملت الواجبات » فلم أخيب ظنه مرة واحدة ٠٠٠ وقد كان تقدمى سريعا ، جعله يزهو ويفخر بى ٠٠ ثم أخذت قسوته تختفى وهو يقول « اطلع يا ناجى اشرح لهم التمرين » ٠

لقد كان تأثير هذا المعلم فى مستقبلى كبيرا فقد غيرت التحاقى

---

(١) من مقال للدكتور ناجى عن تاريخ حياته ٠

بالقسم الأدبى ، والتحقت بالقسم العلمى ، ولتقدمى وتفوقى فى الرياضة دخلت كلية الطب لأنى كنت من المتقدمين » (١) ٠

وازداد ناجى مع الأيام قراءة واطلاعا وتوسع فيهما ، حتى تجاوز كتب الأدب والطب الى المذاهب الفلسفية والسياسية وعلم النفس ٠٠٠ ولعل قراءة واحدة لكتابه (رسالة الحياة) تؤيد هذا عندك ٠

ولما تخطى ناجى مرحلة الاختبـــار ، وحان الموعد ليجنى النـــاس من الأديب الطبيب ما فيه شفاء وما فيه دواء ، أمسك بقلمه نفيسا كمبضعه وسطر الشعر ، ودبج النثر ، وسرد القصة وأعد البحث . ولكن الشاعر فى ناجى غلب على الناثر والباحث والقصاص ٠٠٠ فهلل قوم للشاعر ولاذ قوم بالطبيب ، وقال التاريخ : شاعر الطب وطبيب الأرواح ٠٠٠ فهنيئا له وسلام عليه فى الخالدين ٠٠٠

---

(١) من مقال للدكتور ناجى بعنوان « كتب أثرت فى حياتى » الجمهـــور المصرى ١٩٥٣/٢/١٦ ٠

هو شاعر حتى فى الأسماء .. (وراء الغمام) ، (ليالى القاهرة) ... أسماء زاخرة حافلة فيها غموض وظلال وسحر مكنون وايحاء ورمزية شفافة ... ترى ماذا وراء الغمام ؟ وماذا فى ليالى القاهرة ؟ ان الاسم الأول يثير فضولى والاسم الثانى يدعونى للطرب وللسمر وللفن ...

لقد تساءل الأستاذ الصاوى وهو يصدر لديوان ناجى الأول (وراء الغمام) : كيف يجرؤ النــاثر على وصــف الشاعر ؟ وكيف توصف الموسيقى بالكلام ؟ وكيف يعبر بالحروف عن الأحلام ؟ ...

ولكنى رغم هذا لا أتهيب وسأصف « ناجى » الشاعر الموسيقى الحالم ... أو بالاحرى سأستنشقه من شعره ... سأبحث فى ديوانه ... (وراء الغمام) و (ليالى القاهرة) .

نحن الآن أمام اهداء الديوان الأول (وراء الغمام) .. ومنه :

أنت وحى العبقريه وجــــلال الأبديه
أنت لحن الخلد والرحمة فى أرض شـــقيه
ان يكن قد شـــقى الماضى فما أهنا البقيه
بت تســـقينى فتنســـينى أوجاعى العصيه

لعلك تشعر معى أننا مقبلون على ديوان شجى وشاعر حزين ... ومتى كان هذا ؟ فى سنة ١٩٣٤ أى فى طور الشباب ...

ياهــم قلبى فى صـــبا أيامه وسهاد عينى فى الليالى الأولى(١)

(١) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ٦ قصيدة المآب .

ترى ماسره ؟ وفيم أساه ؟ ها هو ذا الجواب :

كد على كـد ولسـت ببـالغ الا ضـنى متتابعا ونحـولا
صدأ الحوادث بدل الاشراق في فكرى وكدر خاطرى المصقولا
وتتابع الأنواء فى أفق الصبا لم يبق لى صحوا أراه جميلا(١)

ان الشاعر مرهق ، هدف للأحداث والآلام ... منذ الليالى الأولى ... ولست أسوق هذا الحكم من قصيدة (المآب) وحدها ، فان الدليل عليه تكاد تلمسه فى كل قصيدة ... **ففى (الميعـــاد) يصف البحر فيقول :**

كم لاح لى حرب الحيـــاة على
أمواجـــه المجنـــــونة الزبـــد

ورأيت طيف الضــنك مرتسـما
فى عاصـــف الأنـــواء مطـرد

فى الليـــل مـد رواقـه وثـوى
كجوانح طويت على حسـد (٢)

ويبدو لى أن الحياة فى حربهـا له كانت قاسـية لا ترحم ، حتى اشتهى الموت ليفارقها ورأى فى القبر مباهج لا تحصى ...

قبـر مبـــاهجه بـــلا عـــدد
لفتى متـــاعبه بـــلا عـــدد

من يـومه يـــوم بـــلا أمـــل
وغـد بلا سلوى وبعد غد (٣)

ما الذى حدا به الى هذا ؟ ... ضنه ... لقد بدأ يتكلم :

آه ممـــا صــنع الدهـــر بنـا
أو هـــذا الطلـل العـــابس أنت

والخيـــال المطـرق الـرأس أنا
شد ما بتنا على الضنك وبت (٤)

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان (وراء الغمام) ص ٩ قصيدة المآب .
(٢) « « « ص ٤٨ ـ ٤٩ قصيدة الميعاد .
(٣) « « « ص ٤٩ .
(٤) « « « ص ٩ قصيدة العودة .

انه يعتصر ... وهذه دموع :

أين ناديك وأين السمر
أين أهلوك بساطا وندامى
كلما أرسلت عيني تنظر
وثب الدمع الى عيني وغاما (١)

عانى ناجي الوحدة القاتلة بأمانيها الضائعة . وذكراها الحزينة ، وهو شاعر له ظمأ يشتهي الري فلا ينال ، فيعيش على الأمل الذاهب اذ يعز عليه النسيان :

يا وحدتي جئت كي أنسى وها أنذا
ما زلت أسمع أصداء وأصواتا
مهما تصاممت عنها فهي هاتفة
يا أيها الهارب المسكين هيهاتا
تلفت القلب مطعونا لوحدته
وأين وحدته ؟ باتت كما باتا
حتى اذا لم يجد ريا ولا شبعا
أفضى الى الأمل المعطوب فاقتاتا (٢)

وهو لا يفلت من وحدته ووحشته حتى تطغى فتغمره من جديد :

لذعتني دمعة تلفح خدي
نبهتني من ضلال ليس يجدي
واختفت تلك الرؤى عن ناظري
وطواها الغيب في سحري برد
وتلفت فلا أنت ولا
جنة الخلد ولا أطياف سعد
واذا بي غارق في محنتي
وبلائي ، أقطع الأيام وحدي (٣)

وهو متفزز كثير الأوهام :

أأنت ناديت أم صوت يخيل لي
فلي اليك باذن الوهم اصغاء

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٩ قصيدة العودة .
(٢) » » » ص ١٨٨ ـ ١٨٩ أصوات الوحدة .
(٣) » » » ص ١٠١ قصيدة الغد ..

لبيك لو عند روحي ما تطير به
وكيف ينهض بالمجروح اعياء (١)

أتعرف مما قاسى ناجي أيضا ؟ سأتركك معه ليبثك شكواه ، ها هو ذا يفضي اليك :

لقيت ضنكا من الليالي
فمن غمار الى غمار
قد طال عتبي على الليالي
وطال للراحم انتظاري (٢)

وهو مسرور .. ومن خطابه الى من يحب :

قبل اذقني ما اليقين وهاته خلوا من الآلام والأوصاب
اقبل لأقسم في حياتي مرة أن الذي أسقاه ليس بصاب
لهفي على هذا اليقين وطعمه بفمي وتكذيبي شهي شرابي (٣)

حتى كأس النعيم يريد عليه قسما ليوقن أنه حلو لا مر فيه ...

هل كان مسرورا الى هذا الحد ؟ أكاد لا أصدق من اشفاقي .. ولكن كيف وهو يؤكد أنه لا يستسيغ في دنياه شيئا :

كل شيء صار مرا في فمي بعدما أصبحت بالدنيا عليما
آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديما (٤)

ان الرجل لا يصرخ هذه الصرخة الا أن تكون قد كشفت له عن حقائق مرة غص بها ..

ترى لم ضاق ذرعا بالحياة والأحياء ؟ انه يقول :

مللت في هاته العوالم مهزلة الموت والحياه
وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الجباه
هياكل تعبر السنين واحدة الغيش والنظام
واحدة السخط والأنين واحدة الحقد والخصام

---

(١) الدكتور ناجي ، ديوان ليالي القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ١٦٣ قصيدة في منزل الشاعر .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٨٢ قصيدة الشك .
(٤) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٥٤ ــ ٥٥ قصيدة الوداع .

وواحد ذلك الرياء   يستر خزيا من الطباع
أفنى البلى أوجه الرياء   ولم يدب ذلك القناع
بعينها كذبة الدموع   بعينها ضحكة الخداع
ومنحنى هاته الضلوع   على سواد بها جياع (١)

ويمضي في تأمله فيرى أن الناس هم الناس والطباع هي الطباع ، وان تغيرت شيات ، وتبدلت أزياء :

آدم كالقديم قلبا وتفكيرا   ولكن تبدل الأزياء
لم يحل طبعه ولا ذات يوم   لبست غير نفسها حواء
والنضار المعبود قدس وقربان   ورب والشهرة الجوفاء
والحطام الفاني عليه اقتتال   والأماني بريقها اغراء
وسفين تمر اثر سفين   والرياح اللذات والأهواء
والغيوب المحجبات رحاب   تعبت في رموزها الحكماء (٢)

ومجمل رأيه في الدنيا أنها رواية :

نزل الستار ففيم تنتظر   خلت الحياة وأقفر العمر
لم يبق الا مقفر تعس   تعوى الذئاب به وتأتمر
هو مسرح وانفض ملعبه   لم يبق لا عين ولا أثر
ورواية رويت وموجزها   صحب مضوا وأحبة هجروا
عبروا بهنا صورا فمذ عبروا   ضحك الزمان وقهقه القدر (٣)

وتمر به قافلة صغيرة فتعزز رأيه ، ويتأملها وهي تخب في طريقها المضنى ، فيهز رأسه في سمت الحكيم ويقول :

رأيت حياتنا . كم من غريب   على جنبيه بالأعياء مالا
وكم من سائل لم يلق ردا   وقد سأل الهواجر والرمالا
فان تجب القفار عليه يوما   ترد له سوافيها السؤالا
أقافلة الحياة أريتنيها   خيالا أو ضلالا أو محالا (٤)

وهناك داء قتال كان يعاني منه ناجي وهو بلا ريب من دواعي تبرمه وتشاؤمه ومراراته ... ذلك هو (الظلم) ... والظلم أشد قسوة على الحساس المرهف الشاعر بنفسه ذى الاباء .

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٦٣ قصيدة الليالي .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٩٣ ملحمة السراب .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٥٧ قصيدة روايه
(٤) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ١٨٣ – ١٨٤ قصيدة القافلة الصغيرة .

قد تغشاني ظلام لا أرى … فيه مغداي ولا منقلبي
صامدا للظلم والظلم له … معول يهدمني عن كثب
وأنا أدفعه عن منكبي … بيدى حتى تهاوى منكبي
وتماسكت فلم يبق سوى … كبرياء هي درع للأبي

انى أحنو عليه هو وأقدر موقفه وهو من طول مابلى بالدنيا وقاسى من حاضرها ، لا يرجو غيرها وما له يطمع فى غدها ويومها لا تراه عينه الا كابيا مرنقا ...

التقى بحبيبه فأخذ يستحثه عجلا على اسعاده قبل أن تولى الفرصة بأفول العمر ... ألا تلمح لهفته فى قوله :

هات أسعدنى ودعنى أسعدك … قد دنا بعد التنائى موردك
وابلائى من ليالى التى … قربت حينى وراحت تبعدك
لاتدعنى لليالى فغدا … تجرح الفرقة ما تأسو يدك (١)

انه يتوجس خيفة من الغد شأن الحساسين متفززى الأعصاب ...

وليس هذا فحسب ، بل انه سيىء الظن بالأيام يتوهم أن القدر موكل به فاذا ظفر بمأمول تلفت اليه قلبه متسائلا :

قال لى القلب : أحقا ما بلغنا ؟ … كيف نام القدر الساهر عنا ؟
أتراها خدعة حاقت بنا ؟ … أتراها ظنة مما ظننا ؟ (٢)

وهو يصيح بكل من يمنيه بغد :

لا تقل لى فى غد موعدنا … فالغد الموعود ناء كالنجوم (٣)

انه ليس متفائلا ...

ويعزو الأستاذ ابراهيم المصرى تشاؤم ناجى الى شدة احساسه بالعواطف الرقيقة (التى تضاعف شعوره بالألم عندما يعترض طريقه مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبة ، أو مجرد سماع انسان يشكو أو آخر يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفى عينيه أثر مجاهدة الدموع ! ..) (٤) .

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٥٦ — ٥٧ قصيدة الوداع .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٩ قصيدة الغد .
(٣) « « . ديوان وراء الغمام ص ٩٧ « .
(٤) كتاب (صوت الجيل) للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤١ .

وهو قدرى يتأمل ويتطوح به التفكير فيتساءل :

والام تدفعنا الحوادث فى عباب يلتطم
دفعت بمركبنا المقادير الخفية والنسم
خرجت وما تدرى النواة بأى صخر ترتطم
بدأت على ريح الرضا والله يدرى المختتم (١)

وهو ملول بطبعه ... يحسب من ضيقه أن عقارب الساعة لا تنفرج الا لترجع الى الوراء .

ياليالى العمر ما سر الليالى	البطيئات المملات الطوال
مسرعات مبطئات ولها	خفة الموت وأثقال الجبال
كاسفات البال عرجاء المنى	عاثرات الحظ شوهاء الظلام
عجبنا للعمر يمضى مسرعا	للمنايا بسلحفاة الملال (٢)

أهكذا كانت أيامه ؟ انها لكذلك ... ولا تحتج عندى بضحكه فانه ضحك كالبكا ، ألم يقل :

طالما موهت بالضحك فما	غير التمويه رأيا لك فيا
كلما تنظر فى عينى ترى	سرى الخافى ومعناى الخفيا
وترى فى عمق روحى زهرة	قد سقاها الحزن دمعا أبديا
ويتراه الناس طلا .. وترى	أنت دمعا غائما فى مقلتيا

هكذا كان ناجى وتلك كانت حقيقته :

وهو حالك اليأس ، ييأس فلا تلوح له بارقة من نور الأمل ، حتى ليتمنى الموت :

أصبحت من يأسى لو ان الردى	يهتف بى ، صحت به هيا
هيا فما فى الأرض لى مطمح	ولا أرى لى بعدها شيا
ما ذا بقائى ها هنا بعد ما	نفضت منه اليوم كفيا (٣)

وتصيح به من رحمتك : علام الموت ؟ فيعجب لك كما تعجب له ويسألك بدوره :

ما يصنع الأبرار بالأرض التى	ساوت من الأبرار والأوشاب
دوارة أبد السنين كعهدها	من ليل آثام لصبح متاب

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٧٧ قصيدة ليالى الارق .
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٢٠٨ قصيدة الخريف .
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٥٨ قصيدة يأس على كاس .

تغـلو الحياة بهـا الى أن تنتهي عند التراب رخيصة كتراب (١)

ولكنك لا تقتنع ... وهو يدرك هذا تماما ... ومن ثم يسوق اليك حججا أخرى :

ما بقـائي وأجمل العمر ولى وانتظاري حتى يحين الشـتاء
يطلع الفجر مرهقـا شاحب النـور عليه الـكلال والاعيـاء
وبنفسي دب المسـاء وحـل الليل من قبل أن يحين المساء (٢)

أراك لا تزال غير مقتنع بشكواه ... ها هو ذا قد تركك وشأنك وراح ينشد آخر :

الا وفـي ألا معـين في مـدلهم بلا صباح ؟
وكلمـا جـد لي أنـين تسـخر بي أنـة الرياح (٣)

فلما بددت الرياح صرخته أرسل في الليل أنينه مبللا بالدموع :

يا أيها الليـل جئت أبكي وجئت أسـلو وجئت أنسى
طال عذابي وطـال شـكي ومـات قلبي وما تـأسى (٤)

فلما غشت ظلمة الليل لوعته هرع الى النهر يناديه :

يا نهـر لي جـذوة بجنبي هادئـة الجمـر بالنهـار
فان دنا الليـل برحـت بي وساكن الليـل كم أثار

وقفت حـران في ازائـك فهـل تـرى منك مسـعد
وددت الـقي بهـا لمائـك لعـلها فيـك تبـرد (٥)

يبدو أن جذوته استعصت على ماء النهر ... ولكنه قلق بين ماض دام يرهقه وحاضر قاس يؤرقه :

ماض وكـم فيه من عثـار ومن عـذاب قـد انقضى
كـم قلت لا يرفع السـتار ولا ادكار لمـا مضى (٦)

ها هو ذا خاطر جديد يلوح له ... ليتجه الى البحر ... تعال معي

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ٨٣ قصيدة الشك .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان (ليالي القاهرة) ص ٩٢ ملحمة السراب .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ٦٥ ـ ٦٦ قصيدة الليالي
(٤) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ٧١ .
(٥) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ٦٨ قصيدة الليالي .
(٦) الدكتور ناجي . ديوان (وراء الغمام) ص ٦٩ .

الى الشاطىء ... أرهف السمع .. انه يناجيه مناجاة شاعر ويهمس اليه همسا فيه شاعرية وحساسية ورفيف ... **انى أحس أنه تخفف من أعبائه حين أسمع منه :**

وجعلت النسيم زادا لروحى | وشربت الظلال والأضواء
لكأن الأضواء مختلفات | جعلت منك روضة غناء
مر بى عطرها فأسكر نفسى | وسرى فى جوانحى كيف شاء (١)

انه شاعر ملهم ذلك الذى يعود الى الطبيعة نبع الجمال والسحر يعب منها فاذا الرشيف ظلال وأضواء وعطر وشعر ... انه هنا عصفور طليق حط على غدير يحسو منه فى هناءة الخلى ...

كدت أحمد للبحر العظيم فضله على شاعرنا ، لولا أنى سمعته من جديد يقول :

نشوة لم تطل ! صحا القلب منها | مثل ما كان أو أشد عناء
انما يفهم الشبيه شبيها | أيها البحر . نحن لسنا سواء
أنت باق ونحن حرب الليالى | مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت عات ونحن كالزبد الذا | هب يعلو حينا ويمضى جفاء
وعجيب اليك يممت وجهى | اذ مللت الحياة والأحياء
أبتغى عندك التأسى وما تم | لك ردا ولا تجيب نداء (٢)

ان لواعجه لا تهدأ ، وهمومه لا تفتر ، حتى البحر يغمره عجز عن غسل هذه الهموم .

اذن لا مطمح له فى الأرض ... ليشرئب الى القمر ... لعله أحنى ذلك الوضاء الجميل :

قمر الأمانى يا قمر | انى بهم مستقم
أنت الشفاء المدخر | فاسكب ضياءك فى دمى

أفرغ خلودك فى الشباب | واخلع على قلبى الصفاء
أسفا لعمر كالحباب | والكأس فائضة شقاء (٣)

وما ان رآه يمضى وراء سحابة تحنو عليه وتلثمه حتى صرخ فى ضراعة مكروبة :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ٨٥ قصيدة : خواطر الغروب .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٤٦ قصيدة استقبال القمر .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٨٦ من قصيدة خواطر الغروب .

خـــذني اليك ونجـنــتي مما أعـــاني في الثرى
قــدحي ترنق فاســقني قـــدح الشــعاع مطهــرا (١)

فلما لم يجد سميعا من الليل والنهر والبحر والقمر . لاذ بحمى النيل الوالد كما لاذ به قبله في القدم آباء وأجداد :

أقبلت للنيل المبارك شاكيا زمني وقد كثرت على همومي
ومسحت كفي والجبـــين بمائه على أهـــدىء ثورة المحموم
وجلست أنثر جعبة معمورة بالذكريات جـديدها وقـديم (٢)

وقد تهادنه الأيام حينا فتحسن اليه بعود حميد ، ورد غائب فيرسل اللحن جذلا :

عادت لطـائرها الذى غناهـا وشـدا فهـاج حنينها وشجاها
أى الحظـــوظ أعـادها لوفيهـــا ونجى وحدتهـــا والف صباها
مشبوبة التحنان تكتم نارها عبثا وتأبى أن يبين لظاها
يا الفى المعبـــود سرك ذائـع نار الحنين دفينهـا أفشـاها (٣)

حتى اذا اطمأن الى زمانه استرد ما وهب ، وسلب ما أعطى ، فهل يلام ناجى اذا أن :

ماذا لقينـا من لقاء خاطف وعشـية كالبرق حان ضحاها
يا ويح هاتيك الثـوانى لم تقف حتى نسـيغ هناءة ذقناها
حتى يمتـع باليقين مـكذب عينيه في رؤيا يضل سناها
تمضى لها الأبصار مشعلة الهوى وتحول عنها ما تطيـق لقاها (٤)

ان الأمانى تلاقيه بقدر معلوم وتنصرم وقد استحال الظمأ أواما ... ولكنه ظمأ خصب وحرمان مبدع ، ذلك الذى يوحى اليه :

لم ترو منـــك نواظرى وخواطرى ورجعت أزكى مهجة وشفاها

ما أعذب رى الخواطر ...

مد الخريف على الرياض رواقه ومضى الربيع الطلق ما يغشاها
ما بالرياض ؟ كآبة فى أرضـــها وسـحابة تغشى أديم سـماها
جمدت حمائم أيكها وأنا الذى شاكيتها فاغرورقت عينـــاها (٥)

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ من القصيدة نفسها .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٦٥ كبرياء .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٢ قصيدة (رجوع الغريب) .
(٤ ، ٥) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٣ و ٩٤ قصيدة رجوع الغريب .

ترى ما حيلته لا سلوى الا أن يعلل نفسه بالأوهام :

هات قيثاري ودعني للخيـــال واسقني الوهم ! وعلل بالمحال
ودع الصـــدق لمن ينشـــده الحجى خصمي فاغمر بالضلال
وخذ الأنوار عني ، ربما أجد الرحمة في جوف الليالي
خلني بالشوق استدني غدا فغدا عندي كآباد طوال (١)

وطبيعي أن يزعزع هذا كله يقينه ويورثه الشك حتى في الواقع الملموس ··· عاودته مرة ذكرى لقاء فلم يصدق نفسه ، وخال من أوهامه الحقيقة التي وقعت حلما عابرا ووهما كاذبا :

أحقـــا كنت في قـــربي لعـــلي واهـــم وهمـــا
تـــكلم ســـيد القـــلب وقل لي : لم يكـن حلما (٢)

وهو على فيض أساه ، وطول شكواه جهول صبور متعجل ··· يستقبل العائد فيهتف :

سلام على غائب عن عيوني حمـلت حطـامي الى داره
وقلت لقلبي تمهـــل بنـــا وخـــبيء شـــقاءك أو داره
تناسى الأسى هاهنا أو يقـــال حمـــلت الظـــلام لأنواره
أتغـــدو الى عتبـــات النعيم بلفح الجحيم واعصـــاره (٣)

وهو على حرمانه لا ينفس على واحد مجدا ، ولكنه يغبط النابغ ويزكي نبوغه ويجامل ويكرم ويوفي الأحياء والأموات ··· وسيأتي ذكر هذا في حديثي عن شعر المناسبات ·

وهو ذو كبرياء ··· يلقى من أيامه نصبا فيكابر ويقول :

يادهـــر لم أشك الكلال ولا ملكت خطوب الدهر ارهاقي
عـــذبت أيـــامي بعفتهـــا وقتلتها بصـــفاء أخلاقي (٤)

أما عفته وصفاء أخلاقه فمما لا ينكره عليه أحد أما الشكوى فقد شكا وبكى ، بل لقد أردف النفي بالاثبات في القصـــيدة نفسها ·· أوليست هذه شكوى ·

ياكم غرست وكم سقيت وكم نضرت مـــن زهـــر وأوراق
ما حيلتي والأرض مجـــدبة ســـيان اقـــلالي واغـــداقي

---

(١) الدكتور ناجي · ديوان وراء الغمام ص ١٠٢ ·قصيدة الغد
(٢) الدكتور ناجي · ديوان (وراء الغمام) ص ١٨ ·قصيدة صلاة الحب ·
(٣) الدكتور ناجي · ديوان (ليالي القاهرة) ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ قصيدة ليالي القاهرة ··
(٤) الدكتور ناجي · ديوان ليالي القاهرة ص ٧٥ قصيدة شكوى لزمن ·

أين الذين رفعت فانحدروا — وبنيتهم بنيان خلاق (١)

ألا تشي هذه الأبيات بحسرته ، بتفجعه ؟

ان كنت لم أغنم فقد ظفروا — مني بمغفرتي واشفاقي

ألا ما أحوجه الى الاشفاق وما أجدره بالرثاء ··· على أن مغفرته قول شاعر ، أما الانسان الجريح فهذا رأيه :

لكنني والجرح يلهب لي — حسي ويكوي كي احراق
هيهات أنسى أنهم عبثوا — ووفيت لم أعبث بميثاقي (٢)

ولكنه لا يضمر البغض لأحد وكيف وهو داعية الى الحب والسماحة :

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا — لهم به صخب عال وضوضاء
وآخرون كسالى فى أماكنهم — كأنهم فى رمال الشط أنضاء
هم الورى قبل افساد الزمان لهم — وقبل أن تتحدى الحب بغضاء
ضاقت نفوس بأحقاد ولو سلمت — فانها كسماء البحر روحاء (٣)

فلما انفض الناس من حوله لا يبالون بدعوته لاذ بحبيبه متعزيا :

مالى بهم ، أنت لى الدنيا بأجمعها — وما وعت ولقلبى منك اغناء

وهنا يصفو ناجى ويرق وتجود شاعريته بمثل :

اذا نطقت فما بالقول منتفع — وان سكت فان الصمت افشاء
وأيما لفظة فالريح ناقلة — والشط حاك لها والأفق أصداء
ياليل ! من علم الأطيار قصتنا — وكيف تدرى الصبا أنا أحباء (٤)

والحب عنده ليس حب الهوى فحسب ··· ولكن حب الوطن وحب الانسانية جمعاء ···

وحب ناجى لوطنه — ان احتاج حب الوطن الى دليل — يتمثل فى اشادته به ، ويتمثل فى دموعه التى سكبها فى أتراحه ، وأغانيه التى أرسلها فى أفراحه ···

ان مصر أثيرة عند ناجى أحسنت أم أساءت ··· لقد خرج يوما منها مريضا ، ورجع اليها مكسور الساق يحمل عكازتين ، فلما أشرفت السفينة على بور سعيد هلل ناجى : رفاقى ·· تلك مصر يارفاقى ··

(١ ، ٢) الدكتور ناجى · ديوان ليالى القاهرة ص ٧٦ قصيدة شكوى الزمن ·
(٣) الدكتور ناجى · ديوان ليالى القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر ·
(٤) الدكتور ناجى · ديوان ليالى القاهرة ص ٩٨ قصيدة السراب على البحر ·

هتفت وقد بدت مصر لعيني رفاقي ! تلك مصر يارفاقي
أتدفعني وقد هاضت جناحي وتجذبني وقد شدت وثاقي
خرجت من الديار أجر همي وعدت الى الديار أجر ساقي (١)

ومن هتاف الوطنية على لسان ناجي هذا البيت النابض في وصف النسور المصرية .

وهلل السين اذ هلت طلائعنا طلائع المجد من أبناء وادينا

اني ألمح اعتزازه بمصر ووجده في تشبثه بالانتساب اليها في اضافته الى الضمير « نا » (طلائعنا ـ وادينا) .

وهاضت الأجنحة المحلقة واحترقت فذرف ناجي الدموع .. ذرفها عن ضعف المنكوب وان سلم شخصه على الأذى ، الشاعر بالمصيبة وان لم تمس منه الجسم . ولكن قطعة من وطنه تتلظى فيحس قلبه لفح النار ، ولكن اخوة له في الوطن يقضون فيبكي قلبه المصري لحما ودما ، المصري أملا وهوى ، يبكي قلبه وتبكي عينه ويبكي شعره من أجلهم ، من أجل مصر الأم .

يا أمتي كم دموع في مآقينا
نبكي شهيديك أم نبكي أمانينا

يا أمتي ان بكينا اليوم معذرة
في الضعف ، بعض المآسي فوق أيدينا (٢)

ان شاعرنا مواطن صادق ، كبير الألم ... كبير العاطفة .

وعلى حبه لوطنه ، ضاق صدره مرة ، فقال وهو يصف الليل في فينيسيا :

يارب ما أعجب هذي البلاد لا الليل فيها ! كل ليل صباح
وكل وجه في حماها ضماد ومصر لا تنبت الا الجراح (٣)

ولكني لا أحسب هذا ذما . انه أشبه بالعتاب منه بالذم ... لقد كان في ذلك الوقت متأثرا من حملة النقد التي أثارها عليه الأدباء على أثر ظهور ديوانه (وراء الغمام) ، فهو في هذين البيتين يتحسس جرحه .

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة . ص ٧٣ قصيدة المآب .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٨٤ قصيدة الأجنحة المحترقة .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٨٣ قصيدة الليل في فينيسيا .

وفى ناجى وفاء للصديق ... رأى رفيقا من رفاق صباه عليلا محمولا بعد غربة طويلة فارتاع :

لمن العيون الفاترات ذبولا ومن الخيال موسدا ، محمولا
يا هم قلبى فى صبا أيامه وسهاد عينى فى الليالى الأولى
عيناى كذبتا وقلبى لم يدع دقاته شككا ولا تأويلا
وبكيت من يأس عليك فلم أذر عند المحاجر مدمعا مبذولا (١)

على أن (ناجى) يعتقد أن الدموع تجف سريعا ومن ثم فهى لا طائل تحتها ولا جدوى فيها ... ولكنه يجود بها فى المآسى كما يفعل كل حزين (٢) .

وتستطيع أن تستشف من شعر ناجى غير هذا .... تواضعه ... ان شاعرنا ليس من فريق أبى الطيب الذى يمدح فيقول :

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما بشعرى أتاك المادحون مرددا
وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ولكنه من طراز آخر ... مصقول ... حتى .... مدح ناجى زميله الأستاذ دسوقى أباظة فقال :

دسوقى اذا أقبلت فاقبل تحيتى
فما أنا شاديهم ولا خيرهم أنا
ولكننى صوت المحبين كلهم
ومن روضك الغالى وبستانهم جنى (٣)

وقد سنح فى قصيدة (فى الظلام) بيت افتخر فيه ناجى بنفسه كالشعراء ، ولكنه مثال فرد أحسب أن القافية تحكمت فكان ... والبيت :

أيا مصر ما فيك العشية سامر ولافيك من مصغ لشاعرك الفرد(٤)

وهو على تواضعه وتزكيته لأمجاد الغير ، عالى الهمة لا يخضع لغير الله :

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٨ قصيدة المآب
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ قصيدة الأجنحة المحترقة .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ١٥٥
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢ قصيدة فى الظلام .

انى لأحمل جعبتى متحــديا زمنى بهــا وحواسدى وخصومى
أحنى لعرش الله رأســا ما انحنى بالذل يوما فى رحاب عظيم (١)

ويطيب لناجى أحيانا أن ينظم الحكم كقوله :

قد صــار حب الحيــاة منــا يقنــع بالجيفــة السبــاع
وعلم السمــح أن يضـــنا وثبت الجبن فى الطبــاع (٢)

وحكمته على صدقها لا تترك التأثير المنشود لأنه ليس شاعرها ولكنه شاعر الغزل وشادى الأيك ..

ومن غرائب ناجى قوله :

كم صحت والعين تذرى الدمع فى أســف
عــلى الجواهــر فى كف الردى العــادى
ألا رقــى للأباظيين تحفــظهم
على الحــوادث من أنظــار حســاد (٣)

رقى والنظرة والحسد ! ... وهذا القول من طبيب يدخل عندى فى باب الطرافة لولا أن المقام مقام عزاء ...

***

وناجى مداعب فكه عذب الروح ... ومن طرائفه يداعب صديقا شاعرا جمعته به وليمة :

بصرت به والصحن بالصحن يلتقى فلم أر أبهى من غنيم وأظـرفا
تراءى له لحم فلم يدر عنـده تدليك من بعد الطـوى أم تخرفا
وأومأ لى ، باللحظ يســألنى به أتعرفه ؟ أومأت باللحظ مسعفا
وقدمته للديك وهــو كأنما يطير اليـه واثبــا متلهفــا
غنيم ! أخونا الديك قدمت ذا لذا فهذا لهذا بعـد لأى تعرفــا
ومــا هى الا لحظة وتغــازلا وقد رفعا بعد السلام التكلفا
فمال على الورك الشــهى ممزقا ومال على الصدر النظيف منظفا
جزى الله أسنانا هناك عتيقــة ظللن على الصحن الأباظى عكفا (٤)

وما دمت مسترسلا فى الضحك فاسمع :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٦٦ قصيدة كبرياء .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٦١ قصيدة الليالى .
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ١٦١ .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

تعــير ناجى بالردنجوت جــاءه | معارا فغامر واستعر أنت معطفا
وأقسم لو أن الردنجوت نلته | رجاد به من جاد كرها وسلفــا
لقلبته ظهرا لبطن محـــيرا | به تحســبن الوجه من عبط قفــا
رأيتك والعــدس الأبــاظى قادم | كما انتفض المحموم بشر بالشــفا
وناهيك بالعــدس الأباظى منظــر | عظيم كما هيأت للعــين متحفــا
على أنه ما جـــاء حتى رأيتـــه | توارى كطيف لاح فى الحلم واختفى
فلله من لفظ ببطنـــك راسب | قرير ومعناه برأسك قد طفا (١)

وهو ساخر حتى من نفسه ۰۰۰ اعتز فى قصيدة باباته ومثل هذا الحديث يجد فيه صاحبه ويصطنع الشموخ أو يأخذ سمته ، ولكن ناجى الساخر السهل غلبته طبيعته البسيطة فقال :

قد عاش وهو معــذب باباته | ولقــد يلاقى يومه مســتكبرا (٢)

ان الذى يسلم الروح أغلى ما فى الوجود مقسور مغلوب على أمره فاقد الحيلة ۰۰۰ ان البيت ، دعابة ساخر ، وسخرية ممرور ۰

وناجى يعرف أن الناس يروعها اجتمـــاع الفن والعلم لاختلاف الطبيعتين ، وهو هنا يرد على السؤال الحائر (طب وشعر كيف يتفقان) ؟

والناس تســال والهواجس جمة | طب وشعر كيف يتفقـــان
الشــعر مرحمــة القلوب وسره | هبــة الســماء ومنحة الديان
والطب مرحمة الجسوم ونبعــــه | من ذلك الفيض العلى الشــان
ومن الغمام ومن معين خلقــــه | يجدان الهاما ويســتقيان (٣)

هنيئا له ۰۰۰ لقد اجتمعت له الرحمتان ۰۰ الشعر والطب ۰

ترى هل استكملنا شخصيته ؟ هل وضحت صورته عندك ؟ احسب أن هناك خطا لم يمتد به الحديث الى مداه وهو خط العاطفة ۰۰ وعاطفة ناجى تمثل الجانب المشرق منه ۰۰۰ انه شاعر الجمال والحب ومن ثم فنزله خليق أن نفرد له فصــلا مستقلا ۰۰۰ ولو أن عاطفتــه جزء من شخصيته التى نتلمسها فى هذا الفصل وكان يمكن للكلام عن محاسنه أن يتصل هنا ۰۰۰ ولكن حديث حبه طويل ذو فنون وهو غالب على شعره ۰۰ فمن حقه أن نقف عنده وقفة خاصة ۰۰۰ فهيا الى ۰۰۰ « شاعر الغزل » ۰

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ۰
(٢) المصدر نفسه ص ٨٩ قصيدة عذاب ۰
(٣) الدكتور ناجى ۰ ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٥ ــ ١٩٦ خمر الرضا ۰

شاعر الغزل

الغزل نشيد الحب .. والحب .. ما هو ؟ هل قرأت قصته ؟ ان (ناجى) يقول :

هى قصة الدنيا ، وكم من آدم ... منا له دمع على حواء
كل به قيس اذا جن الدجى ... نزع الاباء وباح بالبرحاء
فاذا تداركه النهار طوى المدا ... مع فى الفؤاد وظن فى السعداء
كل له (ليلى) ومن لم يلقها ... فحياته عبث ومحض هباء
كل له (ليلى) يرى فى حبها ... سر الدنى وحقيقة الأشياء
ويرى الأمانى فى سعير غرامها ... ويرى السعادة فى أتم شقاء
الكون فى احسانها والعمر عند ... حنانها والخلد يوم لقاء (١)

وناجى يرى فى الحب متنفسه :

نضبت رحمة الوجود جميعا ... وبك الرحمة التى ليس تنضب
واذا ضاقت السماء بشجوى ... فالسماء التى بعينيك أرحب
كم تمنيت والصدور تجافينى ... وتزور والوجوه تقطب
كم تمنيت صدرك البر يرتاح ... على خفقة الطريد المعذب
هات وسدنى الحنان عليه ... جسدى متعب وروحى متعب (٢)

(جسدى متعب وروحى متعب) (نضبت رحمة الوجود جميعا وبك الرحمة التى ليس تنضب) ... شقاء عيش تمسحه هناءة الحب ... هذه هى خلاصة قصته ...

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٢ و ١٨٣ قصيدة دين الاحباء
(٢) الدكتور ناجى ، ديوان (ليالى القاهرة) ص ١٩٤ قصيدة خمر الرضا .

وهو يؤمن بالحب دواء لكل داء :

يا أيها الحب المطهر للقلوب وغاسل الأرجاس والأدران (١)

وهو يستمرئه ٠٠ انى أقرأ وصفه له وكأنى أرى نشوان يترشف كأس الرحيق ٠٠٠٠ ألا يخيل اليك هذا حين تسمعه يقول عن الحب :

ما أعظم النجوى الرفيعة كلما	يشدو بها روحان يحترقان
أنفا من الدنيا وفى جسديهما	ذل السجين وقسوة السجان
فتطلعا نحو السماء وحلقا	صعدا الى الآفاق يرتقيان
وتعانقا خلف الغمام واترعا	كأسيهما من نشوة وحنان (٢)

لقد تساءل الدكتور طه فى آخر حديثه عن ديوان ناجى (وراء الغمام) تساءل عن عنوان الديوان مقررا أنه لم يفهمه ، وخشى (أن يكون العنوان متكلفا ، كما أن كثيرا من المعانى والألفاظ ومن الأوزان والقوافى متكلف أيضا) (٣) ٠

لقد تذكرت سؤال أستاذنا الدكتور طه وأنا أقرأ هذه الأبيات ، لقد مر بنا أن (ناجى) كان شقيا بدنياه ، ضائقا بهذه الأرض ٠٠٠ وكم شكا منها اليها ٠٠٠ الى أهليا ، والى ليلها والى أنهارها والى بحارها فلم تجده الشكوى ولم يغن عنه الأنين شيئا ٠٠٠ وهذا عندى هو سر تطلعه الى فوق ٠٠٠ الى السماء ٠٠٠ الى وراء الغمام ٠٠٠

هذه رغبة نفسه أطلقها على جمع من شعره ، وهو بضعة من تلك النفس لينم العنوان كسائر شعر الديوان عن أمل مشرئب ٠٠٠ وليشف العنوان كسائر شعر الديوان عن روح محلقة ٠٠٠

ولعل هذه الأبيات ولا سيما العبارات التى ميزتها تؤيد هذا التفسير عندك بعد أن أوحت به الى ٠٠٠

وناجى رقيق فياض العاطفة تستطيع دمعة من الحبيب أن تطهر للدنيا التى أشقته بحرا من الآثام ٠٠٠٠ وهل أرق من هذه المناجاة :

يا مناجاتى وسرى	وخيالى وابتداعى
ومتاعا لعيونى	وشميمى وسماعى

---

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ ٠

(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ قصيدة خمر الرضا ٠

(٣) الدكتور طه كتابه حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٥٧ ؛

تبعث السلوى وتنسى الموت مهتوك القناع

دمعة الحزن التى تسكبها فوق ذراعى (١)

وناجى العاشق روح شفافة هفافة مجنحة ... اسمعه معى تطرب لقوله :

سموت كأنما أمضى الى رب ينادينى
فلا قلبى من الأرض ولا جسدى من الطين

سموت ودق احساسى وجزت عوالم البشر
نسيت صغائر الناس غفرت اساءة القدر (٢)

ولا ينفى هذا ارتداده الى بشريته أحيانا ورغبته فى الحب حسيا قائلا :

شفتى موتورة ظمآنة جنت جنونا (٣)

انه مضطرم العاطفة متأجج الرغبة ولكنه لا ينال ، فيفرغ شحنة الشوق الملتهب فى المصافحة :

وكأن الآن كفى حملت ثارا دفينا
تتمناك حبيبا عندها العمر سجينا
طائرا ألفى على راحتها وكرا أمينا
وشعاعا قدسيا هادىء النور مبينا (٤)

وأحيانا يضعف أمام رغبات الحس فيصيح فى الخلاء :

أجر شفتى من عذاب الظما أما أذن الله أن ترحما
أتمعن فى الهجر حتى ترانا بكينا دما واحترقنا فما (٥)

ولكن الذنب ليس بذنبه وانما هو الهوى وتلك جنايته .

وإذا حل الهوى هيهات تدرى كيف كانا

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٥٢ قصيدة الميت الحى .
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢١ قصيدة صلاة الحب .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع .
(٥) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٢٢ قصيدة العائد .

فاذا ما ملك الأنفس اصـــلاها عـوانا
فهـو نصل مستقر ولهيب لا يـدانى (١)

وناجى ملتهب الحس تحس وقدته فى بيتيه :

بورك الكرم والقطوف وأوقات كأن العنـــاق فيهـا اعتصار
كلما أطلقتك كفى استردتك كمـا يحفـز الغريم التـار (٢)

ولكن (ناجى) ، كما نادى بالشعر الحس ، خاطب الروح ٠

كم هـدأ الليـل وران الكرى الا أخا سـهد يغنى شـجاه
ناداك من أقصى الربى فاسمعى لمن على طول الليـالى نداه
نادى أليفـا نام عن شجوه عذب تجنيه عـزيز جنـاه
أحبــك الحب وغـنى به عف الأمانى والهـوى والشفاه
وانمـا الحب حديث العلا أنشودة الخـلد ونحن الرواه (٣)

وكثيرا مايعف ناجى فى شعره :

قـد عرفنا صـولة الجسم التى تحكم الحى وتطغى فى دمـاه
أمرتنا فعصـينا أمرهـا وأبينا الذل أن يغشى الجباه
حكم الطاغى فكنا فى العصـاة وطردنا خلف أسـوار الحياه

يالمنفيين ضـلا فى الوعـور دميا بالشوك فيهـا والصخور
كلمـا تقسو الليـالى عرفـا روعة الآلام فى المنفى الطهـور
طردا من ذلك الحلم الكبـير للحظوظ السود والليل الضرير
يقبسان النور من روحيهمـا كلما قد ضنت الدنيـا بنور (٤)

انه يسمى لذة الاثم حظا أسود وليلا ضريرا ٠٠٠ هنا روح متألقة ٠٠٠ وهو يتفانى فى الحب حتى ليبذل من أجله ما يضن به على سواه :

يا لها من خطـة عميـاء لو أننى أبصر شـيئا لم أطعها
ولى الويـل اذا لبيتهـا ولى الويل اذا لم أتبعهـا
قد حنت رأسى ولو كل القـوى تشترى عزة نفسى لم أبعها (٥)

حتى اذا أرهقه الألم وأمضه الشجن صرخ يائسا مجهودا :

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٢٤ أغنية فى هيكل الحب ٠
(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ١٠٢ السراب فى السجن ٠
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٦ أنوار ٠
(٤) المرجع نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥ قصيدة الاطلال ٠
(٥) المرجع نفسه ص ٤٦ قصيدة الاطلال ٠

أعطني حريتي أطلق يدي ... انني أعطيت ما استبقيت شي
آه من قيدك أدمى معصمي ... لم أبقيه ؟ وما أبقى على
ما احتفاظي بعهود لم تصنها ... والام الأسر والدنيا لدى
ها أنا جفت دموعي فاعف عنها ... انها قبلك لم تبذل لحى (١)

انني أعطيت ما استبقيت شي ... أرأيت أجود منه وأندى ؟ أصخ معي الى (انني أعطيت ما استبقيت شي) ... أليست حلوة النغم .. والياء في الألفاظ الثلاثة أكسبت التعبير كله ليونة وطواعية ورفقا .. إنني لا أسامح بعد هذا من يأخذ (ناجى) بالخطأ النحوى في لفظة (شي) ، ويفسره على أن يقول (شيا) .. حسب الشاعر أن ينقل اهتزازات نفسه الى نفوس أخرى وأشهد أن بيته هز نفسي وأسرها ...

غرامك كان محراب المصلى ... كأني قد بلغت بك السماء
خلعت الآدمية فيه عنى ... ولكن ما خلعت به الاباء
فلم أركع بساحته رياء ... ولا كالعبد ذلا وانحناء
ولكني حببتك حب حر ... يموت متى أراد وكيف شاء (٢)

انه عزيز النفس ، ولقد تثور به عزة نفسه فيطرح من حرص عليه وضحى من أجله وبذل ما بذل :

وحبيب كان دنيا أملى ... حبه المحراب والكعبة بيته
من مشى يوما على الورد له ... فطريقى كان شوكا ومشيته
من سقى يوما بماء ظامئا ... فأنا من قدح العمر سقيته
خفق القلب له مختلجا ... خفقة المصباح اذ ينضب زيته
قد سلانى فتنكرت له ... وطوى صفحة حبى فطويته (٣)

ولقد عنفت يوما ثورته واضطرمت فجمع مادة حبه ، رسائل الحبيب ... اتعرف ما فعل بها .. اسأله يجيبك :

أشعلت فيها النار ترعى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا من بدئها لختامها (٤)

أتحسبه مرتاحا هادىء البال ؟ كلا .. لقد احترق هو أيضا .. بل بكى وهو يحترق :

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٤٨ قصيدة الأطلال .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٦٤ قصيدة كبرياء .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٦٤ كبرياء .
(٤) المصدر نفسه ص ٦٨ رسائل محترقة .

أحرقتها ورميت قلبي في صميم ضرامهـا
وبكى الرماد الآدمي على رماد غرامهـا

انه وفي حتى في شموخ الكبرياء .. وقد يخيل اليه واليك انه تبدل وغير رأيه ، ولكنها حالات عارضة تعتريه كانسان ، وهو بعد هذا عاتي الوفاء فلا يزحزحه شيء .. أسمعت حديثه مع الريح ؟ لقد قالت له :

أيها الساهر تغفو تذكر العهد وتصحو
واذا ما التأم جرح جد بالتذكار جرح
فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو
أو كل الحب في رأيك غفران وصفح

هاك فانظر عدد الرمل قلوبا ونساء
فتخير ما تشاء ذهب العمر هباء
ضل في الأرض الذي ينشد أبناء السماء
أي روحانية تعصر من طين وماء (١)

انى ألمح تشوقك الى الجواب .. ها هو ذا جوابه :

أيها الريح أجل لكنما هي حبي وتعلاتي ويأسي
هي في الغيب لقلبي خلقت أشرقت لي قبل أن تشرق شمسي
وعلى موعدها أطبقت عيني وعلى تذكارها وسدت رأسي (٢)

أتصدق أن مثل هذه الألحان لا تجد سميعا طروبا ، وأن صاحبها لا يحظى بتجاوب مسعد ؟ انى لست واهمة فها هو ذا الشاعر يحكي :

يا نداء كلما أرسلته رد مقهورا وبالحظ ارتطم
وهتافا من أغاريد المنى عاد لى وهو نواح وندم
رب تمثال جمال وسنا لاح لى والعيش شجو وظلم
ارتمى اللحن عليه جاثيا ليس يدرى أنه حسن أصم (٣)

ان شاعرنا من طبعه الوفاء ولكن ماذا يفعل اذا أعوزه القدر لوفائه المتجاوب معه . المغالى بحبه ، أملوم ان راد قلبه على التنقل في الهوى ؟

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٥١ قصيدة الأطلال .
(٢) المصدر نفسه ص ٥١ ـ ٥٢ القصيدة نفسها .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ ـ ٥٤ القصيدة نفسها .

يا قلب ! صهباء الهوى وبساطه — وكئوسه المتجاوبات الصدح
وقف على متنقلين على الهوى — يبغون من لذاته ما يسنح
متبدلين موائدا وأحبة — ما خاب من حب فآخر يفلح
فالحب آسيه وراء عليله — فيهم ، وبلسمه على ما يجرح (١)

حجج مغرية ٠٠ انى أكاد أتمثل كبرياءه المجروحة وهى تملى على قلبه حججها وكأنها أعذار تشفع لها فى نكث العهد ونقض الميثاق ٠٠٠ ولكن القلب العميد يبدو أنه غير مقتنع .. اذ لو أطاع لما صاح به شاعرنا :

يا قلب · ويح ثباتنا ماذا جنى — أترى شعاعا فى البقية يلمح (٢)

لا تحسب هذا البيت يأسا خالصا فان فى الشاعر ذماء من أمل يبعثه فيه عصيان القلب ٠٠٠ ترى هل عند القلب أسباب للعصيان ؟ ٠٠ هل وراء اصراره على الوفاء سر ؟ انه يريد أن يستوضحه ولكن كبرياءه مثخنة بالجراح لا تحتمل جديدا وهى تقسر نفسها قسرا على الاباء ماذا يفعل اذن ؟

ليصطنع الغضب ٠٠٠ ليزجر القلب فى تساؤل المستنكر وهو فى استنكاره يتلهف على جواب :

يا قلب · ويح ثباتنا ماذا جنى — أترى شعاعا فى البقية يلمح

وانتصر القلب الذى يدين بالوفاء ، وها هو ذا الشاعر يترطب لسانه بعتاب رقيق وكأنه صلاة :

يا أيها الحب المقدس هيكلا — ذاق الردى من عابديك مسبح
كثرت ضحاياه وطال قيامه — وصيامه فمتى رضاؤك تمنح ؟
يا دوحة الأرواح يحمد عندها — فىء ويعبد زهرها المتفتح
أينال ظلك والرعاية عابث — بجلالك البادى وآخر يمزح
ويبيت يحرمه قتيل صبابة — قضى الحياة الى ظلالك يطمح (٣)

انه صفوح ٠٠٠ تسأله كيف الحال فيقول :

كم تقلبت على خنجره — لا الهوى مال ولا الجفن غفا
واذا القلب على غفرانه — كلما غار به النصل عفا (٤)

---

(١) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ١٩٠ ـ ١٩١ قصيدة الختام ·
(٢) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ١٩١ قصيدة الختام ·
(٣) المصدر نفسه ص ١٩١ ـ ١٩٢ والقصيدة نفسها
(٤) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٤١ قصيدة الأطلال ·

انه محب رقيق ... رقيق حتى حين يلوح بالهجر والفراق :

وهب الطائر عن عشك طارا جفت الغدران والثلج أغارا
هذه الدنيا قلوب جمدت خبت الشعلة والجمر توارى
واذا ما قبس القلب غدا من رماد لا تسله كيف صارا
لا تسل واذكر عذاب المصطلى وهو يذكيه فلا يقبس نارا (١)

وهو فى الهجر حنان مشتاق :

كثر الهجر على القلب فهل من سلو أو بعاد يرتضيه
أنت فجر من جمال وصبا كل فجر طالع ذكرنيه
كيف جانبتك أبغى سلوة ثم ناجيتك فى كل شبيه
أيها الساكن عينى ودمى أين في الدنيا مكان لست فيه(٢)

ولا يلبث طويلا حتى يغلبه هواه فيستعطف :

الحى محا ذنبى اليك وكفرا هبنى أسأت ألم يحن أن تغفرا
ظمآن لو باع الأحبة قطرة بالعمر والدنيا جميعا لاشترى
أخفى جراحك واستعز بفتكها غريدك الشادى المحلق فى الذرى(٣)

ولناجى فى الحب تاريخ حافل ، وسأدعه يروى لك قصة من قصص حبه :

زرتنى كالربيع فى موكب الزهر له روعة وفيه رواء
ولك الوجه أومض الحسن فيه والتقى السحر عنده والذكاء
وشحوب كظل خمر وللندمان تجلو شحوبها الصهباء
ولك الجيد أتلعا أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء
قد من مرمر شعشعه الفجر بورد وصب فيه الضياء
وأنا الطائر الذى تصطبى نفسى السماوات والذرى الشماء
راشنى صائد رمانى فأدمانى وولى الجانى وعاش الداء (٤)

أيها أروع موكب الزهر أم معرض الحسن والسحر والذكاء ؟ هل راقك هذا اللون من الشحوب كظل الخمر ؟ وهل أطربك الغموض الفنى فى قوله (أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء) ؟

---

(١) المصدر نفسه ٤٨ القصيدة نفسها .
(٢) المصدر نفسه ٨٨ ــ ٨٩ قصيدة عذاب .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٩٢ ــ ٩٣ ملحمة السراب .

ومما رأى في حبه ، هذه المشاهد التي يرويها في هذه الأبيات :

عشت حتى أرى خمائل حبي تتهاوى كشامخ ينهار
تحت عيني ويذبل الحسن فيها ويموت الربيع والأنوار
ما انتفاع الفتى بموحش عيش بقيت كأسه وطاح العقار
وبقاء البساط بعد الندامى كأس سم بها يدور البوار
ما انتفاعي وتلك قافلة العيش وفي ركبها اللظى والدمار
الدمار الرهيب والعدم الشامل واللفح والضنى والأوار

أي عذاب!

انك تقرأ سيرة حبه فينالك البهر من كفاحه وتوزعه بين الرضا والغضب والشك واليقين والوفاء والغدر والتذكر والنسيان ..

زعم مرة أنه سلا فانطلق يرحب بضيف السلوان :

في كفه كأس يقدمها تمحو العذاب وتغسل الندما

وتسأله عما في الكأس فيقول كالمستريح وهو المعنى :

فيض من النسيان يغمرني اني لأحمد سيله العرما
مستسلما للموج يغمرني فرحان حين أعانق العدما (٢)

أتصدق أنه (فرحان) حين يعانق (العدما) ؟ ... ان بيته الأخير يشي بحسرته ...

ماذا تنتظر أن يكون قلبه بعد أن شرب من هذه الكئوس وغص بها ، وعانى من هذه الأهواء لقد

مزقته فصار والله لا يقدر حتى أن يسأل الله رفقا
لجة بعد لجة كلما صارع ردت له أمانيه غرقى
فيلق بعد فيلق حجب الشمس ولم يبق للنواظر أفقا
وسنان الغروب تغزوه حمرا وسنان العذاب تطعن زرقا
وجيوش الظلام تزحف زحفا وثقال الأقدام تسحق سحقا (٣)

وهو على ولعه بالغيد يسخط أحيانا عليهن ، هؤلاء الدمى ، هؤلاء الأصنام الجميلة .... ويزجر قلبه فلا يرعوى :

---

(١) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ١٠١ السراب في السجن .
(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٨٥ قصيدة النسيان .
(٣) الدكتورناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٧٢ قصيدة بعد الفراق .

يا قلبي الشاكي المعذب هذه الشكوى لما ؟
يا طفلي النواح آن اليوم أن تتعلما
أسفي لغالي الدامع تبذله لمرتخص الدمى
تبكي على العرش المصو غ من المدامع والدما
تبكي تراب الأرض مصبوغا بألوان السما (١)

لا تصدق ... انها ثورة غضب كسحابة صيف ... أتذكر طول شكواه من الحياة وتمنيه الموت واشادته (بمباهج) القبر ؟ أتعرف ماذا حدث بعد هذا ؟ لاح له من يحبه فسرعان ما نسي آلامه وانطلق يقول :

لولاك والعهد الذي عقدت بيني وبينك مهجتي ويدي
أضجعت جنبي جوف غيهبه وأرحت فيه بالي الجسد (٢)

ووافاه الحبيب وصفا له فتهلل كالطفل وابتهج كالعصفور حط على جنة فيها الماء والحب والشجر ، لقد سمعته جذلان يقول :

طابت بك الأيام وافرحتاه أنت الأماني والغنى والحياة
فليذهب الليل غفرنا له مادام هذا الصبح عقبى دجاه (٣)

انها الطفولة المتجددة الكامنة في طبيعة كل عظيم ... ولعل هذه الطفولة المتجددة الكامنة في طبيعته ، يرفدها حبه للجمال ، وهيامه بالحب ، هي التي حدت به الى التراجع عن تمني الموت ، بل حدت به الى الاشفاق على نفسه منه حتى ليتلهف على الحياة ونعيمها ويتساءل .

يا أيها العالم الأخير ماذا ترى فيك من نصيب
أراحة فيك للضمير أم موعد فيك من حبيب (٤)

أرأيت انه يتمنى لو اتصلت مواعيده في الأخرى كالأولى ... ولعله تذكر برمه بالحياة وأحس أنه يناقض نفسه بمخايلتها فراح يفسر جزعه من الموت بجهل الحي له ، ولو علمه لاستعذبه ..

كم يعذب الموت لو تراه أو كان فيك اللقاء يرجى
ينفض عن عينه كراه ويقبل الراقد المسجى (٥)

لكن شكا بما تجن خيم فوق العقول جمعا
عجبت للمرء كم يئن ويستطيب الحياة مرعى (٦)

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٨٢ قصيدة الصنم الجميل .
(٢) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ٤٩ قصيدة الميعاد .
(٣) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة ص ٢٥ قصيدة النوار .
(٤ ، ٥ ، ٦) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٦٠ قصيدة الليالي .

انه لا شك يلمح نفسه في هذه الأبيات :

ويتصل بهذا فزعه من الشيب نذير المغيب والحرمان من الحبيب :

يا ويلتا من عمرى الباقى   هذا سواد تحت أحداقى
هذا بياض الشيب واعجبى   من مغرب فى زى اشراق (١)

ويبدو أن الحب يخرج المحب عن طوره ويبدل صورته أحيانا ، والا فكيف يقول ناجى السخى الخير مثل هذا البيت المشوب بالأنانية :

ونود لو خلت الحياة لنا   كطريقنا وغدت بلا أحد (٢)

انه طغيان الحب ... فاعذره ..

وناجى المتدفق العاطفة فى الحب والفرح ، عميق العاطفة فى الحزن ، سخين الدمع ، شجى النواح .. سهر عند مريض حبيب يعنى به ، وكان وداعه فى الصباح فودعه بقصيدة باكية منها :

فيم الغدو غدا وأين رواحى   ويح الصباح! لقد مضى بصباحى

....

يا هاتفا باسمى فديت مناديا   رد النداء عليه حر نواحى
يا آسى الآسى لمت جراحتى   وأسلت يوم نواك أى جراح
طأطأت للبين المشتت هامتى   فى أى آلام وأى كفاح
هدم الضنى العادىقوى شكيمتى   وثنى معاندتى ورد جماحى
وطغى على الملك الموسد بيننا   فى لطف زنبقة وضعف أقاح (٣)

ولكنه ما لبث أن تسلى بحكم طبيعة الطفولة المتأصلة فى نفس الفنان فنراه بعد أن أطلق هذه الأنات :

عاد الشقى الى قديم شقائه   ومحا من الدنيا السعادة ماحى
ويح الحياة اليوم أين جمالها   وعلام اخفاقى بها ونجاحى
أنت الذى وهب الحياة لميت   فى الأرض منفرد بغير طماح
أشرقت فى ظلمائها وغمامها   وطلعت مثل البارق اللماح (٤)

تسلى ووجد على الاثر من يقول له :

أدركت عندك يومى الموعودا   ولقيت فيك مثالى المنشودا

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٧٥ قصيدة شكوى الزمن
(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٨٦ قصيدة المساء .
(٣) الدكتور ناجى وراء الغمام ص ١٤٢ قصيدة وداع المريض .
(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٤٣ قصيدة وداع المريض .

وافرحتى بك فرحة الطفل الذى يلهو ويخلق كل يوم عيـدا
وافرحتى بك فرحة الطير الذى ملأ الروابى المصغيـات نشيدا
طربت لصدحته وصفق طاهرا جذلان فى عرض الفضاء سعيدا
مى موكب من قلبـه وحبيبـه من راح تحسبه العيون وحيدا (١)

أرأيت ؟ ... انه لم يعد وحيدا .. واذا تأملت الاسم الذى خلعه على القصيدة (فرحة جديدة) وجدته ينم عن شعور بالتلهى ، وأنه قلب الصفحة وبدأ عهدا جديدا وفرحة جديدة . انهـا الطفولة كما قلت ، والأدب كما يقول شاعرنا نفسه (تنبت جذوره وعناصره فى الطفولة ، فمن المألوف أن الطفل ينام على اللحن الموسيقى ، ويستأنس بالغناء ، ويحب القصة الخيالية ، وقد يؤلفها هو نفسه .

والواقع أن الأديب طفل لم يكبر .. والأديب الصحيح من له خصائص الطفل ، فى فرحته بالأشياء ، وسذاجته ، وتهلله ، وضحكته، وخياله ، وفرحه وابتهاجه بالموسيقى) (٢) .

انه سريع الاسـتجابة ، كصفحة الغدير تتأثر بأوهن النسيم ، والحب عنده قد يولده العطف كما يولده الجمال والاعجـاب سـواء بسواء . لقد عرفنا أنه حزين .. والحزين من طبعه منعطف الى كل حزين .. منجذب الى كل شـجى مكروب .. وهكذا .. يرى ناجى امرأة حزينة فيميل اليها وما أن يتأملها حتى يهتف :

فأنا ان لم أكن توأمهـا فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواح حيـارى ثمـلت وانتشت سكرى على لحن أساها (٣)

ثم يحدثها حديث ملهوف وجد خدن روحه وصورة نفسه :

قربى روحك منى قـربى ظلليني واغمريني برضاها
وتعالى حدثينى . حـدثى أنت مرآة شـجونى وصداها (٤)

انه ينشد الظل والمأوى والسكينة .. ان قلبه مشبوب يهفو الى ... شىء ...

ويبدو ناجى لعينيك أحيانا حالما يتمتم :

أخيـالا كان هـذا كله ذلك الجسر الذى كنا عليه
والمصـابيح التى فى جانبيه ذلك النيـل وما فى شاطئيـه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٤ قصيدة فرحة جديدة .
(٢) من مقال للدكتور ناجى عنوانه (سيكولوجية الأديب) مجلة الرسالة ص ١٩٤
(٣ ، ٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٥٦ ـ ١٥٧ قصيدة الى س .

وشعاع طوفت في مسائه وظلال رسبت في ضفتيه
وحبيب وادع في ساعدي ووعود نلتهما من شفتيه (١)

وهو من دنياه الخاصة في عالم فريد وأحلام يقظته حشد حافل.
فاذا رأيته صامتا فلا تحسبه ساكتا .. انه في صمته يتحدث ويسمع .

رفرف الصمت ولكن أقبلت من أقاصي السهل أصداء بعيده
تتهادى في عباب ساحر مرسل للشط أمواجا مديده
كم نداء خافت مبتعد تشتهي اذن الهوى أن تستعيده
عاد منسابا الى أعماقها هامسا فيها بأصداء جديده (٢)

رفرف الصمت ولكن ها هنا كل ما فيك من الحسن يغني
آه كم من وتر نام على صدر عود نوم غاف مطمئن
وبه شتى لحون من أسى وحنين وأنين وتمن
رقد العاصف فيه وانطوت مهجة العود على صمت مرن (٣)

وناجي عينه نفاذة تلمح الحسن متبديا ومقنعا ، ويخاطبه في الغادة الهيفاء ، ويخاطبه في الراهبة الباكية سواء بسواء .. أما حديثه مع الأولى فذائع .. وأما حديثه مع الأخرى فها هو ذا :

يا ربة الحسن الذي تصبو له مهج العباد وترتجيه جميعا
الحسن من حق الورى وحملته متأبيا مستخفيا ممنوعا
في الدير مثواه وفي جنح الدجى يتحدر الحسن الشهيد دموعا
تتحرق الدنيا عليك وربما أوقدت نفسك في الظلام شموعا (٤)

وناجي متيم بالجمال ، يهواه بل ويقدسه ، حتى ليوقعه الهوى والتقديس أحيانا في مآزق انسانية لو صح هذا التعبير ، كهجائه لمكفوف بني بحسناء (٥) ... وكان الظن بناجي الطبيب الشاعر في مثل هذا الموقف أن يحمد للأقدار تعويضها الرجل عن النور السليب ، الجمال الحبيب .. وهل الأبصار شيء ينال بالاكتساب الذي يحسب لصاحبه الفضل فيما كسب ثم عجز عنه ذلك الرجل حتى يلام عليه ؟ ولكن اعزاز ناجي للجمال وضنه به وتعصبه له هو الذي أثار غضبه على المسكين .

---

(١) الدكتور ناجي « ليالي القاهرة » ص ٢١٣ ــ ٢١٤ قصيدة الخريف .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٢١٤ قصيدة الخريف .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالي القاهرة ص ٢١٤ ــ ٢١٥ قصيدة الخريف .
(٤) » » ص ١١٠ قصيدة الراهبة الباكية .
(٥) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام ص ١١١ قصيدة هجاء أعمى بغيض .

وولع ناجى بالحب والجمال والشعر يعزى فيما يعزى الى شعور متأصل فيه بقصر عمره ·· وهذا الشعور يلوح لك فى ثنايا شعره كقوله :

ذاك عهدى لكن قلبك لم يقض ديون الهوى ولم يرع عهدا
والوعود التى وعدت فؤادى لا أرانى أعيش حتى تؤدى (١)

لهذا يريد أن ينتهب اللذات ، ولهذا يريد أن يتعجل المسرات · على أن السبب الأقوى لا يزال عندى يكمن فى طبيعته الخيرة وفطرته النقية التى تدفعه بوحى منها الى الخير والجمال والحب ·

وقد كان يحب الحب نفسه ومن ثم كان كل ما فى الحبيب يوحى اليه ، ويسر فى أذنه حديثا يعلنه شعره ·· فجماله ·· وحلاه ، وذكاؤه ورياه ، وغضبه ورضاه ·· عرائس الهام ·· وما بالغريب هذا ·· ولكنك تلمح فى مؤخرة الموكب الحافل ·· كلبا صغيرا ·· انه ميكى ·· وما عمله ؟

فيم السؤال وكل شىء طيب من أجلها
وبنفسه حب قصاراه الحياة بظلها
سارت وأكل متاعه فى أن يسير بقربها

يستاف نعليها ويأبى فى الوجود منافسا
فاذا تخيل دانيا من تربها أو لامسا
يختال ملء نباحه زهوا ويخطر حارسا

فى وثبة هيهات يسأل ما يكون وراءها
الأمر كل الأمر أن يغدو يدافع دونها
والنفس تنكر فى الضحية عقلها وجنونها

اذن ليس (ميكى) فضولا فى الموكب الرائع ·· فى نظر الشاعر على الأقل ·· ان الصديق الصغير يؤدى عملا جليلا ·

ولقد راق ناجى تعريف تيوفيل جوتييه للحب حتى ليعده أحسن ما قيل على الاطلاق فى التعاريف الأدبية اذ الحب فيه (أن يسلم شخص

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٥٦ قصيدة ذات مساء ·
(٢) من شعر له لم ينشر بعنوان « ميكى » ·

تماما نفسه لآخر ، وأن يتنازل له عما يملك وما يعتقد . فلا يرى الا بعينه ولا يسمع الا بأذنه ، أى أن تصير واحدا فى اثنين ، بحيث لا يعرف هل أنت ، أم أنت الآخر ، فتمتص شعاعا ، وتنشر شعاعا ، فتصير القمر مرة ، والشمس أخرى ، وترى كل الخلق والوجود فى الشخص الآخر ، فينتقل مركز الحياة . عندك الى هناك . وتكون مستعدا لأكبر التضحيات وانكار الذات . ومستعدا لأن تتألم على الصدر الثانى كأنه صدرك أنت . والمعجزة أن تتضاعف وأنت تبذل ! هذا هو الحب !) (١) .

وفى التفصيل دلالة لا تخفى ، لأن سيرة شاعر الغزل ، تفسير واف للتعريف ، وشعره فى هذا المجال آيات شواهد .

وما كنا لنحتفى بنزله هذه الحفاوة لولا أنه يتغزل عن شعور لا تقليد ، ووحى لا صنعة ، وطبيعة لا تكلفا .

وهذه النتائج التى استخلصتها الدراسة من شعره لم يغير منها الزمن . فبين يدى الآن شعره المخطوط وهو لحسن الحظ يحمل تاريخا مميزا اذ كتب عليه من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ .. أى شعر سنيه الأخيرة .

وقد وقفت عند هذا الشعر وقفة خاصة عل فيها اتجاها آخر ، أو رأيا جديدا ، أو تحولا فى سيرة حياة .. فماذا وجدت ؟ الغناء هو الغناء ، والرفيف هو الرفيف ، والهفهفة كالعهد بها كلما لاح بها جمال أبو تبدى حسن أو ضاع عبير .. والعاطفة واها له منها .. لقد أحسست خفقها قويا معبرا فى شعر الغروب .. أحسستها واعجبنى جيّاشة عارمة لم يبترد لها أشواق ، ولم يرو منها أوام .

وقد سمعنا شعر الشباب فى ديوانى (وراء الغمام) وشعر الرجولة فى ديوان (ليالى القاهرة) ، فهل كان أحر جوى وأرق هوى من شعر المغيب هذا :

أنا وحدى فى البيد حيران هائم ... فمتى تذكر القفار الغمائم
رحمة يا سماء ان فمى جف ... وحلقى عن الموارد صائم
أيها الطاعم الكرى ملء جفنيك ... وجفنى من الكرى غير طاعم
أبكنى واستبد بى واقض ما شاء ... لك الحسن واظلم وخاصم
غير هذا النوى فان لياليه ... ظلال من المنايا حوائم
بالذى صنت عهده لم أخنه ... ومتى خانت الأكف المعاصم

---

(١) كتاب (كيف تفهم الناس) للدكتور ابراهيم ناجي ص ١١٨

والذى حكمه كأقدار عينيك فما منهما ولا عنه عاصم
أى صوت من الغيوب ينادينى فأطوى له الدنى والمعالم
قدر مشعل على شفة تدعو فأخطو على اللظى غير نادم

صاغ ناجى هذا الشعر المشبوب فى يونية سنة ١٩٥١ أى قبل منيته بسنة وبضعة أشهر فجاء كشفق المغيب أشد ما يكون احمراره توهجا وضراما قبل الرحيل ، وكأن الشمس الذاهبة ولوع بالحياة والنور والنهار ، فهى تريق على صفحته ، وتذيع فى جوه اشواقها الملتهبة الدامية كى .. لا ينسى .

أبكنى واستبد بى واقض ماشاء لك الحسن وأظلم وخاصم

لا أريد أن افسر هذا البيت كى لا يفسده الشرح والتفسير ولكنى سأترك الشاعر نفسه يفسره بشعره لعل تفسير الشعر بالشعر آكرم لجمال الفن .. وها هو ذا ناجى يفصح عن السر فى طلبه الغريب .

يا روح روحى ودوائى وجروحى
على قلبى تنقلى واذهبى وروحى
عذابك يلهم وهجرانك يوحى
فما بالك بالقرب ووجهك الصبوح

هذه فلسفة الحب ! .. لتكن .. سمها ما شئت .. ولكنها عندى ، حنان ...

ومن شعر ناجى نتبين أنه ليس من الموحدين فى الحب فله محاب كثيرة ...

وقد ذاق ألوانا من الحب فتارة يفتنه (السحر والذكاء) ، وآنا يغريه الجمال .

ومن محابه البيضاء الزاهرة والسمراء الفاتنة .. وكما راعه الاشراق فى الأولى سبته السمرة والجاذبية فى الأخرى حتى كاد أن يعبدها ، ومن صلاته لها هذه الترنيمة :

ملكى ومحرابى وقدس فؤادى المتبتل
لمن الجمال الفخم يرفل فى الغلائل والحلى
متألقا فى خاطرى متألقا فى المجتلى
أقبل بما ولت به الدنيا وهات وعلل
وابسط جناحك فوق قلبينا الغداة وظلل

طر حيث شــثت فان دنوت لناظرى فتمهــل
واها لهذى الطلعــة الســمراء عند المجتلى
بغــلائل الأضــواء وشتهــا رقاق الأنمل
وشـــت بشاشـــتها نضارة وجهك المتهلل
فكأن طفـــل الفجر نام على وساد جدول (١)

ولا أريد أن أزيد من الأمثلة فهى قريبة منا فى الصفحات السابقة ... وقد أرضى الحس كما أغلى من حب الروح سواء بسواء .

على أنه مغبون قلما ينال ، ولعل هذا هو السر فى تزعزع ثقتــه بالوفاء على رغبته فيه .

***

وشاعر الغزل تغنى به منذ طفولته الباكرة ، فقد ولد شاعرا كما يولد كل صادح غريدا .. جاد ناجى بالشعر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ! ...

وطبيعى ألا ننتظر فى مثل هذه السن الغضة فحولة أو تدفقا ،ولكن حسب الغلام ابن الثالثة عشرة أن يقول :

هل أنت سامعــة أنينى يا غاية القــلب الحزين

اذن عرف الأنين مبكرا ...

يا قبــلة الحب الخفي وكعبـــة الأمل الدفين

لقد نم على الصغير شعره .. لقد عرف الحب غير أنه يخفيه .. وقد كانت له آمال تتعلق بهذا الحب وهو فى العاشرة أو نحوها ، **حتى يمكن وصفها فى الثالثة عشرة بالدفينة ! .. وهـــذه الآمال بالطبع تتجــاوز رغبات الطفولة الولوع بالحلوى واللعب :**

انى ذكرتــك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهى تغرب شبه دامعة العيون
أمســـيت أرقبهـــا على صخر وموج البحر دونى

جلسة شعرية بلا مراء ...

والبحر مجنون العباب يهيج ثائره جنونى

---

(١) من شعر له لم ينشر بعنوان « سمراء المحفل » .

رفقا يا شاعرنا الصغير ·· مهلا يا صغيرنا الشاعر ...

ورضـــاك أنت وقايتى فاذا غضبت فمن يقينى

لقد ارتدت طفولته المتمردة المتعلقة بمجد الفن الى ضعفها اللائذ بالحنـان يدفئها ويقيها · ان هـذا أشبه بنداء طفل الى أمه يناشـدها الرضا ويفزع من غضبها منه الى نداء الحبيبة ·

وهل ابن الثالثة عشرة الا طفل ·· ولكنه طفل واعد ·· وقـد صدقت الأيام وعده فكان لنا منه شاعر الغزل ·

شعر ناجى

الشعر عندى هو النـافذة التى أطل منهـا على الحيـاة
واشرف منها على الأبد ..

وما وراء الأبد ..

هو الهواء الذى اتنفسه

وهو البلسم داويت به جراح نفسى عندما عز الأسـاة
هذا هو شعرى ناجى

وما دام شعره كان نافذته الى الحياة ، اذن لقد ضمنه مرئياتـه وآراءه وانفعالاته بما شاهد ورأى ·

ونحن نريد هنا أن نطالع هذه المشاهد والآراء والانفعـالات ثم نحكم عليهـا ·· لا كما نحكم على العرض السينمائى نلقى الحكم فى كلمة أو عبارة ثم نمضى فى طريقنا المرسوم بعد أن ننسى الرواية بعيوبهـا ومحاسنها على السواء ·· كلا ·· اننا نريد أن نرى شعر ناجى بمنظار آخر ونحكم له أو عليه حكما من طراز آخر ·· لقد كان الشـاعر يحب من الناقد (أن تكون وظيفتـه كاتب حسابات الفن) ، (عليـه أن يدون الحسابات ، ويرصد الدخل والخرج ، ويعين الرصيد ، ويمحو من العملة القـديمة ليبـدلها بعملة جـديدة ، فهو من ثم يكون حافظ التراث القومى والتراث الانسانى) (١) ·

---

(١) الدكتور ناجى (رسالة الحياة) ص ٨٣

ويرى طبيبنا الشاعر أن من واجب الناقد أيضا (أن يحاول وضع العمل الأدبى فى مكانه من القيم الانسانية الثابتة ، بعبـــارة أخرى يتعدى الخصوص للعموم ، وهو لن يصل الى هذه النتيجة الا اذا اعتبر النقد وعيا للحياة الانسانية) (١) ٠

اذن تعال معى نبحث عن مواطن الوعى للحياة الانسانية فى شعر ناجى ٠٠ ولكن بعد أن نبحث معا المادة التى صيغ منها هذا الشعر ٠

لقد رأيت كيف استهل ديوانه الأول (**وراء الغمام**) بالأنين الذى لم يخفت حتى انتهى منه . فاذا نحيته واستقبلت ديوانه الآخر (**ليالى القاهرة**) فان عينيك لا تكاد تتحول عن شكوى الألم فى صور شتى . فقصيدته (فى الظلام) فيها شجن قتال وظمأ مرد وطيوف رعب وآلام ووجد وجهد وأنفاس مضـــطرمة وضيق جاثم ووحدة ووحشــة وركود ودموع ودم وأشواك وضنى وتعذيب ، وهى فى جملتها كابية مظلمة الا ما يومض فيها من حين الى آخر . **مثل قوله** :

فيـا أيكة مد الهـوى من ظلالهـا ربيعا على قلبى وروضا من السعد(٢)

وقصـيدة أنوار ، فيها الألم أيضا ولو أنه ذكرى تضاعف النعيـم الزائل ولا ترنق صفاه :

يا من غفت والفجر من دارهـا	شعشع فى الآفاق أبهى سناه
قد طرق الباب فتى متعب	طال به السـير وكلت خطـاه
نقل فى الأيـام أقـــدامه	يبغى خيـالا ماثـلا فى مناه
عندك قد حط رحال المـنى	وفى حمى حسنك ألقى عصاه(٣)

وقصيدة (أحلام سوداء) عنـوانها كاف للدلالة على ما فيهـا من سوداوية وافتكار وشك وظنون وحذر وغيوم وأنين وجراح ٠٠ وقصيدة (الميعاد الضائع) قصيدة خابية فيها الفزع واللهفة وقوة الحياة وشقاء الأيام والأقدار المسيئة والأحزان والنحيب والدموع والأمل الضــائع والسعادة الذاهبة ٠

لا تخل هذه الالفاظ من عندى فى معرض التحليل ولكنها الفاظه هو المبثوثة فى قصـائده ٠٠ وانما عملى أنا هو رصـدها لدلالتها على نفسيته ٠

---

(١) الدكتور ناجى رسالة الحياة ص ٨٥ ٠

(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٧ – ٢٤ قصيدة فى الظلام ٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥ قصيدة أنوار ٠

والقصائد الباقيات ؟ ها هي :

(اثنان في سيارة) فيها سوداوية ٠٠ ألم يستهلها بقوله :

العمر أكثره سدى وأقله صفو يتاح كأنه عمران

وفيها اللوعة والحرمان والاستخفاف بالحياة وغايتها ٠

(لقاء في الليل) وهذه أيضا لم تخل (مما يسوء) وحوالك ٠

(ختام الليالى) فيها الهجران والتعذيب والفراق واللهيب والدموع .

(الاطلال) انها قصة حب عاثر ، التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح ٠٠ وطبيعى أنك لا تنتظر من هذه القصة شعرا منطلقا بل دموعا منظومة ٠٠٠

(ذات مساء) و (راوية) و (يأس على كأس) كلها حزينة

(عاصفة روح) قاتمة كابية نفض فيها يده من كل شيء

(كبرياء) فيها الشقاء والسراب والشجن والدماء والضياع والهموم فماذا تبقى فى عالم البؤس ؟

(ذكرى) حمدا لله ٠٠ ان الذكرى التى طافت به باسمة هذه المرة

(رسائل محترقة) وماذا تخلف الرسائل المحترقة غير الرماد والآلام ؟

(الغريب) توجس من الغد وجراح ولظى ووحدة ٠

(بعد الفراق) انه فيها يتمزق ٠

(شكوى الزمن) ترى ما الذى يشكو المرء غير الجحود والتعذيب؟ لم يشذ ناجى ٠

(كل الورى) امتداد للشكوى ٠

(راقصة) انه يتلهى بوصف ما يسر

(الصنم الجميل) بكاء وندم

(شكوك) فيها دم وندم وموت وعدم ٠٠٠ جراح وانتقام وعصف ولذع وسخط وجوى وبرم واضطرام

(النسيان) ، (المساء) ، (عذاب) لا يخفت فيا أنينه عما سبق

(ملحمة السراب)

(السراب فى الصحراء) سراب وصحراء ! ما وراءهما غير الاقفار والظمأ اللذين خلفا فى نفسه السقم والبرجاء والضيق واللهفة والتفزز والجراح والأشواك والبأس والحيرة .. لولا الأمل الذى كان يخايله لقضى عليه.

(السراب على البحر) سيان البحر والصحراء عنده فى الاقفار والألم ...

(السراب فى السجن) ليس بعد السجن ضيق .

(آمال كاذبة) ، (البعث) قصيدتان كابيتان

(المنصورة) ، (وقفة على دار) ، (الراهبة الباكية) ، (من ن الى ع) كلها عليها مسحة الحزن .

يلى هذا شعر المناسبات ويشغل أكثر من ربع الديوان ولنا عنده وقفة بعد قليل .

ثم تأتى هذه المقطوعات والقصائد .

(حب على الصحراء) فيها جفاف وسراب وحر وأباطيل وعبوس

(القافلة الصغيرة) يراها ويرى الدنيا معها وتمثلها خيالا أو ضلالا، أو محالا .

(عاصفة) فيها الضجر والضنك والحظ الغارب والبلاء والعصف

(عينان) فيها يباب وعقم وحسرة وأسف

(اليها) حب محروم

(بعد الحب) يأس

(أنوار المدينة) شكوى من القدر .

(خمر الرضا) رحمة ناضبة وشجى ومجافاة وازورار وتقطيب

(غصن صغير) فيها صبر يتعلل بالأمل

(الخريف) لا تخلو ، ففيها غمام وكآبة وسقم وهم وشحوب وحزن وضباب وملل وحب ضائع وحسرة وبال مشتت وجرح .

(العائد) حتى هذه ليست فيها فرحة اللقاء كما يوحى العنوان

وكان من صنع هذه الهموم شيوع هذه الألفاظ فى شعره :

سراب ـ خداع ـ جرح ـ دامى ـ حزن ـ بكاء ـ ملل ـ كآبة ـ دمعة ـ عبوسة ـ ظلمة ـ شك ـ أحداث ـ آلام ـ لهيب ـ أوصاب ـ حيرة المرتاب ـ لهفة ـ تمزق ـ هم مفرق ـ شكوى ـ أنين ـ يأس ـ عذاب ـ لظى ـ حزان ـ احتراق ـ آهة ـ شقاء ـ أوام ـ صدى ـ تضرم ـ شجن ـ ضنك ـ نكد ـ جرب للحياة ـ جزع ـ ضـيعة الرشد ـ الصبر ـ الجوى ـ عثار ـ شتات ـ جذوة ـ زفرة .

ولما كان الحب عنده دواء لكل داء ، وكان همه ومتنفسه ، يشقيه ويرضيه ، ويسره ويبكيه ، فهو من ثم قد أشاع فى شعره هذه الألفاظ :

سلوى ـ راحة ـ أمل ـ حنين ـ حنان ـ رقة ـ شهد الرضا ـ رحيق ـ ضحك طفلين ـ ربوة ـ شدو ـ فتنة ـ رحمة تبتسم ـ نوار الخميلة ـ البرء المرجى ـ نعمى ـ الجدول المنساب ـ النور الطهور ـ الحسن ـ الظلال ـ الأضواء ـ روضة ـ ضاحك ـ مخضل ـ أكمام ـ الأمانى البيض ـ ائتلاق النجم ـ نسيم ـ نبراس ـ وحى ـ الهام ـ فرح رقص ـ أمن .

وقد رصدت هذه الألفاظ المنبثة فى شعره لأنها عندى مفـاتيح نفسه ، فعندما أراه يكثر من استعمال لفظ « العقوق » أحس أن فى حياته جحودا يضنيه ، فينفسـه فى هـذا اللفظ الذى يردده أراد أم لم يرد .

أما ألفاظ الطب فى شعره من مثـل : أسـاه ، جـراح ، حمى ، هذيان ، ضماد ، شحوب . فدلالتها واضحة .. انها غلبة المهنـة على أسلوب صاحبها ، أليس شاعرنا طبيبا ؟

هل اقتصر شعر ناجى فى ديوانه على الشكوى والحب ؟

ان الشعر نافذته الى الحياة .. والحيـاة بلا ريب زاخرة بألوان أخرى فهل صورها ناجى فى شعره ؟

ان له قصيدة بعنوان (الحياة) (١) .. فلنرجع اليها ...

كم غادة بين الصبا والشباب	تأنق الصانع فى صنعهـا
تخطر والأنظار تحـدو الركاب	ولفظة الاعجـاب فى سمعها

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٢٩

وانظر الى سـيارة كالأجـل تخطف خطفـا لا تبالى الزحام
هذا الردى الجارى اختراع الرجل هل بعد صنع الموت شيء يرام

وانظر الى هذا القوى الجسـد الباتر العزم الشديد الكفـاح
قد أقبل الليـل فمحى الجلد فى رجـل يدأب منذ الصباح (١)

هذا بعض ما جـاء فى القصـيدة ، سقته على سبيل المثال ٠٠ والقصيدة فى مجموعها لوحة كبيرة عليها صور تخطيطية سريعة تعطيك الملامح الظاهرة والهيئات ٠٠ واللوحة على ازدحامها تستقصيها عينك عند مطالعتها ، ولست فى حاجة الى الوقوف طويلا لأنه ليس هناك ما تتأمله مما يبحث عنه الشعراء وراء الملامح والهيئات ٠٠ ولعل الشاعر قد أحس بهذا فاستأنى فى آخر القصيدة عندما فطن الى مصير الجمال والغنى ، ولكنها أيضا فطنة العجلان الذى يقف عند السطح ولا يسبر الاعماق ٠ وهل فينا من يجهل أن الفناء غاية كل حى ؟

وفى موكب الحياة ، استوقفته الراقصة مرتين ٠٠ أما راقصـة (ليالى القاهرة) (٢) ، فهو معها رسام يصور بريشته ما يرى من مفاتن ، ولا عليه أن يروى قصتها ويقرأ صدرها أحزانه ولواعجه ٠

وأما راقصة (وراء الغمام) فقد رق لها ورثى لحالهـا ٠٠ وانا لنلمح فى قصيدة هذا الديوان (قلب راقصة) نلمح الانسـان فى الشاعر الفنان ، فلم ينظر الى الراقصـة نظرة عابث لا يرى فيهـا الا تسلية ومتعة رخيصة ، ولكنه رآها انسانا يعصره الصبر والألم ، يضحك وهو يبكى ، ويبيع السرور وهو مهموم ، يرقص وهو يموت كالذبيح ٠

لقد دخل الشاعر المرقص فرارا من الواقع فى جهامته ، الدنيـا ومشاكلها ، وبهرته الأضـواء بادىء الأمر ، فكاد يكفر بعلمه وفنه ، وكلاهما أضناه ، وأوشك أن يختزل الحياة فى قد يميس ، وكأس تدور ، وخمر ونور ٠

لم لا أثور اليـوم ثورتهـم لم لا أجرب ما يحبـونا
لم لا أصيح اليوم صيحتهم لم لا أضج كما يضجونا (٣)

لم لا تذوق كئوسـهم شفتى ان الحجـا سـمى وتدميرى
فى ذمة الشـيطان فلسـفتى ورزانتى ووقـار تفكيرى

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ ـ ٣٣ قصيدة الحياة ٠

(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٨ ـ ٣٩ قصيدة قلب راقصة ٠

(٣) المصدر نفسه والقصيدة نفسهاص ٣٨ ٠

يا قلب ضقت وما هنا سعة | ومجال مصفود بأغلال
أتقول أعمار مضيعة | ماذا صنعت بعمرك الخالى (١)

ولكن تساميه انتفض فجأة فلم يعد يرى فيها الراقصة المشتهاة ، ولكن الانسان الأسوان الخليق بالرثاء ، فرثى لهـا وأسى عليها ومضى يقول :

عجبا لقلب كان مطمعه | طربا فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما فى الكون أجمعه | بين القلوب أواصر البؤس

....

من أنت يا من روحها اقتربت | منى وخاطب دمعها روحى
صبته فى كأس وما سكبت | فيه سوى أنات مذبوح (٢)

ولكنه بعد لقائها تركها تمضى لحالها وترتد الى ما كانت فيه دون أن يكشف غشاوتها ويردها الى نفسها أو حتى يستثير الضمير الاجتماعى من أجلها ، ويطالب بالعيش الكريم لها علها تتوب .

وقد اصطنع ناجى الحكمة واتخذ سمت الشيوخ المجربين فى بعض شعره المخطوط ، فنظر الى الراقصات نظرة عارف مجرب غير طامع فى مزيد ، وان كانت أبياته تشى برغبة مقنعة لأنهـا تؤثر الاحتشام ... واليك بعض أبيات **قالها فى مرقص :**

نادتنى الأنوار فيك كأنما | قفز الشعاع الى الخواطر واثبا
فكأن طيرا من ثنايا دوحة | يسعى الى نفسى الخفية هاربا
متعلقا بخنافقها ومصفقا | بجناحه بين الجوانح ضاربا
وكأن ديرا قام فيه معربد | ليهز أجراسا ويوقظ راهبا
راجعت نفسى ، ويح نفسى ما الذى | أرجو من الدنيا وقد ولى الصبا
يا هاته الدار التى وافيتها | غرا كما تهوى الحداثة لاعبا
وأنا الذى خلقت لـه ولقلبه | هذى المفاتن مسرحا وكواعبا
فنشرن لى مثل النضار ذوائبا | وصقلن لى مثل الرخام ترائبا
الكأس غير الكأس لا ألقى بها | طعما كأمس،ولست ذاك الشاربا
فكأننى فى اثر حلم قد عفى | قدحا ومسكوبا هناك وساكبا
هذى الدمى المتأبيات هصرتها | عودا ، ورويت الشباب مآربا

أليست هذه صحوة وشوق غاف ، ويقظة هوى وسنان ؟

★★★

---

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٨ قصيدة قلب راقصة .
(٢) « « « « « ص ٤٣ ـ ٤٤ قصيدة قلب راقصة

وفي شعر ناجي غناء ٠٠ أما سمعته يغني ؟ ٠٠ ان لم تكن فاطرب الآن :

أنت ان تـؤمني بحبي كفـانى ... لا غرامي ولا جمـالك فـانى
فتعـالى روى الظمـا فى عيونى ... واجفوني لقطرة من حنـان
أي روح أحسبه أى سـحـر ... سكبت فى هاته العينـان ؟
وكأني محلق فى سمـاء ... وتطل منها على الأكـوان
مستعز بما منحت ، قوى ... أجمع الكون كلـه فى عنانى (١)

غناء عذب ٠٠ أليس كذلك ٠٠ أيحق له بعد هذا أن يقول :

انما الشـعر مزهر ... قد حكى قصـة الأمم
وبأوتـاره المـنى ... تتـلاقى وتزدحـم
هـو نـاى مرجـع ... لشـجى وما كتم
هو قيثـارة الزمـا ... ن ونجـواه من قدم
هو أنشـودة الحيـا ... ة وفيض من النغم (٢)

أيطربك الناى المرن ؟ نعم بلا مراء ٠٠ واذا احترق الناى الطروب ؟ لا ريب أنك تأسى ، ولـكن رجع الأنغام يرتد اليك من بعيد فتستروح اللحن كاملا من جديد ٠٠ ويختلط الدمع على النـاى المحترق بذكـرى النشيد ، أما أنت وأنا فقصارانا الدمع ٠٠ ومن بكى الجمـال الغارب فقد أوفى ٠٠ وأما الشاعر الخلاق فان الحزن يلح به فيهيم وحـده فى ظلام الليل المحجب بالغوامض والأسرار ٠٠ يصوغ الدمع لحنـا ويبعث من الشعر نايا ، وهو المتهدم المتفانى ، وكأنه يمثل صنع الله الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ثم يمضى يوقع أحزانه على الناى الجديد حتى يرق حبيبه ويسرى اليه ٠٠ فاذا لاح له الخيال المرموق هفا اليه ، ورف بجناحين واستعد ليحتويه فاذا به لايجد شيئا ٠٠ واذا بكل هذا حلم يتلاشى كما يتلاشى غبش العتمة على أنـوار الفجر ، ويفتح الشاعر عينيه ويحدق فيما حوله ، ويصغى ويصغى فإذا الخيال هباء ، واذا الألحان أصداء ٠

كم مرة يـا حبيبى ... والليل يغشى البرايـا
أهيم وحدى وما فى ... الظلام شـاك سوايا
أصـير الدمع لحنـا ... وأجعل الشعر نايـا
وهـل يلبى حطـام ... أشـعلته بجـوايا

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ١٥١ ــ ١٥٢ قصيدة أغنية ٠
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٧ الى روح الشاعر ٠

النار توغل فيه	والريح تذرو البقايا
ما أتعس الناى بين	المنى وبين المنايا
يشدو ويشدو حزينا	مرجعا شكوايا
مستعطفا من طوينا	على هواه الطوايا
حتى يلوح خيال	عرفته فى صبايا
يدنو الى وتدنو	من ثغره شفتايا
اذا بحلمى تلاشى	واستيقظت عينايا
ورحت أصغى وأصغى	لم ألف الا صدايا (١)

* * *

وفى شعر ناجى قصائد فى مناسبات معينة .. أذكر هذه هنا على سبيل الاشارة والحصر فحسب ، اذ أنى سأفرد لها فصلا خاصا لأن شعر المناسبات عندى لا يحتسب للشاعر لأنه لم يواته طبيعة ، بل تكلفا ، فهو ليس بضعة من نفسه ، ومن ثم فهو ليس جزءا من شعره وان حمل اسمه .

وفى شعر ناجى قصائد حماسية .. ولكنه عندى شاعر الغزل فحسب ولا تنهض تلك القصائد حجة فى مقام الجدل .. أسمعت نداء الشباب ؟ اليك النداء :

وطن دعا وفتى أجاب	بوركت يا عزم الشباب
يافتية النيل المسالم	والكريم بلا حساب
جناته مرآتكم	ولكم خلائقها العذاب
ولكم جمال الزهر رف	على الأماليد الرطاب
ولكم فؤاد النهر رق	على المجانى والشعاب
يمضى فيضحك للسهول	ولا يضن على الهضاب (٢)

أحسب أن ليس بى حاجة الى مزيد فمثل هذه الألفاظ الندية العذبة ، ألفاظ المسالمة والكرم والزهر والجمال والرفيف والنهر والرقة والضحك من طبعها أن ترقق من صوت المنادى فلا يسمع البعيد ولا يوقظ النائم ، ولا حتى ينبه الغافل .. ومثل هذه الألفاظ المشرقة المترفة فى عالم اللغة تدخرها مخيلة الشعراء لتسخو بها فى وصف الحبيب والقلب المشبوب ومجالى الطبيعة فى حضرة المعشوق المرموق .. ألم أقل لكم ان

---

(١) الدكتور ناجى وراء الغمام ص ٢٥ قصيدة الناى المحترق .

(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٥٨ قصيدة نداء الشباب

الشاعر لا يحسن الا الغزل ؟ فاذا تحمس وأرسل (نداء للشباب) خرج كهمس المنى ، أو وسوسة الموج للشاطىء ؟

ولكن لانظلم الرجل ، نكمل الآية (لاتقربوا الصلاة ‥) ، لقد ورد فى شعر النداء بعد هذا ألفاظ الغيل والليوث والناب وحب مصر والفداء والتضحية ‥ وردت حقا هذه الألفاظ القوية ولكن فى صياغة رقيقة كالمعتاد من شعر ناجى ، فهونت من فعلها كما يلف قفاز الحرير الأبيض اليد الخشنة فيحجب من الخشونة مظهرها ووقعها ‥ ولك الكلمة الأخيرة بعد هذا ‥ هاهو ذا النداء :

أصبحتم كالغيل تحجبه الليوث بألف ناب
قل للشباب : اليوم يومكم الأغر المستطاب
اليوم يبدو حب مصر فلا خفاء ولا حجاب
ان كان اثما يا شباب فلا رجوع ولا متاب
الله ينظر والليالى عندها لكم الحساب
هاتوا الفدا الغالى لمصر وأرخصوه كالتراب
المال ، والأرواح كل ضحية ولها ثواب

والآن حدثنى هل يقوى هذا النداء على الاستنفار واذكاء العزائم ؟

ولعل ناجى أحس هذا المعنى فضاعف من حماسته فى القصيدة التالية ، التى أرسلها (فى يوم الشباب) ؛ أو بمعنى أدق ضاعف من حماسة شعره ‥ فان حماسة نفسه التواقة الى خير هذا الوطن وأهله لاتحتاج الى مزيد ‥ وما بالمدح هذا ولكنه تسجيل للحقيقة وتقرير للواقع الذى يعرفه عنه مخالطوه ، ومرضاه ويتبض به شعره وأدبه وما نحن بمنصفين ان لم نحمد الخير لأهله ، ونغبط على الفضل ذويه ‥

وقصيدة ناجى (فى يوم الشباب) فيها أبيات عامرة كقوله :

قل للذى يبغى الصلاح لقومه ... بنبيل صنع أو شريف جهاد
بالطب أو بالشعر أو بكليهما ... كل الجهود فداء هذا الوادى
يا أيها الوطن الجريح وجرحه ... بصميم كل حشاشة وفؤاد
قل للبناة المصلحين ألا اخلقوا ... شم الذرا ورواسخ الاطواد
جيلا من النشء القوى اذا مشوا ... رفعوا الرءوس بعزة وعناد
لاخير فى الأرواح تسكن موطنا ... متخاذلا لا يرتجى لجلاد (١)

---

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٠ ـ ١٦١ فى يوم الشباب .

هذا مثال ، وفي القصيدة أبيات قوية ولكنها في جملتها هادئة النغم رتيبة كسائر شعر ناجي .

وفي شعر ناجي ترجمة عن الغرب وتعريب ، فقد ترجم عن الالمانية (دعاء الراعي) من أغاني هاينى (١) .

كما عرب عن ألفريد دي موسيه (التذكار) (٢) .

والقطعتان حزينتان ، ولعل هذا السر في أنهما صادفتا هوى من نفسه ، ففي الأولى حزن دفين وخوف ورجاء ودعاء .. وهاك بعضها :

يا أيها الحمل الوديع أنا الذي	يحنو عليك . أنا الحبيب الراعي
كم ليلة والرعب يمشي في الدجى	والهول منتشر على الأصقاع
أغفيت في كنفي وفي ظل الكرى	كالطفل في أمن من الأوجاع
يارب قد وهت العصا واستأثرت	غير الليالي بالقوى الباع
يارب ان تك قد حكمت بفرقة	وأذنت للراعي بوشك زماع
فانظر الى الحمل الوديع ، ووقه	شر النفوس وفتنة الأطماع

غير خاف أن ليس هناك حمل ولا راع ، ولكنها قصيدة رمزية فيها كبت وفيها برحاء .

أما القصيدة الثانية ففيها دموع غائمة ولكنها عصية التسكاب وان لم تستعص طويلا على كل حال فقد سالت في آخر القصيدة حتى بلت صدى القلب وروت حرقته ، وطلت الماضي كما يطل ندى السحر خدود الورد وكما يباكر ريق الغيث أديم الروض

وقصيدة (التذكار) التي تستهل بهذه الأبيات .

بي نزوع الى الدموع الهوامي	غير أني أخاف من الآمي
أيهذا المكان يا غالي الترب	ومثوى عبادتي واحترامي
أنت مثوى الذكرى ومدفنها الغالي	القصي المجهول في الأيام (٣)

هذه القصيدة معرض لفلسفة الحزن عندما يكابر ويتكلف الصبر ، ويصطنع الرضا ، بل يتمادى فيعيب الأسى ويرمي الأسوان بالضعف والهزيمة ، بل يستولد الهناءة من الحزن كما يستخرج الماس الألاق بلألائه

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٥ ـ ١٢٦ وهي قصيدة رمزية .

(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٧ ـ ١٣٥ .

(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٧ .

من الفحم الأسود .. ولعلك الآن تهفو الى الوقوف على هذه الفلسفة .. فلسفة الحزن هذه :

قد تراءى الصنوبر النضر اذ أيـ نع فى قاتم من الألوان
وتراءى لى المضيق البعيد الـ غور يمتد فى رخى المجانى
موحشات لكنما كن ألافى ومهد الهنىء من أزمانى (١)

أنا ما جئت هاهنا أذكر الأشـ جان فى موطن وفيه هنائى
ذلك الغاب رائع الحسن والصمـ ـت مثال الجلال والكبرياء
وفؤادى عات كرائع هذا الغاب ، مستكبرا على البرحاء (٢)

من يشأ ان يفيض يوما بشكـ ـواه فما هذا موضع الأحزان
قل لشاكٍ هلا مضيت لتجثو عند مثوى ميت من الخلان
كل شىء حى هنا ، ونبات القبر ينمو فى غير هذا المكان (٣)

فسلام منى على الأيام كيف آست فى النازلات الجسام
لم أكن أدرى أن جرحنا بما كابدت منه من قاتك الآلام
معقب لـذة لنفسى واحساس هناء لدى بعد التئام (٤)

ولكن هذه المقاومة كما قلت لك لم تلبث حتى انهارت وهناك لحن الختام :

ان تروا أدمعى فلا تزجرونى ودعونى انى أحب الدموعا
لاتجفف أيديكم أدمعا تنفع قلبا لما يزل موجوعا
ادمعى ستر مسبل فوق ماض قد تولى ما يستطيع رجوعا (٥)

انى أرمى من وراء هذا الى دلالة الاختيار ، فناجى وجد خلجاتى مصاغة فعاش فيها بالقراءة والترجمه والتسجيل .

وعرب ناجى قصيدة (البحيرة) عن لامارتين ، واليك مطلعها وختامها لتعرف لونها من الحزن أو الفرح .. اما المطلع فهو :

من شاطىء لشواطىء جدد يرمى بنا ليل من الأبد
ماقر منه مضى فلم يعد هيهات مرسى يومه لغد (٦)

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٨ ـ ١٢٩
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٢٩ .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٣٠ .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٥ .
(٥) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٦ .
(٦) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٣٢ .

.. ولنتقل الى الختام ..

وليبق ياهذى البحيرة فى حاليك ثائره وهادئه
فى باسق للماء منعطف فى رائعات الصخر ناتئه

فى عابر النسمات مرتجفا فى النجم فضض صفحة الماء
فى الريح أن أنينه وهفا فى الغصن نفس حر أحشاء

فى الجو معتبقا برياك خطرت ملاعبة رقيق صبا
فى كل هذا هاتف باكى سيقول يا أسفا لقد ذهبا(١)

ويبدو أن ناجى مال فى سنيه الأخيرة الى نظم الرباعيات اذ بين شعره المخطوط منها ٧٦ رباعية منتظمة فى سلك واحد ، تناول فيها حسن الحبيب والحنين اليه والهاماته واستبطاءه ونواه .. وفى هذه الرباعيات احزان ووساوس وحسرات وتأملات ونظرات فى الحياة والحب ومصيرهما .. تنتهى الرباعيات بالتسليم بالواقع .. تسليم اليائس الذى لاحيلة له ، الزاهد لأنه لم يجد ، لا لأنه وجد فما اشتهى أو أراد ..

ومن هذه الرباعيات :

قلبى مع الناس ولحظى شرود فى عالم رحب بعيد الشعاب
عينى على سر وراء الوجود وبغيتى عرش وراء السحاب

أريتنى الغيب الذى لا يرى كشفت لى مالا يراه البصر
ثم انحدرنا تستشف الثرى عل وراء الترب سر السفر

والقمر الفضى بين الغيوم يخفق كالمنديل عند الوداع
واحسرتا ، هل صورته الهموم كالزورق الغارق الا شراع

ومن شعر ناجى الحر هذا المثال من .. « اليها » :

لم يزل فى شميمى عطرك العبق ...
وبين جفنى خيال أحرص عليه كحياتى
وفي مسمعى ضحكة حلوة كرنين البلور ..
وبين يدى كنز من يديك مسلمتين ومودعتين

ومن « .. بحر وذكرى ودمعتان .. »

يالله مما يحمل لى هذا المساء المعطر
المبتل الساكن .... مبتل لأنه

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٣٦ ــ ١٤٠

منهى بالدموع وساكن لأنه كالنغم
الذى يكون صمته أروع من ايقاعه

أحسب أنك تستاف نسيما من الغـــرب .... ولكن لاتنس أنه شرقى الطلعة ، مصرى الروح .. انك تحسه قريبا منك .. وأنا أيضا ..

وبعد فان شاعرنا قد غنى .... وتغزل وناجى واستعطف وتحرق وبكى وشكا ، ورسم صورا للحياة والأحياء ، وترجم وعرب ورثى وهجا ومدح ، وما جدوى الشعر وعمل الشاعر غير هذا :

ما جمال الربيع فى الروض ان لم	يشد طير فى الروضة الغنـاء
ما جمال السماء والبدر ان لم	يشـــد سار فى الليـــلة القمراء
واضياع النبوغ فى مصر ان لم	تتحدث منـــابر الخطبـــاء
واضياع النبوغ فى مصر ان لم	يك تخليــده عـلى الشعراء(١)

أنا هنا لا أدعى أنه من المكثرين .. ولو فعلت ما أغنيت عنه شيئا ، فان الفن بجوهره وكيفه لا بكمه ، والشعر ليس كرمال الشاطىء غير المعدودة ولكنه كدر القاع غير المنظور .. وهو بعزته ونفاســـته أمنية وهدف وثروة ونعمة ومتاع وجمال ولالاء ..

وهب الاكثار فضلا يحسب لصاحبه ، فما بالقليل من ناجى الطبيب هذه الباقة المؤتلقة من ديوانين ، فضلا عن المخطوط لو جاز أن تعد قليلة من شاعر منقطع ، فقد كان حسب الطبيب الآسى من ميزات الانسانية الرفيعة ماأبرأ من علات ، وضمد من جراح ، وأحيا من آمال ، وهدأ من روع ، وسكن من وجيب ، وأنزل من رحمة .. وكم لناجى فى هذا المضمار من مآثر تؤثر ، وأياد تذكر ..

(١) الدكتور ناجى — ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٠ .

شعر المناسبات

سأتناول فى هذا الفصل شعر المناسبات عند ناجى الشاعر ...
وأنا ما قرأت لشاعر قط الا أسقطت شعر المناسبات من ديوانه فى غير رحمة ، لاسيما قصائد المديح ، لأنى أنفر من هذا اللون بصفة عامة . وأراه من حيث المبدأ ظلما للمادح والممدوح على السواء .. اذ هو غض من الأول الذى من حقه الارتفاع لخاصة الفن فيه ، وتمثيله له ، وهو ظلم للثانى لأنه يبطره ويفسده ويطغيه ويعميه عن حقيقة نفسه وحقيقة الأمور ...

ولكن شعر المناسبات عند ناجى يستحق الدراسة ولو تابعا ، لأن فى بعضه بعض الدلالة على الشاعر مما لا غنى للدراسة المستشفة عنه ...

ولهذا الاعتبار وحده أمضى فى كتابة هذا الفصل ...

والقصائد التى نظمها ناجى فى مناسبات تتضمن الرثاء والمدح والهجاء :

***

الرثاء :

يحدث أحيانا على حساسية ناجى وعمق عاطفته أن تعصى دموعه فى الرثاء ...

انظر الى رثائه للهمشرى(١) **نجد شعرا فيه البلاغة والرصانة وان** كان أقرب الى المدح منه الى الرثاء ٠٠ **وانظر رثاءه للشاعر محمد** الهراوى (٢) تجد قصيدة ههيا توليد شاعر وليس فيها حرقة باك ٠٠ ولاتثريب عليه فالحزن ككل شيء مراتب ، وليس الذى يرثى صديقا أو زميلا كمن يبكى ولده أو اباه ٠٠ هذا يبكى نفسه وذلك يرثى غيره مهما كان ٠٠ وكم بين الاثنين ٠٠

ولعل (شوقى) أظهر من رثاهم ناجى بشعره ، ولكنه لم يوفه الا فى قصيدة واحدة هى التى ألقاها بمناسبة ذكرى مرور العام الأول على وفاته . فانه فى (ساحة التذكار) (٣) بكاه أحر بكاء وأوفى على الغاية من رثائه وهى صادقة اللوعة ، شجية الحنين ، مؤثرة الأنين ، عامرة الأبيات ٠٠ **انى كثيرا ما أتذكر هذه الأبيات المبللة بالدموع :**

شجن على شجن وحرقة نار — من مسعدى فى ساعة التذكار
قم يا أمير أفض على خواطرنا — وابعث خيالك فى النسيم السارى
يا عاشق الحرية الثكلى أفق — واهتف بشعرك فى شباب الدار
يا من دعا للحق فى أوطانه — ومضى ليهتف فى ديار الجار
الشام جازعة ومصر كعهدها — نهب الخطوب قليلة الأنصار
عام مضى ؟ يا للزمان وطيه — فينا ويا لسواخر الأقدار
أين الامارة والأمير ودولة — مبسوطة السلطان فى الامصار
خمسون عاما وهى وارفة الجنى — تحت الربيع دؤوبة الاثمار
مد الخريف على الرياض رواقه — ومضى الربيع الضاحك النوار
هيهات أنسى قبل بينك ساعة — جمعت صحابك فى غروب نهار
والشمس فى سقم الغروب وأنت فى — لون الشحوب معصفر ببهار
منحت وقد ذهبت شعاعا غاربا — كسناك طوافا على السمار
تشكو لى الضعف الملم لعل فى — طبى مقيلا من وشيك عثار
وكشفت عن متهدم جال الردى — متهجما فى صرحه المنهار
فرأيت ما صنع الضنى فى صورة — حالت ، وخلى هيكلا كاطار
ووجمت ألمح فى الغيوب نهاية — وأرى بعينى غاية المضمار
وأرى النبوغ وقد تهاوى نجمه — والعبقرية وهى فى الادبار

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ١٢٥ ٠

(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ١٢١ ٠

(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٧٢ ٠

بى رغبة ملحة فى أن تقرأ معى أيضا هذه الأبيات :

فى ذمة الأجيـــال ما غنت به	قيثـــارة ســـحرية الأوتـــار
صدحت بألحان الحيـاة ووقعت	أنغامهـــا المحجـــوبة الأسرار
والفن ما جـاكى الطبيعة آخـذا	منها ومن اعجـــازها بغـــزار
مسترسلا رحبـــا كعين ثرة	شتى السيول سحيقة الأغوار
متعاليا حتى الأشـــعة مشرقا !	متألقـــا كالكوكب الســـيار
شـــوقى ! نظمت فكنت برا خيرا	فى أمة ظمـــأى الى الأخيـــار
أرسلت شعرك فى المدائن هاديا	شـــبه المنار يطوف بالأقطار (١)
تدعـــو الى المجد القديم وغابـر	طى القـــرون مجلل بوقـــار
تبكى العراق اذا استبيح ولا تضن	على الشـــآم بمـــدمع مدرار
وترى الرجـــال وقد أهين ذمارهم	خرجوا لصـــون كرامة وذمـــار
فلو استطعت مددت بين صفوفهم	كفا مضرجة مـــع الأحـــرار(٢)

ولقد أفرغ ناجى فى هذه القصيدة كل ما ينبض به قلبه من حب لشوقى ووفاء لذكراه حتى اذا دعى بعدها الى رثاء جديد لم يجد فضـــلا من قول يقوله · فتعلق بأهداب مسرحيات شوقى ! ولكن كيف السبيل الى هذا والمقام مقام رثاء ·· وحديث العشق عادة حديث زاه ، وهو أيضا متخفف يضيق بالوقار الذى يلازم الرثاء ؟ ·· ان الشعراء حيلهم لا تنفد ·· ولهم فى الشعر مداخل ومخارج برعوا فيها ···

لينادى ناجى (شوقى) :

يا ساكن الصحراء منفردا بهـــا	مستوحشـــا فى غربة وتنائى
هل كنت قبلا تستشف سكونها	وترى مقامك فى العراء النائى (٣)

ليتخلص بعد هذا بقوله :

فأتيت ــ والدنيا سراب كلهـــا ــ	تروى حديث الحب فى الصحراء

ويمضى بعد هذا فى وصف قيس وهيامه بخاصة ، وقصة الحب منذ الخليقة بعامة ·· حقا لقد أجاد وصف الحب وأسره ·· ولكن لا ننسى أن المقام مقام رثاء ·· انه مأزق بلا شك ، ولكن ناجى خرج منه بقوله :

يا للقلوب لقصـــة محزونة	لم تـــرو الا روحت ببـــكاء
خلدت على الدنيا وزادت روعة	مما كساها سـيد الشعراء (٤)

---

(١) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ١٧٢ ــ ١٧٧ ساعة التذكار ·

(٢) الدكتور ناجى · ديوان وراء الغمام ص ١٧٨ ·

(٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٠ ·

(٤) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٢ ·

وليته وقف عند هذا الحد ، ولكنه تعثر مرة أخرى اذ أردف هذا بقوله :

خلدت على الدنيا وزادت روعة ... من جودة التمثيل والالقاء
من فن (زينبها) ومن (علامها) ... زين الشباب وقدوة النبغاء (١)

ما الذى أتى هنا بالتمثيل والالقاء و (زينب) و (علام) .. انه حشو واستطراد غير مجد .. واذا كانت القصيدة قد قصد بها الرثاء فهى عندى تتمثل فى الأبيات الثلاثة الأولى فقط .. والشاعر معذور فهو بطبعه قصير النفس ، وكلف نفسه القول مرتين متلاحقتين فى موضوع واحد ، سبق له فضلا عن هذا طرقه أكثر من مرة فى حينه فلم يبق لديه شىء يقوله .. وهو اذا أعطى لم يستبق شيئا كما يقول .

الهجاء :

هل تصدق أن (ناجى) له فى الهجاء شعر ؟ لاتحسبنى أتهم فان شاعرنا الرقيق انسان له غضباته وبداوته وفوراته .. لقد كنت مثلك أستبعد عليه الهجاء ، **ولكنى قرأت بعينى هذا الهجاء المر له (فى من أسمه عبد الحميد) :**

رجل أرى بالله أم حشره ... سبحان من بعبيده حشره
يا فخر داروين ومذهبه ... وخلاصة النظرية القذره
أرأيت قردا فى الحديقة قد ... فلته أنثاه على شجره
عبد الحميد اعلم فأنت كذا ... ما قال داروين وما ذكره
يا عبقريا فى شناعته ... ولدتك أمك وهى معتذره (٢)

انه يذكرنى بابن الرومى وأحدبه .. وعلى نفورنا من الهجاء فى ذاته الا أننا لا نملك الا أن نعترف بالفن المصور فى مثل هذا الشاهد الذى عرضته عليك .. ان كل بيت على حدة يجعل من المسكين المغضوب عليه هزؤا وأضحوكة ..

ان الاستفهام فى البيت الأول يحمل من التقزز والاشمئزاز ما تعاف منه النفس المطمئنة .. والمفاجأة فى البيت الثانى التى أحكمتها لفظة (يا فخر) بموقعها فى شعر هجاء ، ثم بما تلاها من ألفاظ تحيل معنى الفخر وتزيد السخرية امعانا ، والصورة البشعة التى تكفل برسمها

---

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٣ .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٥ .

البيت الثالث ، والبيت الأخير من طراز البيت الثانى .. أورأيت فى الدنيا أقبح ممن تعتذر أمه عن خلقته بعد أن خففت غريزة الأمومة من وطأة شناعتها الكثير ، ومع هذا لا ترى (الأم) ندحة لها عن الاعتذار !! ما ذا تريد بعد هذا ؟

وتهكم ناجي عاصف لا يبقي ولا يذر .. هل جاءك خبر الشاعر الذى هجاه فمسخه ؟ سأسوق اليك حديثه ورأيه فيه :

أيهـــا الحي وما ضر الورى لو كنت متا
أو شعر ! ذاك لا بل حجر ينحت نحتـــا
تلقم النـــاس وترميهم به فوقا وتحتـــا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتا
آه يا قاتل يا سفاك ! حتى أنت حتى(١)

ان غريمه ليس نبي شعر ولكنه كافر شعر ..

ولكن الهجاء فى شعر ناجي أمثلة فردية على كل حال ، ولعله فى الأصل تفكه وجاوز طوره ، فان لم يكن فهو بادرة يصعب أن ينجو من مثلها انسان ، بما فطر عليه من غرائز ، وما ركب فى طبعه من أهواء .

المدح :

وفي الديوان من شعر المناسبات مدائح ولكنه في مدحه مقتصد بوجه عام فلا يعلى من ممدوحه الا بما هو أهل له ، وبما هو عليه من فضل ، وما له من سجايا .. فلا ملق ينحل العاطل صفات الأمجاد ، ولا نفاق يحلق بلصيق الأرض فى الســـماء ، **حتى لقد قال لأحد ممدوحيه فى بســـاطة :**

لم نكرمك للوزارة والمنصب والمجد والســـنا والرواء
نحن قوم نهيم بالرجل الكامل يمضى للأمر دون التواء(٢)

وهو من احساسه وتفززه يخشى أن يسوء تأويل شعره الذى يجله على أن يلحق به رياء ، فيقول لذلك الممدوح أيضا عندما شعر أنه كرر مدحه ولا أقول أكثر من مدحه ، فتلك صـــفة تلحق المتنبى وأضرابه من شعراء المديح ..

---

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٥ .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٧ .

خذ بيانا نظمته شبه عقد منضد
مابه من تزلف جل شعرى ومقصدي (١)

وقد استخفه الطرب حينا فبالغ مبالغة العاطفة الوامقة فى شاعر صديق :

جاءت بأروع من هز البيان ومن أعاد مجد القرافى مثل ما كانا

وهى مبالغة .. ولكنها على كل حال أهون بكثير مما فى دنيا الشعر ، شعر المدح خاصة ، من مبالغات ..

وله مدائح تبدو لنا الآن ممسوخة لأن أصحابها مسخوا ، ولكن هؤلاء مدحهم الشاعر قبل أن تشوه لهم صور وتحلولك ضمائر .. مدحهم حين كنا مجمعين على مدحهم ، فهو لم يداج ولم يكذب ، بل لعل مديحه فى الوقت والظرف الذى قيل فيه كان مظهرا وطنيا فهو شاعر وأمته فى مهرجان ، من يترجم فرحها غير الشعر ؟ وهو شاد وأمته فى عيد ، من يغنى آمالها غير الفن ؟ .

***

وممن كرمهم الدكتور ناجى ، الدكتور زكى مبارك غفر الله لهما .. ويبدو أنه كان صديقا فقد تبسط معه ناجى فى القصيدة التى قد ألقيت فى حفلة تكريمه بمسرح الهمبرا بالقاهرة ، ومنها :

فرح الأهل بالغلام الذى صا ر نديشا فى ندوة السمار
عمموه وقفطنوه فامسى أمل القوم ، فارس المضمار
ثم أمسى مطربشا واكتسى البذ لة ما بين ليلة ونهار
ثم أمسى مبرنطا يقصد السي ن ويغزو مدينة الأنوار (٢)

ليس هذا فى الحق مدحا بالمعنى التقليدى المعروف عندنا ، ولكنها زمالة مشيدة ودود ..

ولقد مدح ناجى الشاعر الدكتور على ابراهيم فهل تحس فى مدحته افتعالا أو صنعة ؟ أم يؤكد لك كل بيت أنه صيغ من أجل الطب ، من أجل الرحمة ، من أجل الحنان ، من أجل الانسان فى أنبل صوره ، وأكرم سجاياه ، قبل أن تكون من أجل شخص على ابراهيم .. ليس فى القصيدة كلها بيت من مبالغة المحب أو وشى الشاعر ، ولكنه الصدق الذى

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٩٩ .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٩٩

من حق الرجل أن يقوله ، ومن الغبن أن يخفيه .. **يقول الدكتور ناجى فى انصاف الزميل وفخر المواطن ، وتقدير الوطنى :**

ولو أن الألى أنقذت جاءوا ... يؤدون القديم من الجميل
ولو أن الألى علمت جاءوا ... يؤدون القليل من القليل
ولو منحوك عمرهم جميعا ... وما هو بالكثير ولا الجزيل
اذن لرأيت عمرك عمر نجم ... له فى اللانهاية ألف جيل
بربك كم وصلت حياة قوم ... وكم حاربت من داء وبيل
وكم أنقذت من أسر المنايا ... وكم نضو شفيت وكم عليل
اذا ما الموت أبدى ناجذيه ... اذا انطفأت عيون فى الذبول
اذا غامت محاجرها ظماء ... كما غامت نجوم فى الأفول
فما هو غير أن أقبلت حتى ... تبدل كل أمر مستحيل
كأنك لمع برق فى الأعالى ... يحيى مقدم الغيث الهطول
كأنك واحة فى القفر لاحت ... رأتها أعين الركب الكليل
كأنك جنة فى البيد تندى ... بعذب الماء والظل الظليل
ولو أيامك العصماء جاءت ... بكل أعز مزدان حفيل
اذن لطلعن فى الظلمات بيضا ... من الغرر اللوامع والحجول
ولو أن المآثر ذات قول ... لقلت تكلمى وصفى وقولى
أضفها فهى أعمار أضيفت ... وما تدرى لماضيك النبيل (١)

هل الدكتور على ابراهيم الا كما وصف ؟ ولو أوتى أحدنا موهبة الشعر هل يضن على الجراح على ابراهيم بمثل هذه الأبيات ؟ هل يستكثر على جراح مصر هذه الأبيات ؟ :

تعالى الله كم من معجزات ... معلقة بأصبعك النحيل
محيل القسوة الكبرى حنانا ... ورافعها الى فن جميل
معارك من دم أم ساح حرب ... أسنتها منغمة الصليل
يسير المبضع الجبار فيها ... بكفك سير مطواع ذليل
معارك كم كسبت بها حياة ... وما لك فى المواقع من قتيل (٢)

انى أسجل هذه الأبيات ولا أصفها فهى من الشعر الذى يحسن بالناقد ألا يصفه حتى لا يجد جماله بالكلمات ولكنى أرددها فتشجينى كالنشيد ، أرددها فتسمو بانسانيتى على الترديد .. ليت قادة الحروب

(١) الدكتور ناجى ـ ديوان ليالى القاهرة ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .
(٢) الدكتور ناجى ـ ديوان ليالى القاهرة ص ١٣١ .

يعونها ليعرفوا كم بين الطبيب والقائد ٠٠ كم بين من يحيى الميت ومن يميت الحى ٠٠

***

وبعد ، فان الدكتور ناجى ليس مداحا وما كان المدح يوما من هواياته أو غاياته أو وسائله ، ولكنه شاعر ٠٠ **شاعر حقا ذلك الذى يقول :**

أكتب لوجه الفن لا تعـدل به ... عرض الحياة ولا الحطام الفـانى
واستلهم الأم الطبيعة وحدهـا ... كم فى الطبيعة من سرى معـانى
الشعر مملكـة وأنت أميرهـا ... ما حاجـة الشعراء للتيجـان
هومير أمره الزمان بنفسـه ... وقضت له الأجيـال بالسلطان
اهبط على الأزهار وامسح جفنهـا ... واسكب نداك لظامىء صديان (١)

ألا انه أخلق بالمدح يخلعه عليه الآخرون ، ذلك الذى يستاف عطر الطبيعة فى الزهرة الناعسة ، والعشب الجاف ٠٠ فى الأيـك ٠٠ فى الروض ٠٠ فى كل ما جادت به على هذه الأرض ٠٠٠ دنيانا ٠٠ لماذا ؟ لأنه شاعر فنان ٠٠٠

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ ـ ١٩٧ قصيدة خمر الرضا ٠

فن ناجي الشعري

نقد ناجي شوقي (١) على ضوء تعريف « لي هنت » للشعر بأنه (موسيقى واقناع وخيال وصور) .. ومضي يطبق هذه الأوصاف على شعر شوقي .. والذى يهمنا هنا هو تعريفه لعناصر الشعر الأربعة في رأى صاحبه ورأيه ..

فالموسيقى عند ناجي هي (من حيث انها تحتاج الى اللفظ والصياغة والانسجام ، فهي اذن في حاجة الى الالمام العظيم باللغة ، هذا الى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة ، والى أذن تحسن الاستماع وتمييز الأنغام !) (٢) .

(أما الاقناع ، فهو قوة خاصة في الشعر ، بحيث يضطرك الشاعر الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك بدون ان يملك أو يشعرك أنه يقودك وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه) (٣) .

والخيال .. هو « اطلاق العنان للتصورات العالية ، لا للاستعارات والكنايات اللفظية .. » (٤) .

وقد تناول ناجي في نقده لشوقي « الصور الشعرية » وهي تعني عنده أنك (تقرأ قطعة للشاعر فلا تملك الا أن ترى الشيء مرسوما أمامك

---

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
(٢ ، ٣) المصدر نفسه ص ٣٥٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٦ .

بوضوح ، مجسما قويا بارزا) .. أى أن الشاعر ينبغى أن يكون مصورا بوضوح ، وألفاظ الشعر يجب أن تكون موحية ..

وهذا التعريف للشعر الذى يؤيده ناجى يتضمن عناصر أخرى وان لم يميزها ببيان ـ فتعريف « لى هانت » للموسيقى يشير الى وجـوب اللفظ الخاص بالشعر أى المختار المصفى ، والصياغة تشير الى الأسلوب ، والانسجام ، الى التساوق العام والمواءمة بين اللفظ والمعنى ، والمناسبة بين أصوات القصيدة ومسافاتها بحيث تكون كلا موسيقيا متماسكا .

وتعريفه للاقناع يحتم بروز شخصية الشـاعر وأسرهـا بحيث يضطرك الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك ، بدون أن يملك ، أو يشعرك أنه يقودك ، وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه .

أما تعريفه للخيال فيحتاج الى الوقوف عنده مليـا .. فان اطلاق العنان للتصورات العالية يعين عليه الاستعارات والكنايات ، اذا واتت فى غير تكلف أو استخدمت فى غير اغراق أو تطوح أو شطط ، ولا أحسب « ناجى » ينكر هذا الفهم للخيال ، ولعله يقصد الاشادة بالمعنى وحرصه عليه خشية أن يضيع فى ثنايا اللفظ ، أو ينوء بما يحمل من استعارات . ويرهق بما يمزج به من كنايات تخرج بالشعر كله من فيض الاحساس الى صناعة أوزان ..

والذى نخرج به من هذا التعريف صريحه ومضمونه هو أن الشعر يقاس بما فيه من :

تصورات وأخيلة .

ألفاظ نقية صافية تشرق بها المعانى .

صياغة متوائمة مع موضوع القصيد .

موسيقى سابغة .

وحدة تنتظم القصيدة هى الوحدة الشعرية .

صحة فى الأداء .

شخصية الشاعر .

وعلى ضوء هذا المقياس نمضى نقيس شعر ناجى ونقدره .. بعد أن نضيف اليه عاملا آخر هو (قيمة التجربة الشعرية)

ولنطبق التجربة الشعرية أولا فهى أحق بالتقديم اذ هى الحافز الذى يثير الشاعر الى قول الشعر وهى بهذا اللبنة الأولى فى بناء القصيدة ، ويشترط ناجى فى التجربة الشعورية (الصدق والاقتناع القلبى) (١) وتسأله : كيف تصهر التجربة ؟ فيقول لك :

« ان الوعى يتصل بغير الوعى .. ثم يطفو عليهما ضباب ملـون مشبع بالذكريات .. وهذا الضباب يغطى أجزاء التجربة حيث يجرى تركيبها من جديد .. لا حسبما وجدت فى الطبيعة ، بل حسـبما رآها الفنان .. ومن ذلك يتضح لنا لماذا قال سـانت بيف « ان الفن مزاج فردى » .. ويتضح كذلك أن النقد يتعين عليه تمييز الأساليب لا تطبيق القواعد .. » (٢) .

هل كان شعر ناجى وليد انفعالات أثارتها فى نفسه دوافع خارجية أثرت فيه ؟ أو عوامل داخلية نتيجة لاستبطانه نفسه ؟ نعم عندى هى الجواب الصحيح ، فقد كان ناجى فى معظم شعره يصدر عن طبع وتأثر ؟ وقد رأينا فى الفصل الأول موجات نفسه فى شعره وكيف كان هذا الشعر صدى لما اعتمل فى تلك النفس من مشاعر ..

عرض الأستاذ مصطفى سويف لرأى تاولس R. H. Thouless فى الابداع الفنى ، وعنده أن (الخطوة الأولى نحو تعليل الابداع الفنى ، سواء أكان ابداع قصيدة أم ابداع صورة أم كان غير ذلك ، هى الكشف عما شهده الشاعر من نقص فى بيئته وكيف دفعه شعوره بهذا النقص الى تفقد الحل الذى يرضيه ، ويقرر أن الابداع نشاط اجتماعى من بعض نواحيه ، وأن الفنان انما يريد به أن يوقظ بعض استجابات معينة فيمن يشهد فنه (٣) .

وقد رأينا فى فصل (ناجى الشاعر) و (شعر ناجى) شواهد على هذا التفسير .

ويشايع الأستاذ سويف ، لنجفيلد فى أن الابداع بمعناه الدقيـق يقوم على حياة ملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب (٤) .

وأيضا كانت حياة ناجى ملؤها القلق والاضطراب .. اذن شعـر ناجى وليد دوافع صادقة يعترف بها علم النفس الحديث ، فى شعر ناجى تجارب شعرية .. انفعالات .. هزات .. أحاسيس .

(١ ، ٢) من مقال للدكتور ناجى بعنوان (الفن والحياة) .

(٣) الأسس النفسية للابداع الفنى ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٤) الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ١١١ ــ ١١٢ .

وقف الشاعر ينتظر تحت العاصفة والظلام والبرد ، فأوحى الانتظار اليه هذه الأبيات :

أرى الآباد تغمرنى كبحر سحيق الغور مجهول القرار
ويأتمر الظلام على حتى كأنى هابط أعماق غار

وتصطخب العواصف ساخرات وتطعننى بأطراف الحراب
وتشفق بعد ما تقسو فتمضى لتقرع كل نافذة وباب

فصحت بها الى أن جف حلقى فحين سكت كلمنى ابائى
وأشعرنى العذاب بعمق جرحى وأعمق منه جرح الكبرياء

ولما لم تفز بلقاك عينى لمحتك آتيا بضمير قلبى
فأسمع وقع أقدام دوان وأنصت مصغيا لحفيف ثوب

وأخلق مثلما أهوى خيالا وأستدنى الأمانى والحبيبا
وأبدع مثلما أهوى حديثا لناء صار من قلبى قريبا

أمد يدى فى لهف اليه أشاكيه بمحتبس الدموع
فيسبقنى الى لقياه قلبى وثوبا ثم يبرد فى ضلوعى (١)

هنا قلق وتفزز ، وتمن ولهفة ..

وناجى المرهف الحس المتوفز الأعصاب يوحى اليه الانتظار آيات .. وهذه تجربة هى صورة للمنتظر بأحلامه وأوهامه :

أغدا قلت ! فعلمنى اصطبارا ليتنى اختصر العمر اختصارا
عبرت بى نشوة من فرح فرقصنا أنا والقلب سكارى
وعرانا طائف من خبل فاندفعنا فى الأمانى نتبارى
سنذم النور حتى يتلاشى ونذم الليل حتى يتوارى

انفردنا أنا والقلب عشيا ننسج الآمال والنجوى سويا
فركبنا الوهم نبغى دارها وطوينا الدهر والعالم طيا
فبلغناها وهللنا لها ونزلنا الخلد فيتانا نديا
ولقينا الحسن غضا والصبا وتملينا الجلال الأبديا (٢)

وهذه تجربة من صنع المرآة التى نظر اليها ثم حاول التنفيس فكانت هذه الأبيات :

---

(١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١١٥ ـ ١١٧ .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام قصيدة الغد ص ٩٧ ـ ٩٩ .

ياويلتا من عمرى البـــاقى	هذا ســـواد تحت أحـــداقى
هذا بيـــاض الشيب واعجبى	من مغـــرب فى زى اشراق
ويـلى عـــلى كأس معربـــدة	وعلى دم فى الكأس مهـــراق
وعلى سراب خـــادع وعـــلى	متألـــق اللمحـــات بـــراق
طاف الزمان به عـــلى نفـــر	مالـــوا بهامـــات وأعنـــاق
صرعوا وأنت تظنهم سكـــروا	مات الندامى أيها الســـاقى (١)

ومن تجارب ناجى الشعرية قصيدة (رسائل محترقة) التى عدهـا الأستاذ السحرتى من التجارب الوجدانية ذات التعبير المرهف الحساس(٢) (وهى بلا مراء تجربة شعرية ممتعة مشبعة ٠٠) ويغـالى بهـا الأستاذ السحرتى ، قصيدة وجدانية رائعة تتوهج فى ثوب قصـصى جـذاب ، وانفعال وثاب حساس ، ووحدة قوية ، وموسيقى ارتكازية ٠٠ ولا يدع الحديث عنها الا بعد أن ينظمها فى (مفاخر شعرنا العصرى) (٣) ٠

كما نوه الأستاذ السحرتى بقصيدة ناجى (قلب راقصة) (٤) وهى عنده (قصيدة عجيبة تمثل تجربتها أمام القارىء حية ناطقة ، فهى تبرز حال المتفرج فى المرقص ، وتكشف عن الراقص ، وتنبثق منها موسيقى مختلفة النغمات متحدة القرار ٠٠) (٥) ٠

ويغالى ناجى ـ بحق ـ بقيمة التجربة الشعورية ، وانك حين تقرأ حديثه عنها تحس أنها روح العمل الفنى وجوهره ، وسأسوق اليـــك الحديث ٠٠ (قد يخيل للانسان أن الفن محاكاة للطبيعة ٠٠ وبهذا قال أرسطو قديما ٠٠ حقا ان الانسان من بدء حياته ينقل عن الطبيعة لأنه لا يرى شيئا دونها ينقل عنه ٠٠ ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الصحراء الجرداء لا معنى لها بدون أن يخلع عليها السارى خياله وحداءه ٠٠ والجبل الأجدب قائم سخيف ، لولا ما يخلع عليه الانسان من السمو والتفرد ٠٠

وهذا هو الفرق بين الرسم والفوتوغرافيا والرسم باليد ٠٠

هب أنك أخذت صورة لشحاذ على قارعة الطريق بالفوتوغرافيا ٠٠ ثم رسمت هذا الشحاذ على لوحة فنية فان الثانية أوقع بلا جـــدال ، والسبب فى ذلك أن الفنان يخلع على الصورة تجربته الشعورية الخاصة

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة قصيدة شكوى الزمن ص ٧٥ ٠

(٢ ، ٣) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للأستاذ مصطفى السحرتى ص ٢٩ ٠

(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٦ ٠

(٥) كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للاستاذ مصطفى السحرتى ص ٤٥ ٠

ويخلع عليها الحماس ويضيف اليها اللهب الذى يضيئها ويجلو جلالها (١) ٠

الخيال فى شعر ناجى :

قدم الأستاذ دسوقى أباظة لديوان (ليالى القاهرة) فسجل لشاعرنا أنه من أقطاب المدرسة الحديثة التى (تتسم بطابع الجدة والطرافة ، وبالأسلوب الأنيق والعبارة السهلة وهى تحتفل بالفكرة أكثر مما تحتفل باللفظ ، وتعنى بالموسيقى والروتين ، قبل عنايتها بالصياغة والصنعة ٠٠) ٠

ولعل الأستاذ دسوقى شعر بحاجة هذا التعريف الى مزيد من الايضاح ، كما شعرت أنا ببعض التناقض بين الأسلوب الأنيق (وقلة الاحتفال باللفظ) وتأخير العناية بالصياغة ! ٠

أما الايضاح فقد استعان عليه الأستاذ دسوقى ببسط أبيات لناجى تعين بشواهدها على التفسير وها هى تى الأبيات :

ان خاننى اليوم فيك قلت غدا	وأين منى ومن لقاك غد
ان غدا هوة لناظرها	تكاد فيها الظنون ترتعد
اطل فى عمقها أسائلها	أفيك أخفى خياله الأبد
يالامس الجرح مالذى صنعت	به شفاه رحيمة ويد
ملء ضلوعى لظى وأعجبه	أنى بهذا اللهيب أبترد

وهذا هو التفسير : (فالتعبير عن الغد المجهول بالهوة العميقة ، وعن اضطراب الشاعر فى أوهام الغد بالظنون المرتعدة ، مع سهولة القافية واستقرارها ، هو هو نهج المدرسة الحديثة وسنتها المرسومة) ٠

ثم عرض للهجوم الذى تعرضت له هذه المدرسة وكشف عن البواعث التى دفعت اليه وهى فى رأيه « تتجمع فى نطاق الحرية التى انطلقت بمواهبهم الى الآفاق الرحيبة ، التى أطلوا منها على الأجواء البعيدة عن المعانى والأخيلة مع خلق بعض الأوزان التى لم يسبق أن نظم غيرها منها ٠٠ » ٠

ومن أجواء ناجى هذه الصورة التى رسمها خياله للمحب المتسامى فى أبياته :

---

(١) من مقال للدكتور ناجى (الفن والحياة) فى مجلة الكواكب ٠

لست أنساك وقد أغريتني بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح فى سمائى وأنا لك أعلو فكأنى محض روح
يا لها من قمم كنا بها نتلاقى وبسرينا نبوح
نستشف الغيب من أبراجها ونرى الناس ظلالا فى السفوح (١)

ومنها خياله فى هذه الصورة لنزيلات الوحدة :

والأيامى كالكأس بعد الندامى ذكرت حظها من الصهباء (٢)

لهن الله أولئك اللائى يقتتن سالف الذكريات ..

والصور فى شعر ناجى كثيرة ، وهى وان تفاوتت فى الوسامة والوضوح والألوان والمظاهر الا أنها فى مجموعها حية نابضة فيها شيء هو قلق حينا . ورضا آنا ، وفيها من الألوان قتامة وزهو ، وهى على حاليها تمثل الشاعر فى شتى حالاته .. بل ان منها ما يستوقفك الى جانبه زمنا قد يطول وقد يقصر ولكنك منجذب اليه ، حان عليه ، مسحر به ..

ويتصل بالخيال « التجسيم » وهو وثيق الصلة بالاستعارة ، غير أن المشبه به فى التجسيم هو الانسان الذى يخلع الفتان صفاته وسماته على الأشياء والأحداث ..

والدكتور ناجى ولوع بهذا اللون من التعبير ، وهو شيق ما لم يبتذل ويصنع صنعا يثير غضب رسكين منه حتى ليعده « مغالطة عاطفية » (٣) .

وتجسيم ناجى يتمثل فى مثل قوله من ملحمة السراب :

أدركى زورقى فقد عبث اليم به والعواصف الهوجاء
والعباب العريض والأفق الموحش واللانهاية الخرساء
أفق لا يحد للعين قد ضاق فأمسى والسجن هذا الفضاء
سهرت ترقب الصباح وعين النجم كلت وما بها اغفاء (٤)

واستهل ناجى قصيدة (الخريف) بهذه الأبيات المجسمة :

يا حبيبى غيمة فى خاطرى وجفونى ، وعلى الافق سحابه

---

(١) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) ص ٥٤ الاطلال .
(٢) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) ص ١٤٤ .
(٣) راجع كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » للاستاذ السحرتى .
(٤) الدكتور ناجي ديوان (ليالي القاهرة) قصيدة السراب في الصحراء ص ٩١ .

غفر الله لها ما صنعت — كلما شاكيتها تندى كآبه
صرخ القفر لها منتحبا — وبكى مستعطفا مما أصابه
فأصم الغيث عنه أذنه — ما على الأيام لو كان أجابه (١)

وغضب ناجى مرة غضبة مروعة فتخيل الطبيعة بأحداثها تتربص به ، فصرخ فى وجهها :

اعولى يا جراح — اسمعى الديان
لا يهم الرياح — زورق غضبان

اسخرى ياحياه — قهقهى يارعود
الصبا لن أراه — والهوى لن يعود

اطحنى يا سنين — مزقى يا حراب
كل برق يبين — ومضه كذاب (٢)

ومن ديوانه ـ وراء الغمام ـ هذا المثال :

تعال ! فلم يعد فى الحى سار — وهومت المنازل بعد وهن
وران على نوافذها ظلام — وقد كانت تطل كألف عين

تعال ! فقد رأيت الكون يحنو — علي ويدرك الكرب الملما
ويجلو لى النجوم فأزدريها — وأغمض لا أريد سواك نجما (٣)

ومن (وراء الغمام) استشهد الأستاذ السحرتى بهذه الأبيات من قصيدة العودة :

والبلى ! أبصرته رأى العيان — ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! يا ويحك تبدو فى مكان — كل شىء فيه حى لا يموت

كل شىء من سرور وحزن — والليالى من بهيج وشجى
وأنا أسمع أقدام الزمن — وخطى الوحدة فوق الدرج (٤)

ألفاظ ناجى :

والفاظ ناجى الشاعر الطبيب سهلة حنانة ودود توحي اليك وتهمس فى أذنك ، وتذكرك بأشياء كثيرة ·· وهى أصفى ما تكون حين يناجى

---

(١) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) قصيدة الخريف ص ٢٠٦ ·

(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة قصيدة عاصفة روح ص ١ ـ ٦٢ ·

(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة الانتظار ص ١١٤ ـ ١١٥ ·

(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة العودة ص ١٧ ·

ناجى حبيبه .. هنا يعرف جيدا كيف يختار ألفاظه .. ومن صلاته فى محراب الحب هذا النشيد :

أرى فى عمق خاطرك	جلالا يشبه البحرا
وألمح فى نواظرك	صفاء الرحمة الكبرى
وأنت رضى وتقبيل	وأنت ضنى وحرمان
وفى عينيك تقتيل	وفى البسمات غفران
وأنت تهلل الفجر	وبسمته على الأفق
وحينا أنة النهر	وحزن الشمس فى الغسق
وعندك كل ما أظما	ورد القلب لهفانا
وعندك كل ما أدمى	وزاد الجرح اثخانا
وعندك كل ما أحيا	وشدد عزمه الواهى
حنانك نضرة الدنيا	وقربك نعمة الله (١)

هذه ألفاظ مستديرة ناعمة الملمس كالتفاحة كما تقول أديث سيتول الشاعرة الانجليزية (٢) .

وقليلا ما تتصلب ألفاظ ناجى وتصطنع الشدة والصرامة كما مر بنا فى قصيدته (عاصفة روح) .. ولكن تعبيره فى الغالب يغرورق رقة وتغلب هذه الرقة عليه حتى فى قصائده الوطنية الحماسية ، كما سيأتى بعد قليل ..

الموسيقى فى شعر ناجى :

أجل ! أهواك أنت منى حياتى	وأنت أحب من بصرى وسمعى
وهل أنساك كلا لست أنسى	هوى قد كان الهامى ونبعى

(١) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة صلاة الحب ص ١١٨ - ١٢١ .

(٢) تعيب « اديث سيتول » الشاعرة الانجليزية المعاصرة ، على بعض الشعراء المحدثين ضعف شعورهم بالنسيج اللغوى ، وليس الأمر مقصورا على أن نسيج البيت الشعرى أو نسيج القصيدة لا يدل على شيء فى نظرهم ، بل ان شكل اللفظ ووزنه ... قد أصبح كل منهما منسيا .. فهؤلاء الكتاب لا يرون للكلمات ظلا تضفيه ، ولا شعاعا تشعه ، وليست تتفاوت فى طولها وعمقها ، ولا يعرفون أن الكلمة قد تتلألأ كما يتلألأ النجم المنعكس على صفحة الماء ، وان اللفظ قد يكون مستديرا ناعم الملمس - مجلة الأدب والفن - ج ٢ السنة ٣ - بقلم الآنسة بيرل دى زوت . النص منقول عن كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ٢٨١ .

لبست من التصبر عنك درعـــا فهـــا أنا تنزع الأيـــام درعى
وهـا أنا لا أدارى عنـــك سرا عـــرفت مخبئى ورأيت دمعى
تلاشت قوتى وغـــدا فؤادى كأن خفوقـــه خلجـــات نزع
أبشره فيرقص فى ضـــلوعى وأنظر ســـود أيـامى فأنعى
وقد نضب الخيال وغـــاص طبعى ومات على حيـــاض اليأس زرعى
أجرجر وحدتى فى كل حشـــد وأحمل غربتى فى كل جـمع (١)

أليست هذه الموسيقى السابغة شجية حنانة ؟

وهذه لفتة من لفتاته الشعرية :

هات اسقنى واشرب على سر الأسى وعلى بقايا مهجتى وشجاهـــا
مهلا نديمى ! كيف ينسى حبهـــا من ينشد السلوى على ذكراهـــا
مازلت تسقينى لتنسينى الهـوى حتى نسيت فما ذكرت سواها(٢)

وهذا غناء :

وأناديك فى التـــدانى وما أطمع الا أن يستجاب النـــداء
باســـمك العذب انه أجمـل الأسماء مهما تعددت أسماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسها ويرمى القضاء
وهى بين الشـــفاه ناى وتغريد وطير وروضة غنـاء
وهى فى الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

وأنغام ناجى عند الأستاذ السحرتى تتميز بالاثارة والانفعال ويمثل لهذا بهذه الفقرة من قصيدة (العودة) :

رفرف القلب بجنبى كالذبيـح وأنا أهتف يا قلب اتئـــد
فيجيب الدمع والمـاضى الجريح لم عدنا ؟ ليت أنـا لم نعـــد

لم عدنا أو لم نطـــو الغـــرام وفـــرغنا من حنـــين وألم
ورضينا بسكون وســـلام وانتهينا لفـــراغ كالعـــدم

وقد لاحظ الأستاذ السحرتى على قصيدة العودة اختلاف فقراتهـا فى موسيقاها النوعية ، فالأبيات الأربعة السابقة (تختلف فى موسيقاها مع هذه الأبيات التى جاءت مطلعا للقصيدة وهى) :

هذه الكعبة كنا طائفيهـا والمصلين صباحـــا ومســاء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غربـــاء

(١) الدكتور ناجى • ليالى القاهرة قصيدة بعد الفراق ص ٧١ ـ ٧٢ •
(٢) الدكتور ناجى • ديوان ليالى القاهرة قصيدة يأس بعد كاس ص ٥٩ ـ ٦٠ •
(٣) الدكتور ناجى • ديوان ليالى القاهرة قصيدة ملحمة السراب ص ٩١ ـ ٩٢ •

دار أحلامي وحبي لقيتنـــا في جمود مثلما تلقي الجديد
أنكرتنا وهي كانت ان رأتنـــا يضحك النور الينا من بعيـــد

فالأبيات الأولى منفعلة ذات نغم ارتكازي ، والأبيات الثانية هادئة ناعمة منغومة ..

ولناجي غرام في الخروج عن الوحدة الكلية الموسيقية في القصيدة ، وربما كان توحيد النغم في القصيد كله خيرا من تجزئته ، وان كان هذا التنويع لا غبار عليه (١) .

والأستاذ الناقد لم يجانب الصواب فيما ذهب اليه ، فان الوحدة الموسيقية عند ناجي غير مطردة في ديوانه ... فديوانه (**وراء الغمام**)به ٣٨ قصيدة موحـدة القافية والصـــوت وعشر قصـائد مزدوجة القافية وقصيدتان على نظام الرباعيات وأخريان تتغير القافية فيهما كل أربعة أبيات وقصيدة تتغير القافية فيها كل ثلاثة أبيات .

فاذا تناولنا ديوانه الثاني (**ليالي القاهرة**) الفينا القافيـــة أكثر اطرادا في هذا الديوان منها في الديوان الأول . فالقصائد الموحدة في (ليالي القاهرة) يرتفع عددها الى ٦٥ قصيدة بينما المزدوجة ست .. وفي الديوان ثلاث قصائد تتغير القافية فيها كل أربعة أبيات ...

ولما كان ناجي ينظم الشعر بالسليقة فانه يطيب له أحيانا أن يجعل لكل بيتين قافية ، وفي أثناء القصيدة تعثر له على أربعة أبيات من قافية واحدة كما تلاحظ في قصيدته (لقاء في الليل) (٢) .

ولعل هذا من أبرز آثار الأدب الغربي فيه ان لم يكن أبرزها فقد قرأ فيه كثيرا ، ووعى عنه كثيرا ، ولكن تجديده في المعاني والصور لا يتميز مثل هذا التميز الذي يطالعنا لأول وهلة متبديا في قوافيه وأوزانه ...

ولا عذر لناجي عند أهل المدرسة القديمة من مطولات يدفع سأمها بتنويع ، فهو ينوع حتى في المقطوعات القصيرة .

والمدرسة الحديثة تدرك هذا جيدا فان الأستاذ دسوقي أباظة عندما قدم لديوان ناجي (**ليالي القاهرة**) سجل أن من بواعث الهجوم الذي تعرضت له هذه المدرسة كما أشرت (خلق بعض الأوزان التي لم يسبق

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ص ٥٢ .

(٢) الدكتور ناجي ، ديوان ليالي القاهرة ص ٣٥ .

أن نظم غيرهم منها ...) وهنا استدل بقصيدة (عاصفة روح) التى استهلها الدكتور ناجى بقوله :

أين شط الرجاء ... يا عباب الهموم
ليلتى أنواء ... ونهارى غيوم

أعولى يا جراح ... أسمعى الديان
لا يهم الرياح ... زروق غضبان

اسخرى يا حياه ... قهقهى يا رعود
الصبا لن أراه ... والهوى لن يعود (١)

« فهذا الوزن لا يوجد له نظير فى أوزان البحور المعروفة ، وربما كان اعتماد الشاعر فيه على السماع والايقاع » (٢) .

ومن شعر ناجى الايقاعى ذى المسافة الصوتية القصيرة قصيدته (من ن الى ع) التى استهلها بقوله :

ياشطر نفسى وغراسى الوحيد ... ما شئت يا ليلاى لا ما أريد
يا من رأت حزنى العميق البعيد ... داويت لى جرحى بجرح جديد(٣)

ونلاحظ أن ناجى فى قصائده الموحدة القافية جياش العاطفة ، كملحمة السراب ، وهى من أروع ما قال وهو فيها مندفع فى قوة ، مسحر تواتيه القوافى والمعانى والألفاظ ، فلا حاجة به الى التغيير والتوسل بقواف جديدة ...

ولم ينظم الدكتور ناجى شعرا مرسلا أو شعرا حرا . والشعر المتحرر من القافية بعد هذا يجد من يسمع فى تلاوته موسيقى عذبة ويجد فيه راحة ذهنية (٤) .

ويرى بعض النقاد (أنه لا مفر للمجددين فى هذا العصر من تطعيم موسيقى الشعر بالأنغام المنوعة والتفعيلات الجديدة .. ولا يكون هذا الا بهجر القافية الواحدة ، وبخاصة في القصائد المطولة وفي الشعر التمثيلى ، وقد آن لشباب الشعراء فى الشرق أن يتذرعوا بالشجاعة الأدبية ويشقوا طريقهم الجديد ، غير حافلين بالموسيقى التقليدية الرتيبة ، ولا حافلين

---

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٦١ قصيدة عاصفة روح .
(٢) هذا رأى الأستاذ دسوقى أباظة أسجله كما هو .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة قصيدة من ن الى ع ص ١١١ .
(٤) اقرأ السحرتى فى كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١١٩ .

نقدات المحافظين والحفريين الذين يعيشون على تراث الموتى ويستقبلون كل جديد بصيحات الغربان) (١) ٠

فاذا تجاوزنا النقـد الأدبى الى علم النفس الحديث وجدناه يعتبر الوثبة هى وحدة القصيد ٠٠ فالقصيدة (تتألف) من وثبات لا من أبيات ومن هنا كانت الوثبة هى وحـدة القصيدة ، وليس البيت هو الوحـدة كما هو الشـائع عند النقـاد العرب بوجه خاص ٠٠ وكذلك كل عملية متكاملة لا بد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة ، وكل بناء متكامل لابد أن يتألف من أبنية أو أنظمة صغرى متكاملة ٠٠) (٢) ٠

هنا يرتج على المدرسة القديمة مادام العـلم قد قال كلمتـه فى الموضوع ٠٠٠ وكلمة العلم فصل الخطاب ٠٠٠

على أنى لا أريد أن أدع هذا العنصر من عناصر تقويم الشعر دون أن أقرر الحقيقة وهى أن قارىء ناجى يفتقد أحيانا (قليلة) الموسيقى ٠ أى يفتقد أهم عناصر الشعر مثل قوله يستهل قصيدة (الحياة) :

جلست يوما حـين حـل المساء   وقـد مضى يومى بـلا مؤنس
أريح أقـداما وهت من عيـاء   وأرقب العـالم من مجلسى (٣)

ومن شعر ناجى الذى يدخل فى باب النثر أو هو نثر مشطر لو جاز هذا التعبير هذه الأبيات من قصيدة (الى روح الشاعر) التى ألقيت فى حفلة الذكرى للشاعر المرحوم طانيوس عبده (سنة ١٩٤٣) :

قلمى ! ما الذى لديـ   ـك من الخير يا قـلم
قـم فذكر ونـاج قـو   مـك واخطب وقل لهم
ذلك الشـاعر الذى   بات فى خاطر الظلم
هـو منكم وفنـه   عـلم اللـه فنكم
ذلك الشـاعر الذى   روحـه الآن بينكم
لكـأنى أراه حـ   ـيا وألقـاه عـن أمـم
غاشـيا كـل منتـدى   عالى الرأس محتـرم (٤)

---

(١) اقرأ السحرتى فى كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١٢٤ ـ وان كان الاستاذ السحرتى عند عرضه لقصيدة (قلب راقصة) فضل الوحدة الموسيقية المتكاملة على أثر تسجيله للرأى القائل (ان بين القدات وقفات تضيع الوحدة والتماسك العضوى فى القصيدة) ٠٠ (نفس المصدر ص ٤٥) ٠

(٢) كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ٢٧٣ ٠

(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة الحياة ص ٢٩ ٠

(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٦ ٠

مواءمة الصياغة لموضوع القصيد عند ناجي :

أسلوب ناجي ينبع من موضوعه ويتكيف به ويؤديه في لدونة مطواع ولكن هذه المواءمة بين الصياغة وموضوع القصيدة تفوته أحيانا في الرثاء والحماسة .. وقف ناجي يرثي الشاعر المرحوم طانيوس عبده في حفلة ذكراه :

موقف حان فاغتنم	وتخير من الكلم
كل لفظ أرق من	ضحكة الزهر للديم
مستمد من الربى	مستعار من الديم
أجمع الآن طاقة	غضة النور تبتسم
أهدها روح شاعر	خالد بالذى نظم (١)

موقف حان فاغتنم ! ألا يشعرك هذا الاستهلال بأنك سامع عما قليل وصف لقاء كان ينتظره الشاعر طويلا وقد أعد لتحيته الزهر الضاحك والألفاظ الرقيقة . والا فقل لى أى اغتنام فى الموت وأى فرصة فيه تهتبل ؟

وقد مر بنا كيف فتر في تأبينه لشوقي مبنى ومعنى حين أجاد رثاءه في حفل ذكراه ، ويبدو أن المفاجأة لم تترك له وقتا يجود فيه .. فليس فتور تأبينه معناه أن خطب شوقي لم يفدح (ناجى) ... كلا .. انه عندى الآية على عمق جرحه فيه ، وشدة تأثره بفقده .. ولست هنا أدبج لفظا أو استملي عاطفة ، فان الدراسات النفسية تقرر أن الفنان يندفع (نتيجة لالتقاء تجربتين (٢) يندفع فى نشاط يهدف الى خفض التوتر واعادة الاتزان ، ويكون هذا النشاط منظما بفعل الاطار ، فتكون النتيجة قصيدة . ومن المحقق أن اختلال الاتزان يختلف باختلاف التجارب التى يلقاها الفنان ، بحيث يمكن أن نتحدث عن اختلال سطحى واختلال عميق واختلال بالغ واختلال ضئيل ويبدو أثر ذلك فى صعوبة عودة الاتزان الى الأنا وتأخر هذه العودة فترة طويلة أحيانا . وعلى هذا الأساس نستطيع

---

(١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٦٦ .

(٢) يصف الأستاذ سويف خطوات الابداع عند الشاعر بهذا المثال : لقد (أتته الآن تجربة متصلة بالأنا بعثت عنده آثار تجربة قديمة جرت على الأنا ، وقد تبادلت التجربتان التأثر والتأثير واختلط الأمر على الشاعر فكأنه فى دوامة .. ولا يمكن أن يستقر الأنا فى مثل هذه الحال ، لأن الاستقرار لا يتم الا اذا كانت أجزاء المجال واضحة المعالم واضحة الصلات ، أى أنها هى نفسها فى حالة استقرار ، فاذا لم يتوفر ذلك ظهرت بالأنا توترات تدفعه الى محاولة التوضيح كيما يتحقق الاتزان) .

« كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى ص ٢٦٧ » .

أن نعلل كون فيكتور هوجو لم يستطع أن يبدع من معين وفاة الا بعد مرور عام على هذه الوفاة) (١) ٠

وعلى هذا الأساس أيضا نستطيع أن نعلل تخلف ناجي في تأبين شوقي واجادته رثاءه بعد عام من وفاته ٠٠٠ ان التوتر والاختلال الذي أصابه بوفاة شوقي عميق بالغ جعل من الصعب عودة الاتزان الى الأنا ، وتأخر بهذه العودة عاما كاملا ، حتى استطاعت آثاره أن تقترب من الانتظام ٠

***

هذا في الرثاء أما في الحماسة فقد استعرضنا معا نداءه للشباب (٢) ، ورأينا أسلوبه فيه موسيقاه هينة لينة رقيقة كشأنها في سائر قصيده ٠٠٠

والموسيقى الوطنية مدوية متدافعة مستنفرة عالية ، يترامى صداها الى بعيد ٠٠٠ وشعر ناجي كما يصفه الدكتور طه حسين (كهذه الموسيقى التي يفسدها الفضاء الطلق وتضيع في الميادين الواسعة ، وتجود كل الجودة ، وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخى الأستار ، ويخلو النجي الى النجي ، ويفرغ الصفي للصفي ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب) (٣) أو كما وصفه في مكان آخر بأنه (أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة) (٤) ٠

الوحدة الشعرية عند ناجي :

يعرف الأستاذ السحرتي الوحدة الشعرية بأنها (الرباط الذي يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى والألفاظ في وشاح خفي أثيري ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة) ٠

وتلمح هذه الوحدة ، ابتداء من دوران أبيات القصيد دورانا منطقيا شعريا ، وتنقل هذه الأبيات تنقلا فكريا ، ويتأتى هذا من توفر التجربة الشعرية وعرضها عرضا جميلا ، وصياغتها صياغة محكمة — صياغة لا هي بالطويلة المجرجرة ، ولا بالقصيرة الكاشفة ٠

وتقوم كذلك الوحدة على اتجاه الصور الخيالية بالقصيد اتجاها

---

(١) كتاب الأسس النفسية للابداع الفني ص ٢٦٨ ٠
(٢) ديوان ناجي وراء الغمام ص ١٥٨ — ١٥٩ ٠
(٣ ، ٤) كتاب « حديث الأربعاء » للدكتور طه حسين ج ٣ ص ١٥٢ ٠

موحدا (١) ، ومما يزيد الوحدة حركة وتماسكا ، حدة الانفعال الشعرى وجمال الموسيقى (٢) ٠

(ولا يقف هيكل الوحدة الأثيرى عند التسلسل المنطقى ، ولا الصور الحية ولا الموسيقى المتوائمة مع معانى القصيد ، بل ان للألفاظ وتموجاتها وتوافقها وحرية نظامها دخلا كبيرا فى تكوين هذا الهيكل ٠ ونقصد بنظام الألفاظ الحر عدم التقيد بالأسلوب النحوى الجامد فى تركيب العبارة) (٣) ٠

لقد مر بنا من شعر ناجى الكثير ٠٠ وهو ـ ما عدا أمثلة فردية سنتناولها عند مناقشة «صحة الأداء» ـ زاخر بالتجارب الشعرية والصور الملونة ، والانفعالات الهازة ، والموسيقى الحنون ، والألفاظ الموحية العذبة وان لم يبلغ في ألفاظه مبلغ شعراء لبنان المولعين بالنحت اللفظى والاطراف ٠٠ كل هذا فى صياغة مشبعة ممتعة متسلسلة ، فى غير فضول أو قصور ٠٠ ولا أريد أن أضرب امثلة جديدة تؤيد ما ذهبت اليه ، فليرجع الى ديوانيه من يشاء ٠٠٠

أما الوحدة بمعنى اطراد القافية فى القصيدة كلها فلم يتقيد ناجى بها ، فقد زاوج ورابع متحررا من القافية عامدا فى رأيى ، تمثلا بشعراء الغرب المحدثين الذين لا يلتزمون الوحدة الشعرية عن فكرة ٠٠٠ فهى عندهم تمسك بما لا يلزم لمجرد التقليد ٠٠ ويبدو أن (ناجى) كان من أنصار هؤلاء ٠٠٠

صحة الأداء :

وصف الأستاذ دسوقى أباظة (ناجى) فى مقدمة ديوان (ليالى القاهرة) بأنه (شاعر لا يكتب الا ما يتحرك له حسه ، ويفيض به خاطره، فالشعر عنده عاطفة نارية ، تتشكل فى الأسلوب الذى يلائمها ، والقالب الذى يتساوق معها ٠٠ ومن هناأخذ بعضهم على الدكتور ناجى ، أنه ينحرف فى أسلوبه عن جادة الأسلوب العربى الصحيح ، من حيث احلال الألفاظ فى غير معانيها ٠٠٠)

ولعل الأستاذ دسوقى كان يلمح الدكتور طه حسين الذى نصح

(١) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للاستاذ السحرتى ص ٨٢ ٠
(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ ٠
(٣) المصدر نفسه ص ٨٥ ٠

الشاعر (ناجى) فى نقده ديوان (وراء الغمام (١)) بأن يعنى بلغته وكرر له النصح ٠

وهذا المأخذ فى رأى الأستاذ دسوقى مأخذ مردود (فاللفظ الواحد عند الشاعر ، يدور على أكثر من معنى ٠٠ والشاعر مسوق بعاطفته نحو موضوعه ، وهى التى تلون أساليبه ، ولها من قوتها الجارفة ما تستطيع به أن تسم الألفاظ بأبعد معانيها ٠٠ ولغة الشعر ، غير لغة القاموس ٠٠ والشاعر يتأثر وينفعل ، ثم يعمد الى تصوير مرئياته فى حرية لا تتاح لغيره ، لأنه ينقل عن ذات نفسه ما يتفق فيها من معان مجنحة ، بعيدة على حد تصوير الشعر ، فيختار لها ألفاظا لا يقرها القاموس ، ولا يستسيغها قلم الكاتب ، وذلك هو مفترق الطريق بين الشاعر الذى يستشرف الى الآفاق الجديدة ، وبين الشاعر الذى لا يجرى الا فى غبار القدامى) ٠

احسب أن المعانى المجنحة البعيدة على حد تصوير الشعر ، والاستشراف الى الآفاق الجديدة لا تقر هذا التشبيه :

واذا الدنيا كما نعرفها ... واذا الفجر مطل كالحريق
واذا النور نذير طالع ... واذا الأحباب كل فى طريق (٢)

ان تشبيه الفجر الندى الألاق بالحريق غير موفق ، ولو أن عذره ماثل فى أن الفجر هذا نم عليه ففزع ، وانتزع منه رفيقه فأسف ٠٠٠

ومما وقع فيه ناجى هذا التشبيه غير الموفق للحب :

يا غراما كان منى فى دمى ... قدرا كالموت أو فى طعمه
قد قضينا ساعة فى عرسه ... وقضينا العمر فى مأتمه
ما انتزاعى دمعة من عينه ... واغتصابى بسمة من فمه
ليت شعرى أين منه مهربى ... أين يمضى هارب من دمه (٣)

على أن هذا التشبيه لم يمنع الأستاذ دسوقى أباظة من الاستشهاد بالمقطوعة على أن الشاعر بلغ القمة فى ملحمة الأطلال ٠٠ وملحمة الأطلال من أروع ما قال ٠٠ ولكن أولى بالتمثيل عندى هذه المقطوعة الرقيقة الحنانة :

لست أنساك وقد أغريتنى ... بفم عذب المناداة رقيق

---

(١) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين جـ ٣ ٠
(٢) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ٠ الوداع ص ٥٦ ٠
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان (ليالى القاهرة) الأطلال ص ٤١ ٠

ويد تمتد نحـــوى كيـــد من خــــلال الموج مدت لغـريق
آه يا قبلة أقـــــدامى اذا شكت الأقدام أشــواك الطريق
وبريقــــا يظمأ الســـــارى له أين فى عينيك ذياك البريق (١)

أحسب أن ليس فى الدنيا أبر وأحنى من اليد المنقذة يلمحها الغريق أشفى على الهلاك تمتد اليه من خلال الموج ٠٠ انها الحياة بعد الموت ٠٠ انها الأمل فى قتام اليأس ٠٠ انها الروح الذاهبة تعود ٠٠٠

ومن تناقض ناجى قوله :

فعرا الأفق قتـــــام وبدت سحب تحبو الى وجــه القمـر
كلمــا تقـرب تمتـــد له كأكف شرهـــات تنتظــــر (٢)

ان الأكف الشرهة لا تنتظر بل تتعجل وتلتهم ، ولكن لعل الشاعر أراد بالانتظار التربص ٠

ومن أمثلة احلال الألفاظ فى غير معانيها عند ناجى قوله فى اهداء ديوانه (وراء الغمام) : « فتقبل طاقة بالدم والدمع نديه » ٠

لعل الشاعر أراد (روية) فلم يسعفه اللفظ فى حينه ، لأن الندى الرقيق المتلألىء لا يشبه به الدم وان دنا من الدمع الحنان شكلا ومعنى ٠

قد يتجاوز الناقد عن هنة كهــذه لشاعر آخر ولكنها تلفته من ناجى الرقيق القائل :

لك حســـن نــوار الخميــلة طل صــــبحا فابتســـم
لك نضرة الفجــر الجميــل عــــلى الذوائب والقــــمم
لك كل مــــا أوفى عــــلى قـــدر النهـاية واســـتتم
فبـــأى قـــلب أتــــقى وبأى حصـــــن أعتصـــم (٣)

وناجى شاعر القوافى المتعددة يفلت منه المعنى احيانا فلا يمســـك به الا فى المقطوعة الثانية ، كقوله من قصيدة « لقاء فى الليل » :

عوذتها من شر أمســــــية تعيــا بها وتضل أبصــار
وكواكب ليســت بمجـــدية ظلم مكدســـــة وأحجـار (٤)

---

(١) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة الأطلال ص ٤١ ٠
(٢) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة أحلام سوداء ص ١٧٨ ٠
(٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ٠ ليالى الأرق ص ٧٦ ٠
(٤) الدكتور ناجى ــ ديوان ليالى القاهرة قصيدة لقاء فى الليل ص ٣٦ ٠

هنا يستبهم المعنى فلا يتجلى الا فى البيت الذى يليه ، ولكنه لا يتفق معه فى قافيته اذ هو من مقطوعة أخرى بقافية جديدة .

عثرت بها فرفعتها بيدى   جسما يكاد يشف فى الظلم (١)

وحينما يتعثر لفظ الشاعر فى الأداء مثل قوله :

يا حياة البائس المنفرد   يا يبابا ما به من أحد (٢)

ألست ترى معى ان تجاور الياءين ثقيل على اللسان ؟ وحينا تتنافر ألفاظه فى مثل بيته :

وسمعنا صرخة فى رعدها   سوط جلاد وتعذيب اله (٣)

ما وقع هذا البيت فى حسك .. انى أحس به تنافرا .. أين الجلاد من الاله ؟ على أن الله لا يحب أن ينسب اليه التعذيب بدليل قوله « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم رشدا » فبناء الفعل للمجهول فى الشر له دلالة لا تغيب عن فطنة ناجى .. ولكنه سها .

وفى شعر ناجى هذا البيت :

تعالوا نشيد ملجأ رب ملجأ
يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا (٤)

وفى شعره :

هيا أجل هيا الى أينا
لحيث تحكى حلم روحينا (٥)

لحيث .. هل هى ضرورة شعرية استوجبت (اللام) بدلا من (الى)

ويروق لناجى أحيانا وشى البديع ، فيجانس كقوله :

ابن ؟ أعن قلبى الممزق وارحم (٦)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ــ قصيدة الاطلال .
(٣) المصدر السابق ص ٤٥ ــ قصيدة الاطلال .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ــ قصيدة مصر ص ١٧٩ .
(٥) » » » من ن الى ع ص ١١٢
(٦) » » وراء الغمام ص ٥٨ ــ الزائر .

ويطابق كقوله :

ترامت كما شاءت وشاء لها الهوى ... تميل على خد وتصدف عن خد
وتلك الكروم الدانيات لقاطف ... بياض الأمانى من عناقيدها الربد
فيالك عندى من ظلام محبب ... تألق فيه الفرق كالزمن الرغد
ألا كل حسن فى البرية خادم ... لسلطانة العينين والجيد والقد
وكل جمال فى الوجود حياله ... به ذلة الشاكى ومرحمة العبد(١)
اذا كان فى لحظيك سيف ومصرع ... فمنك الذى يحيى ومنك الذى يردى
اذا جردا لم يفتكا عن تعمد ... وان أغمدا فالفتك أروع فى الغمد
فانى اذا جن الظلام وعادنى ... هواك فأبديت الذى لم أكن أبدى(٢)

ومن التدبيج قوله :

وهذى المنايا الحمر ترقص فى دمى
وهذى المنايا البيض تختال فى فودى (٣)

ولو أننا لا نوافق أصحاب البديع فى أن التدبيج مجرد حلية لفظية ٠٠ فان ايحاء الألوان له من التأثير الفنى ما يجعلنا نضعه فى مصاف صور التعبير الفنية ٠ والفنان الذى يدرك ما للألوان من أثر ينفذ الى آفاق فسيحة من رهافة الحس وانسجام الصور ، أو تألقها ٠٠٠

ان أبا تمام حين قال :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا ... لها الليل الا وهى من سندس خضر

لم يقل حبيب هذا البيت عبثا ٠٠ هو يعرف أن القرآن وصف ثياب أهل الجنة بالخضرة ، فاللون الأخضر اذن له تأثير خاص على نفوسنا .

والفن تعبير عن المعانى بأشياء ٠٠ والانسان قبل أن يستعمل اللغة أبان عن وقع الأشياء فى نفسه بأشياء ، فأحيانا يعبر بحركات عضوية أو حركات صوتية أى بمبهمات ، ثم أبان بالكلمات ، فالابانة بالأشياء هى الابانة الأولى وهى المستمرة ٠٠ والتدبيج بيان بالألوان والأضواء ، فهو فنية قوية فى باب البلاغة ٠

وفى بعض شعر ناجى شية من التقليد لمن سبقوه تلمحه فى مثل بيته :

---

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ، العودة ص ١٨ ٠
(٢) ديوان الدكتور ناجى ليالى القاهرة ــ قصيدة فى الظلام ص ٢٣ ٠
(٣) نفس المصدر ص ٢٢ ٠

انظرى ضـــحكى ورقصى فرحا وأنا أحمل قلبـــا ذبحا (١)

انه يلمح البيت المشهور :

لا تحســبوا أن رقصى بينكم طربا فالطير يرقص مذبوحا من الألم

ويقول ناجى :

شجن على شــجن وحرقة نـــار من مسعدى فى ساعة التذكار (٢)

كما قال المتنبى :

أرق على أرق ومثـــلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

ويبدو أن ناجى شديد الاعجاب بهذا البيت فهو يقول على مثـــاله أيضـــا :

ســـهد على ســـهد وذكـ رى فوق ذكرى تزدحم (٣)

ويبدو أنه يؤيد رأى شوقى فى مولد الحب ٠٠ فكما يقول شوقى :

نظرة فابتســامة فسلام فكلام فموعـد فلقـاء
ففراق يكون فيـه دواء أو فراق يكون منـــه الداء

يقول ناجى :

صدفة ثم وقفـــة فاتفـــاق فاســتباق فموعـد فلقـاء
فقليل من السعادة لا يكمل فيـ ـه ولا يطـــول الهنـــاء
فحنين فلوعـــة فاحتـــراق فجحيم وقـوده الشـــهداء (٤)

ومن شعر ناجى :

عندك قد حط رحال المنى وفى حمى حسنك ألقى عصاه (٥)

فأسلوب (ألقى عصاه) تعبير تقليدى قديم يبدو أنه راق المدرسة الحديثة المجددة ولكنها على كل حال شـــواهد قليلة فى شعره لا تكفى

---

(١) ديوان ناجى ليالى القاهرة ص ٤٣ ـ قصيدة الاطلال ٠
(٢) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ساعة التذكار ص ١٧٢ ٠
(٣) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ليالى الأرق ص ٧٤ ٠
(٤) ديوان ناجى (ليالى القاهرة) ملحمة السراب ص ٩٢ ٠
(٥) ديوان ناجى ليالى القاهرة قصيدة أنوار ص ٢٥ ٠

للحكم ، عليه وهى المآخذ التى قلما ينجو منها شاعر محتم عليه أن يدرس شعر من سبقوه · والدارس لشىء متأثر لا محالة به ·

··· قد يبدو هذا الأثر صريحا وقد يتوارى حتى يكاد يختفى ولكنه موجود ، فان الأستاذ مصطفى سويف يقرر أن عملية الابداع يوجهها الاطار (١) ، وان نفى قضاء توجيه الاطار على جوهر الابداع من حيث انه الخلق على غير مثال ·

ان عنصر الخلق مضمون اذ تتكفل به الشخصية التى تتهيأ من مركبات كثيرة لا يمكن أن تتشابه فى شخصين ، وهذه المميزات الخاصة بكل فرد هى التى تكيف الخلق فى العبقرى أو الفنان ·

يقول الدكتور مراد « ليس الالهام شيئا خارجيا يتلقاه المبتدع كما يتلقى الهبة ، فان ما ألهم به الشاعر كولريدج هو خلاف ما ألهم به نيوتن عندما رأى التفاحة تسقط على الأرض · فالالهام يصدر عن الشخص ولابد له من تهيئة التربة التى سينبت فيها ، فان أرباب الفن الذين يحدثوننا عن الهاماتهم الخاطفة ينسون عادة أن يذكروا لنا أبحاثهم السابقة ومحاولاتهم العديدة ، وكل ما قاموا به من القراءات والمشاهدات والتأملات التى تدور حول المشكلة التى تشغل ذهنهم · وربما يتناسون الاشارة الى هذه المحاولات الشاقة لكى يرفعوا من قدرهم · وحرصا منهم على ألا يطلعوا العامة على الوسائل المتواضعة التى يلجأون اليها فى اخراج المعانى والأفكار فى زيها النهائى » (٢) ·

على أن (ناجى) كان يحمل أطرا عدة فى وقت واحد ، لقد كان فى ثقافته يستقى من موارد متعددة ، ويرى مناهل مختلفة ·· ومع هذا بل ولهذا تتميز شخصيته التى تطالعك فى كل قصيدة ان لم يكن فى كل بيت من قصيدة ·

··· ولنتكلم عن شخصية ناجى الشاعر ·

شخصية الشاعر :

كان (ناجى) سريع الانفعال ، كثير الأوهام ، قلق الظنون ، طاغى الحس ، رفاف النفس ، هفاف المشاعر · وكلها عوامل تظهر أثرها فى

---

(١) كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سويف ص ١٦٢ ·

(٢) كتاب مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ص ٢٤٤ · النص منقول عن كتاب « الأسس النفسية للابداع الفنى » للأستاذ مصطفى سويف ص ١٦١ ·

صاحبها فى حديثه ، فى أسلوبه ، قسمات وجهه ، فى كل ما يصدر عنه .. وكذلك كان شأنها مع ناجى ، كان لها انطباعات فى أسلوبه فتركته متوثبا نابضا بالحركة حتى ليعديك فتهتز باهتزازه .

وصورة ناجى تطالعك فى كل بيت من شعره ، وروحه تطل عليك فى كل قصيدة من قصائده حتى شعره الذى يجوز عليه النقد يمثل شخصيته أيضا ، فهو حين يقول :

آه من ساعة بث وشجون   واقاء لم يكن لى فى حساب (١)

فالبيت من الناحية الفنية بيت عابر من ذلك النوع الذى كان يطلق عليه المغفور له حافظ ابراهيم (شعر السلام عليكم) السلام عليكم التى يقولها كل الناس دون أن تدل على مقدرة خاصة ، أو كفاية بعينها . وألفاظ البيت بعد هذا ألفاظ بليت من استعمالنا لها فى حديثنا اليومى .. (لم يكن لى فى حساب) هذه الجملة التى نرددها كثيرا هى تقريبا شطر بيت ناجى ، ومع هذا كله يدل البيت ببساطته الطبيعية وتحلله من الرصانة التقليدية وافضائه السريع الصريح ، يدل البيت بهذا كله على ناجى البسيط الواضح السهل الطبيعة ...

يقول الأستاذ دسوقى أباظة ، وهو يقدم ديوان (ليالى القاهرة):

وهناك ظاهرة تسيطر على هذا الشعر من ألفه الى يائه ، تلك هى أنك لا تستطيع أن تلمح فيه ظلا لشاعر غير الدكتور ناجى ، فهو فيه بذاتيته وطابعه وطريقة تفكيره وألوان عاطفته ، ونوازع شعوره ، لا فى شعر الحب فحسب ، بل أيضا فى المناسبات والمداعبات ..

....

ليست هذه مجاملة صديق ، ولكنها كلمة الحق التى قالها دسوقى أباظه بالأمس وأقولها مع الكثيرين اليوم ، وسوف يقولها غدا كل منصف طيب النفس ينسب الفضل الى ذويه ..

وهنا نكون قد فرغنا من تحليل ونقد شعر ناجى ... ولكن هناك صفات أخرى لم يستوعبها التحليل ، وهو من حقه أن نسجلها له ومنها الحوار فهو لا يحب المنصة ليلقى عليك منها ما لم يتوصل اليه علمك ولكنه يسر اليك ويشاكيك ويقص عليك ويحاورك تارة ويحاور قلبه أخرى :

لم عدنا ؟ أو لم نطو الغرام   وفرغنا من حنين وألم

(١) الدكتور ناجى ، ديوان (وراء الغمام) ص ١١ ـ ساعة لقاء .

ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم (١)

ويسترسل :

أيها الوكر اذا طار الأليف لا يرى الآخر معنى للسماء
ويرى الأيام صفرا كالخريف نائحات كرياح الصحراء (٢)

ومن قصيدته (ساعة لقاء) :

كيف يفنى ما كتبناه بنار وخططناه بسهد ودموع
يشهد الليل عليه والنهار والشهيد المتوارى فى الضلوع (٣)

كناية لطيفة هى احدى طرائف ناجى فى فنه ...

ويحاور حبيبه فى شاعرية توهم بالذم ، وهى تمدح أغلى المدح وأزكاه :

أغر حسنك أن الخلد جدوله وأنه من غريب السحر منبعه
هيهات يخلد حسن لا يؤلهه شعر من النسق الأعلى ويرفعه
كم بت منتبها أصغى لخطوته أراه فى الوهم أحيانا وأسمعه
كأنك النسم النشوان منطلقا أظل كالنفس الحيران أتبعه

وشعر ناجى كثير الهمس .. حتى فى وحدة الشاعر :

ياوحدتى جئت كى أنسى وهأنذا ما زلت أسمع أصداء وأصواتا
مهما تصاممت عنها فهى هاتفة يا أيها الهارب المسكين هيهاتا
جرت على الأمانى من مجاهلها وجمعت ذكرا قد كن أشتاتا
ماأسخف الوحدة الكبرى وأضيعها اذا الهواتف قد أرجعن ما فاتا (٤)

وشعره متوثب دائما لا يقر له قرار ولو ريع بالموت :

عجبا لقلب هيض منك جناحه وجرى به نصل الندامة يذبح
ومضى الحمام يدب فيه فان جرت ذكراك طار اليك وهو مجنح
لهفى على الناقوس بين جوانحى وعلى بقية هيكل لا تصلح
لا فرق بين أنينه ورنينه وصداه فى وادى المنية أوضح (٥)

(٢،١) ديوان الدكتور ناجى ، وراء الغمام . العودة ص ١٨ .
(٣) « « « ساعة لقاء ص ١٣ .
(٤) ديوان الدكتور ناجى . وراء الغمام . قصيدة أصوات الوحدة ص ١٨٨ .
(٥) « « « « « الختام ص ١٩٠ .

وفي شعر ناجي اذا رضي خفة وانطلاق ؛ ألا تحس رفرفته ورقرقته وهو يقول :

من أنت ؟ لا أدرى ولا من أنا　　فيا اله الحب ماذا اسمنا
انا حبيبان وذا حبنا　　انا وليدان وهذا وليد (١)

....

ويتصل بهذا الفصل طريقة ناجي في صوغ شعره فقد كان يسح بالشعر ، فهو يفيض به بينه وبين نفسه في مجلسه وفي المنتدى وفي خلوته وبين الجلوس .. وكان اذا هطل عليه منه هاطل هم بتسجيله لساعته .. على أى شيء يقع له .. وريقة .. بطاقة .. وبين يدى الآن بطاقة تحمل اسمه وتحمل في الوقت نفسه شعره طولا وعرضا فلم يترك بها فراغا غير منغوم حتى لتخال اسمه ــ المطبوع في وسط هذا الزحام من شعره المخطوط ــ معنى من المعانى رف على البطاقة مع سرب الاشعار ..

وعندما عرض الأستاذ مصطفى سويف لقصائد بعض الشعراء بالتحليل كتب عن هذه الظاهرة أنها تدل (على حقيقة هامة ، مؤداها أن الشاعر كان يعانى من ضغط شديد فى نفسه) ، وأنه كتب هذا الجزء تحت وطأة هذا الضغط . لم يكتبه على ورقة تدل على استعداد المكان الذى كان يكتب فيه ولا استعداده هو نفسه للكتابة ذلك الاستعداد الذى يقوم على نوع من التنظيم والاعداد من قبل ..) (٢) .

كما كتب في موضع آخر مفسرا ما يقوله بعض الشعراء في استخباراتهم ومذكراتهم من أنهم يواجهون فى لحظات الابداع مشكلة المسارعة الى كتابة ما يشرق فى أذهانهم ولا يكادون يتابعونه (٣) .. وهنا استشهد بقول ساشفرل سيتول « تلك هى المباهج التى لا تطرأ على الكاتب فى حياته الأدبية الا نادرات . عندما تتوالى على ذهنه الصور العقلية ، كما كانت تتولد من سن القلم وهو يكتب ، بل ان القلم فى بعض الاحيان يكون ابطأ من أن يلاحقها تسجيلا .. » (٤) .

وبين يدى من مخلفاته صفحة (مسودة) فى صدرها عنوان (عامان) وهو يدل على وضوح الغرض من القصيد فى ذهنه . وبعد العنوان هذان البيتان :

---

(١) ديوان الدكتور ناجى ، (ليالى القاهرة) ــ قصيدة من ن الى ع ص ١١٣ .
(٢) كتاب (الأسس النفسية للابداع الفنى) للأستاذ مصطفى سويف ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

عام مضى وأخـــوه فى الأثـر مرا كمثل اللمــع بالبصر !
يتهاديان بمسبح العمـــــر كالزورقين بليلة السمر !

ثم يلي هذا خط فاصل بينهما وبين ما يليهما . فهما يمثلان وثبة متكاملة ، ولفظة يتهاديان كانت أصلها (يتهادين) ، ويبدو أن عقله فى فورة العاطفة نبهه الى النحو ، فكتب فوق (ين) من يتهادين (يان) لتصير يتهاديان .

ثم يلى هذا بيتان آخران أولهما ناقص ، أو كما يقول الأستاذ سويف (فى طور التجريب) ..

أما الثانى فمكتمل :

أبصرتها فى صفحة الماء ..

مسحت أســـاى وأبرأت دائى رؤيا الحقيقة غـير شوهـــاء

ثم خط فاصل ..

ويلى هذان بيتان . أما أولهما فهو :

أدركتهـــا فكرا وتحليقـــا شارفتهـــا حلمـــا وتحقيقـا

أما الثانى فقد استهله بقوله :

أدركتها مندفعا ، بالآلية اللفظية .. ثم ادركته تهويمه شعرية فرسم البيت على هذ الصورة :

أدركتهـــــــا وغنمتها عطرا وموســـيقى !

ثم يلى هذا خط فاصل يعقبه هذا البيت :

عينى وعينك حينما التقتا روحى وروحك حينما صـــفتا

وفى المسودة (حينما صفتا) فى الشطر الاول ثم شطب لفظة صفتا وكتب فوقها (التقتا) ..

أرأيت ألفاظه وهى متواكبة ، بل انها فى سباق تتدافع فيسبق لفظ القافية لفظ المصراع الأول ؟ .

وفى الورقة غير هذا ألفاظ متناثرة ، ولكنها متبلورة تبشر بمعان أكبر تلوح فى أفق الشاعر ولكنها لم تظهر بتمامها مثل :

وتزاحمى فى حيك النسم :

وغريمي الأضواء

وغريمي الأنظار تنتهب وخصمي ! تلتهب

ويؤيد حالة الغموض الشطب والتغيير البادى فى لفظتى عليـــك ، وتزاحمي الأضواء ، فأبدلت (فى حيك) بالأضواء ٠

لقد كان ناجى شاعرا موعودا، تخايله أطياف المعانى فيختلج ويختلج القلم فى يده معه ، وتباكرها صــــورها فيرف رفيف الخزامى بات طل يجودها ٠٠

وبعد : فهذا تسجيل وتحليل لفن ناجى الشعرى ، هو على توسعه لم يحط بكل ما يمكن أن يقال فى شعر الشاعر ، ولكنه خطـــوط كبيرة حاولت قدر المستطاع أن تظهر محامده دون أن تغفل فى هذا الشعر هنات قلما يسلم منها انسان فنان ، اذا استثنينا الذين لا يعملون ٠٠ فهـؤلاء السادة وحدهم هم الذين لا يخطئون ٠٠

الفنان فى ناجى الشاعر

لعل الكتابة عن الفنان ناجى الشاعر أسهل الموضوعات على الكاتب لأنه هنا يستقى من معين ثر الجوانب ٠٠ ففى ناجى من الفنان غزارة الشعور والصدق ، وتجنيح الخيال ورهافة الحس ، وهى مقومات الخلق فى العمل الفنى ٠٠

وفى ناجى من الفنان حبه للخير وهيامه بالجمال ٠٠ الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الانسان ٠٠ وفيه من الفنان عطفته على القبح واستقطاره للجمال من ينابيع خفية فيه ٠٠

وفى ناجى من الفنان عبادته للفن ومغالاته به واعزازه له ٠٠ وفيه منه تواضعه واسرافه وطربه للنكتة وابتداعه لها وحبه للحياة ٠٠ وأخيرا فيه من الفنان الأصيل شخصيته ذات الطابع الغلاب الذى يترك أثره فى فنه وفى متذوقه معا ٠

أما غزارة الشعور والصدق فيه فيتجلى فى غنائه الذى لا يمل بالعاطفة ٠٠ العاطفة بمعناها الواسع الذى يتصل بالحياة والاحياء ٠٠ وقد كان ناجى فنانا أصيلا يستوحى قلبه ويستلهم عاطفته ويفهم الشعر على أنه عاطفة لا أكثر ، ويأسى (لأن فى مصر مدرسة جليلة الأثر يقودها زعماء لهم خطرهم يقولون بعكس ذلك) ويقص فى هذا الصدد قصة بيير ميل الذى (ذهب ليزور اناتول فرانس فوجده قد وضع كتابا على ركبتيه وظهرت عليه هيئة الطفل المذنب النادم ، فسأله : ماذا بك يا أستاذ ؟ فأجاب : هذا كتاب بيير لوتى عنوانه (الصحراء) كله وصف للرمل والضوء ، والضوء والرمل ٠ ليس به فكرة واحدة ، ومع ذلك فهو

آية من آيات الأدب الخالدة ، انى حزين لأنى أضعت حياتى أعتقـــد أن الأدب يجب أن يعتمد على الأفكار أولا ، فالآن يتضح لى عكس ما كنت أعتقد ٠٠) (١)

ولعل مما يرضى الشاعر هنا ما وصفه به ابراهيم المصرى حين قال عنه ، (وهو لا يفكر أولا ثم يحس ٠ بل يحس بجميع حواسه وأعصابه ثم يرسم ويحلل ويتغنى ، ومن خلال أغانيه تلمح فكره كعنصر مكمل لعاطفته منطلق من صميم وجدانه ٠٠

واذن فعاطفته لا تنحدر من فكره كمعظم شعراء هذا العصر المثقفين، بل هو فكره الذى ينبع من عاطفته ، لأنه شاعر قبل كل شيء ، بالعاطفة يعيش ، ومن العاطفة يستلهم ، وفى سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب فى مناكب القاهرة ليلا ، ويغشى أنديتها وملاهيها ويفرح ويهلل ويضحك ويبكى !) (٢) ٠

فان هذا بعينه يتساوق مع رأى شاعرنا فى الفنان ويلتقى ٠

ويضرب ناجى مثالا آخر فى العمل الفنى يدل على أن الفنان يجب ان يفكر بالقلب فيسوق تعريف الشاعر عن الشاعر دنساناى :

(رجل يرى جلال العالم فى لمحة واحدة ، ويرى الجمال فى كل نواحيه ، ويطعنه القبح كخنجر ٠ يأبى أن يرى الظلم يقع على الآخرين كأنه يقع على نفسه ، رجل يعرف العالم بأجمعه كما يعرف الآخرون الفرد بالتفصيل ويعرف الزهور كعلماء النبات ، رجل يظن مجنونا ، بينما هو فى الحقيقة رجل يسمع صوت الله من حين لحين) (٣) ٠

وآية الصدق فى شعر ناجى أنه كان فى جملته من نفسه واليها ، فقد غنى عواطفه هو ، وبكى آلامه هو ، والفن أصدق مايكون اذا ما حكى عن النفس بالسليقة دون تعمل من الفنان ٠٠

وفى شعر ناجى غير عواطفه وآلامه تماس واع للحياة والأحياء ، وهو فى انفعالاته صادق يعبر عما يحسه ويتصور ما يراه ، فان خالف الواقع المادى فى هذه الصورة أو تلك من صوره الشعرية فذلك من املاء عاطفته عليه ، عاطفته هى التى تكيف احساساته وتلون مرائيه ٠٠٠ يقول رودان (اننى لا أغير الطبيعة أبدا ٠٠ اننى أرصدها كمـا أراها ،

---

(١) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) فى مجلة الفن ٠

(٢) كتاب (صوت الجيل) للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤٠ ٠

(٣) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) ٠

واذا كان يبدو للبعض أني غيرتها فذلك يكون قد تم في لحظة لم أدرك فيها أنني أغيرها فعلا ‥ وبعبارة أشد وضوحا ان العاطفة تؤثر في وجهة نظرى ، هى التى تغير الطبيعة كما تبدو لسائر القوم ، لأن عاطفتـــك تكشف لك الحقائق الباطنية الكامنة وراء المظاهر . ولكن يبقى بعد ذلك المبدأ الرئيسى للفن ، وهو أن تنسخ ما تشهد وأى منهج آخر مآله الى الفشل حتما ‥ وليس على الفنان أن يجمل الطبيعة فانه لن ينشىء عملا فنيا ‥ لأنه ينظر Regarde دون أن يرى Voir (١) .

وهكذا كان ناجى يرى وينفعل ، ويعبر عما رآه ، ويسجل انفعاله به فى بساطة الفن الأصيل الذى ينبع من نفس سهلة وفطرة ســمحة مواتية ‥

وخيال ناجى المجنح دليله تلك الصـــور الكثيرة المعروضـــة فى ديوانه ‥

ويتصل بغزارة الشعور رهافة الحس ، وناجى شاعر مرفرف كأنه يهفو بجناحين ‥

وشاعرنا كبير النفس واسع المروءة ‥ كم آسى من جراح وكم بذل من معروف ‥ لم ترض رحمته بالطب لمرضـــاه فحسب ، بـــل تكلفت بتقديم الدواء للعاجز ، وكان يعود الفقـــراء منهم فى بيـــوتهم متطوعا ‥ لقد كان رجلا ، وكان نبيلا وكان عطوفا رحيما .

وعندما استأثرت رحمة الله بالطبيب الآسى غلب على رثاء الراثين حديث رحمته حتى كادت تنتظم منها ملحمة رفيعة ، فشعره حنان وطبه شعر ، وهذه دمعة واحدة من الدموع التى أريقت عليه لا تدرى معها أيهما أحق بالبكاء : الفنان ‥ أم الانسان ؟

(كذلك كان صاحبى « ابراهيم » ما ترك من حياتنا وجها الا مسح بيد الشاعر عليه ، ولا موضعا الا رف بجناحيه لديه ، ولا مروءة الا بادر اليها متوثبا ، ولا مكرمة الا استبق اليها ، صداحا طروبا ، ولا خيرا الا كان لندائه فى مطالع المستجيبين ‥

لقد جعل الطب أيضا شعرا ، وذهب فيه مذهبا مبتكرا ، اذ أدخل عليه الرفق ، فجعله صناعة حنان ، وانكمش فى دراسته ، ليجمع فيه بين المهنة والفن ، حتى لتزحم دار علاجه بأهل الفاقة والحرمان ، وهو

---

(١) النص منقول عن كتاب الأسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ سويف ص ٢٧٧

المتهلل لهم . لا يسألهم أجرا ، بل قد يشترى لهم الدواء ، ويذهب يبحث عن الغائبين منهم والمدنفين ..

كان ابراهيم ناجي طبيبا رحيما ، لا يأبه بالمال ، ولا يحفل بمركز العليل بل يؤثر الفقراء على أصحاب اليسار ، لأنه يجد فى علاج المساكين (انسانيته) الكريمة ملتقية مع آدميته النبيلة ، كشاعر بديع ، ملهم الخاطر ، رقيق الوجدان ..) (١)

ليس هذا القول من فعل الموت ولهفته ، وليس هذا من تعلق النفس بالممنوع ، وتشبثها بالمسلوب الذى لا أمل لها فى استخلاصه ، وليس هذا من حنين الحى الى الميت .. ليس هذا من فعل الموت الذى يضرم حب الميت فى قلوب الأحياء وكأنه ولد فجأة ودفعة واحدة .. ولكنها صفات الرجل ترفع من ذكراه بعد وفاته ، كما كانت تعلى من قدره فى الحياة .

انها صفات الرجل التى وصفه بها راثوه ، فلم يزيدوا شيئا عما قاله فيه ابراهيم المصرى قبلهم منذ عشرين عاما ، حين كتب عن ناجى الشاعر يقول والعجب عليه باد :

« للدكتور ابراهيم ناجى (٢) شخصية غريبة تستهوى كل من اتصل بها . شخصية شاعر قلق يحيط بها ويغمرها السر الذى قذف بها الى هذا العالم والذى لا تنفك تتساءل عنه ، وتتطلع اليه ، مبهوتة مما ترى حولها من ألم وجمال ، شخصية خفيفة مجنحة لا تلبث أن ترف على الاشخاص والأشياء حتى تحلق فى أجواء غير منظورة أسعد ما تكون بالصمت والتأمل والصفاء » .

تلتقى بالدكتور ناجى فتشعر كأن نسيما منعشا يهب عليك . وتصافحه فكأنما هو يفتح صدره لك ، وتجلس اليه وكأنك فى حضرة روح حائر ، وتستمع لحديثه ، فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراءة نفسه وسلامة طويته وعذوبة صوته وطلاقة محياه ، فتذهل ويتضاءل شخصك فى عين نفسك ، ويعز عليك نقصك ، ولا يغريك فى النهاية الا يقينك بأن الخير الذى غادرك استقر فى سواك وتمثل نابضا حيا فى قلب هذا الشاعر النبيل الشاب !

---

(١) للاستاذ عباس حافظ .

(٢) كتاب « صوت الجيل » للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٣٨ - ١٣٩ وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ .

وتحدق اليه فترى رجلا هزيلا متوسط القامة منكمش الأعضاء ، أصلع مقدمة الرأس ، ناعس العينين مديد الذقن ، أشبه بالصورة التى نعرفها للشاعر الايطالى دانونزيو ، يمشي وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه غير موجود ، يقبع فى ركن من القهوة وغليونه فى فمه وكأن سنة من النوم قد استغرقته . ثم يتكلم بغتة ويفيض ولا يفتأ يتحرك ويتلفت ويلوح بذراعيه تلويحا عصبيا متداركا ، فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها وضيقها بما تحمل .

وتسمعه يجادل ويحتد وصوته أبدا صريح ، وجبينه أبدا منبسط والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيه ، وعينه الحالمة أصفى ما تكون محبة وعطفا ، فيخطر لك أن تداعبه بنكتة طريفة ، وسرعان ما يتبدل ويستضيء وجهه ويتألق وتشيع فيه نضارة معبودة كنضارة الأطفال ، فيأخذ فى ارسال النكتة تلو النكتة ، حاضر البديهة عبقرى الفكاهة جم الحيوية ، يضحك ضحكات حرة عريضة كأنما الفرح كله قد اجتمع فى فؤاده ، وكأنه قد نسى فى لحظة واحدة كل ما استشرفت عليه نفسه من هم الحياة ! » .

هذا جانب الخير فيه ، أما جانب الجمال فحديثه ذو فنون .. لقد هام بالحسن فى الانسان والطبيعة .. وغناؤه للناعمات الغيد قد سمعناه فى فصل (شاعر الغزل) .. فليستعده من يشاء .. أما الطبيعة ففى حضنها غالبا كانت وقفاته وملتقاه حتى ليخيل الى أن كمال هنائه فى جمعه وجه الحبيب الحسن والخضرة والماء ..

وهو يطلب بدوره التجاوب مع ما حوله ، فيتساءل :

هل يسمع النيل اذ سرنا بجانبه	والموج مجتمع فيه ومفترق
صوتا تماوج فى روحي فجاوبه	من جانب القلب موج راح يصطفق
تظل تنهب أذنى من أطايبه	كأنها من خفايا الغيب تسترق
يا جنة من جنان الله أعبدها	لن تبعدى ولدى السحر والعبق(١)

ان الغصن الصغير يستوقفه .. و .. يجذبه .. ويوحى اليه ! كيف هذا ؟

لا تسلني ، بل سله هو يقص عليك :

رأيت غصنا صغيرا	منورا ونضيرا
أرق ما تشتهى النف	س منظرا وعبيرا

(١) ديوان الدكتور ناجى . ليالى القاهرة - قصيدة المنصورة ص ١٠٨ .

جذبته جذب عنــــف قد كاد يذوى الزهورا
فلم يئن لجــــذبى وكان غصنا صــبورا
لكننى لم أدعــــه حتى عــــلا مسرورا
وارتد يضرب وجهــى ضربا عنيفــا مثيرا
وعاد ينشر فى الأيــك ذا الحــديث المثيرا
تضاحك الأيك جــذ لان شــامتا مســرورا
ضحك الذى بعد صبر قد فاز فوزا أخيرا (١)

هذه احدى قصصه مع الطبيعة فيها اشتهاء المنظر واسترواح العبير ، وفيها المعابثة ، وفيها المساجلة وفيها التأمل والاندماج ، وأخيرا فيها الرمز، كل هذا فى بساطة ينبل بها الفن لأنها بساطة الأستاذية المبدعة ..

وناجى يعرف كيف يتحد بالطبيعة . ومن مخطوطاته هذه الصورة من صور امتزاجه بها :

قاسمتنى الورقاء أحزان قلبى وشجاه ، وغردت حين غــرد
ثم ولت ، والقلب كالوتر الدامى يتيم الدموع واللحن مفــرد
ما بقائى ! أرى اطراد فنائى وانتهائى فى صورة تتجــدد

وهذا الشاعر المولع بالجمال فى الطبيعة والانسان صدمه مــرة كاتب بمقال عنوانه (شعراء الجمال محرومون من الجمال) وسـلكه بينهم ..

فرد عليه متسائلا : على أى صورة تفهم الجمال؟ ثم انبرى فى الدفاع عن الشعراء الذين لم يشأ حظهم أن يروا كاتب المقال ، ثم انتهى بنفســه مخاطبا الكاتب فى سخرية قائلا (.. الصحيح أنك لم ترنى أبدا ، ولــم تقرأ لى أبدا . فلماذا لا تزورنى لفنجان قهوة .. لعلى أعلمك وأقول لك ما هو الجمال !!

الجمال أيها المحرر العزيز فكرة ومعنى ، وحركة وحياة ، واشراق ولمعان .. وليست الوحاشة فى أنف كبير ولا فى خلقة (زرايبى) ولا فى شفة غليظة ولا فى نظارة سميكة ولا فى قوام « متداع » .

الجمال أيها المحرر العزيز هو ذلك الشىء المبهم الذى يطالعك مــن عينين ، ولو ذابلتين ، فينتزع اعجابك وأنت لا تدرى بالضبط لماذا .. ؟

---

(١) ديوان الدكتور ناجى . ليالى القاهرة ـ قصيدة غصن صغير ص ١٩٨ .

اجلس مع أى من هؤلاء الوحشين ، وتحدث الى أى أحد منهم وأنت تعلم معنى الجمال ٠٠ جمال النفس ٠٠) ٠

وليس الجمال وحده هو الذى يستهويه فان الأديب عنده هو الذى يعلمنا أن نحب الحياة (ورسالة الأديب تجعلنا نؤمن بجمال الوجود وبأنه ما من شىء الا وله قيمة ، وأن القبح الظاهر قد يستر جمالا بارعا ، ان فى الشر صورة قد تكون أروع من الخير ٠ وبعبارة أخرى أن الأديب الحق هو الذى « يرى » والذى يستطيع بدوره أن يجعلنا « نرى » ونحس ونلمس ونؤمن ٠٠) (١) ٠

ها هو ذا ناجى فى رحابة قلب الفنان يشفق على كل شىء ويترفق فى الاتصال بالأشياء والناس ، ويسكب الفن سلامه ونوره فى نفسه فيلمح الجانب المضىء كما يدرك بنفاذة الجانب المظلم من كل شىء ٠ ويغفر هذا من أجل ذاك ٠٠ كان يرى لكل شىء جانبين فاذا أخذ على المتنبى تصويره الدنيا كمعركة دامية لا أثر للرحمة فيها ولا للانسانية ولا للخير ، اردف قائلا فى عزاء (ولكن لا بأس ، لنعلم أولادنا القوة والبأس والاعتداد بالنفس ، ولنتركهم للحياة بعد ذلك فسيرون فيها الخير والشر جارين ، والطيب والخبيث شيئين ضروريين متلازمين ، وفى رأيى أن الشعور بالقوة هو الذى يولد الرحمة ، لأن الضعف يولد الحقد والثورة الكامنة) (٢) ٠

وناجى الذى يحب الخير ويعشق الجمال ويدين بالرحمة ، يغالى بفنه على البخس وهو المستهين بالمال ، السخى به ٠٠ دعته محطة الاذاعة المصرية ليسجل ملحمته المعروفة « الاطلال » فأرسل اليها نسخة منها ٠٠ وقد سجلها مديرها فى ذلك الحين فى شريط استغرق نصف ساعة ٠٠ وأذاعتها مرارا ٠٠ كل هذا دون أن يفاتحها ناجى فى القيمة المادية لتسجيل الملحمة ٠٠ واذا بالاذاعة تعرض عليه ٠٠ مائة وخمسين قرشا ٠٠ أتدرى ما الذى فعله ناجى ؟ لقد غضب الفنان لفنه الذى صاغه من قلبه وروحه ثم ارتخصته محطة الاذاعة ٠٠ لقد ذهب ناجى الى مدير الاذاعة وقال : ان هذا ثمن تغريدك ، لا ثمن شعرى أنا (٣) ٠

كان هذا آخر عهده بالاذاعة ٠٠

على أنه لا يعنيه التقدير الحكومى ، وتسأله عن السر فيقول :

---

(١) من مقال « أدب السخط وادب الدموع) فى مجلة الفن ٠

(٢) من مقال « معنى الشعر » فى مجلة الفن ٠

(٣) من مقال « دردشة أدبية » فى الجمهور المصرى ٠

(اني مؤمن بهذا الشعب ، وقد كنت أعتب على صديقى الدكتور زكى أبو شادى ضجره بالحياة فى مصر ، فقد تخطته الحكومة فى الترقية مرارا حتى مل الانكار وهاجر الى أمريكا . كنت أعتب عليه هذا الملل وأقول له ان لدينا رسالة نؤديها للشعب وعلينا أن نؤديها مهما لقينا فى سبيلها . أما هو فهاجر يائسا ، وأما أنا فقد كانت تعترينى فكرة الهجرة من حين لحين ، فاذكر نفسى بما قلته لأبى شادى ، وهو أننى أحمل قلما أؤدى به رسالة لبنى قومى) (١) .

ان (ناجى) يكبر الفن هذا الاكبار ، لأنه يحبه غاية الحب ، هل تصدق أنه كان يتداوي بالفن ! يتداوى به حقيقة لا مجازا .. وكيف ؟ سأترك له الجواب .. (مرت الأيام ، وتقدمت بي السن ، واعترتنى أمراض وأزمات فأخذت أتداوى بقراءة أغانى شاكسبير .. وهذه الأغانى لا يعرفها الا القليلون لعمقها وصعوبتها ..

وكان تسليتى أن أقرأ وأترجم ، ولم اكد افرغ منها حتى برئت من مرضى جسما ونفسا ، وعدت الى شبابى ولازلت محتفظا به وبأغانى صديقى شاكسبير !) (٢) .

وفي ناجي من الفنان روح الفكاهة ، فهو يطرب للنكتة ويعرف كيف يخلقها .. وهو يرى النكتة فنا ، ويستشهد على فنيتها برأى ذلك الفريق من علماء النفس الذين أكدوا أنها فن . اذ (الفن طاقة حيوية فائضة ، لا تتيسر الا للذين وهبهم الله من الحيوية معينا طيبا لا تستنفده شواغل الحياة العادية ، ولا تبتلعه الدنيا بمتاعبها المألوفة ، وهم يستدلون على ذلك بأن النكتة الصافية كالفن العالى ، لا توجد الا عند الأذكياء ! ..

هو يعقب على هذا الرأى متسائلا : ولكن ما الذكاء ؟ لا شك انه ضرب من البريق اللماح . انه استخلاص لنتيجة ، وادراك لمخرج ، أو ملاحظة لما يفوت الكثيرين ، أو حدة فى الذاكرة ، ونحن نسميه تجوزا بسرعة البديهة ، ولو أن سرعة البديهة ضرورة لكل فنان أصيل ، ولكل رجل عبقرى ، وهل النكتة البارعة الا نوع من الخلق والابتكار ؟ فهى اذن فن ، لأنها وليدة الذكاء ؟ .. ولا يعرف فنان أصيل الا وله باع فى النكتة) (٣) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) من مقال للدكتور ناجي بعنوان (كتب أثرت فى حياتى) ... الجمهور المصري ١٩٥٣/٢/١٦ .

(٣) من مقال « فن النكتة » في مجلة الاثنين .

ومن طرائف ناجى تلك القصة التى يرويها : (اشترى العمارة التى أسكنها بقال ثرى ، ثم شاء أن يسكن شقة فيها ، فأنذرنى بالاخـــلاء ورفضت بالطبع ، فسارت القضية الى المحكمة وهناك تبين أن صاحب العمارة سيسكنها هو وأولاده ، وأن بناته على وشك الزواج ، فشرد ذهنى، والتفت فجأة أسأل القاضى :

أريد أن أعرف أولا ، لماذا اختارنى وحدى دون ســـــكان العمارة جميعا ؟ . ولم يكن محامى البقال قد أعد ردا لهذا السؤال الذى فوجىء به فالتجأ الى اختراع سبب ..

(وهنا دماثة فى الوصف اذ المراد (اختلق) فخففت ولطفت حتى صارت اختراع) ــ حين قال :

ــ الدكتور غنى .. ومالك عمارة فى شبرا .

فسألنى القاضى .

ــ هل أنا حقا أملك عمارة ؟

فقلت على الفور :

ــ عمارة ايه بس .. هو أنا حتى « مالك » أعصابى ؟

فضحك القاضى ، وضحك جميع الحاضرين ، وكان الحكم بعد ذلك فى صالحى .. (١)

....

حدث أن زار ناجى الطبيب مريضا من المعذبين فى الارض ولمـــا فحصه وقف على السر الرهيب .. ان العلة لم تكن سوى الجوع ! وأحنى الطبيب رأسه ثم رفعها ليطمئن مريضه . وأقبلت زوجة الرجل تسأل (الحكيم) عما به فطمأنها ثم أسرت يده الى يدها خمسين قرشا وطلب اليها أن تشترى له بها دجاجة ولحما وتطعمه ثم انصرف .

وجرت الأيام فى سيرها فاذا بناجى الشاعر يرى نفسه مصادفة أمام زوجة الرجل فى بعض الطريق .. فتذكر وسألها عنه وعما فعلتــه وهل أطعمته الدجاج كما وصف لها ؟ فقالت على الفور :

(لا أنا اديت الفلوس لحكيم بيفهم علشان يكشف عليه)

---

(١) من مقال فن النكتة فى مجلة الاثنين .

كان ناجى يروى هذه الطرفة فى مجالسه متفكها ويعقبها بضحكة طويلة مستغرقة فيها من سخرية العارف ، وألم الأسوان أضعاف ما فيها من سرور المتندر الخلى ٠٠

وناجى ضحوك طروب ٠٠ ولا يتنافى هذا مع شعره الحزين الكابى فان أسرع الناس استجابة لأسباب الضحك عند الحاجة أعظمهم احساسا بالألم ٠٠ وقد كان شعره صورة من نفسه ، ونفسه طالما عصرها الألم ٠٠ أما النكتة فهى تنفيس عن ذلك الألم من نوع آخر ، تنفيس ضاحك حين كان الشعر تنفيسا باكيا ٠٠ وقد رأينا طرفا من دعاباته عند عرضنا لشعره ، دعاباته التى نال بها آخرين ٠٠ وهاك دعابة ، ولكنها تدور حول نفسه وتمثل روح الفكاهة عنده ٠٠ (كل من رآنى من اخوانى يقول لى أنت طفل كبير ٠٠ وسنحت الفرصة لأستغل هذه الهيئة ، فتقدمت لمسابقة الطفولة ولكنى للاسف منعت من الاشتراك بحجة أننى طفل عجوز ، مع أن لدى من الأدلة ما يثبت أنى طفل ويجوز لى أن أتطفل على الطفولة ٠٠ فأنا أبدل أسنانى الآن ، ووصف لى الأطباء الاكثار من شرب اللبن والفيتامين المركز الذى يوصف للاطفال للين العظام ٠٠ وليس لى شعر ، وقد أخذ ينبت أخيرا ، وألبس مريلة فى العيادة ، وأستطيع أن أضحك فى أعصب الأوقات ، وأنا شاعر والشاعر دائما طفل كبير ٠٠ فطمت من كل شىء الا من صفتى الطبيعية ، وأطير من نفخة ، وتقلبنى الريح رأسا على عقب اذا اشتدت قليلا ، فبناء عليه أطالب (الاثنين) بأن تشركنى فى مسابقة الطفولة ، وسواء اعتبرت طفلا أو متطفلا) (١) ٠

لشد ما تذكرنى هذه القطعة بأسلوبها وروحها وسخريتها بالمغفور له الأستاذ المازنى ٠

٠ ٠ ٠ ٠

ومن نوادر الفنان فى ناجى الشاعر هذه القصة فاسمع اليه ٠

كنت فى امتحان البكالوريا أحفظ (هملت) كلها وأمثلها كأنى على مسرحه ٠٠ فلما جاء دورى فى الامتحان الشفهى سألنى الممتحن البريطانى كما يسأل الطلبة ، ماذا تحفظ ؟ فقلت (هملت) قال : أسمعنى ٠ فنهضت واقفا وأخذت ألقى وأمثل ٠٠ ونسيت نفسى ونسى الممتحن نفسه ووقته ، حتى أفاق فنظر فى ساعته فاذا به قد استمع الى ساعة كاملة بينما الناس فى الخارج يتساءلون عن سر هذا الامتحان الطويل لطالب واحد ٠

---

(١) من مقال لناجى فى مجلة الاثنين بعنوان (طفل متطفل) ٠

وأخيرا نظر الى وقال : « هل جئت تمتحن في البكالوريا .. اذهب بارك الله فيك » (١) .

....

وهو فنان طالبا فى الطب .. وكيف ؟ .. عنده لا عندى الجواب :
(أخذت أدرس الطب على طريقة فنية ، فقد كنت أبتدع لرفاقى الصور ، واخترع لهم من فنون الكتابة ما يعينهم على الحفظ . وظللت كذلك الى الساعة التى أكتب فيها هذا ، أزاول الطب كأنه فن . وأكتب الأدب كأنه علم ، أى أراعى فيه المنطق والتحديد والوضوح) (٢) .

وفى ناجى من الفنان تواضعه واسرافه وليس التواضع والاسراف بصفتين موجبتين فى الفنان فقد يكون على النقيض : اذ الفنان كشخص غير عادى لا يعرف الوسط الشائع بين الناس فهو فى صفاته اما فى هذا الطرف أو ذاك ..

وتواضع ناجى دليله أنه كان طبيبا وكان شاعرا وهما صفتان نابغتان ، ولكنهما لم تحفزاه الى الفخر والتعالى بل كان لين الجانب رقيق الحاشية .. فلم يفتخر على عادة الشعراء .. ولم يحرز بطبه المال على كثرة مرضاه لأنهم لم يكونوا فى عينيه يوما وسيلة للكسب ، بل مجلى للرحمة والانسانية والفنية فيه ..

وفى ناجى من الفنان شخصيته التى تمهر العمل الفنى بامضاء غير منظور . وأحسب أن لست فى حاجة الى من يدلك على القائل اذا سمعت هذه الأبيات :

انى على يأس وكأسى كابى ... وعلى سرابى عاكف وشرابى (٣)
ولقد فرغت من التعلل بالمنى ... الا وميضا فى الرماد الخابى
رمقا يعللنى بأنك عائد ... يوما لقلبى قبل يوم ذهابى (٤)
حتى اذا الأقدار شئن وعدت لى ... راجعت نفسى واتهمت صوابى
أأرى شروقك فى أفول مغاربى ... وأشم عطرك فى ذيول شبابى

---

(١) من مقال « كتب أثرت فى حياتى » الجمهور المصرى ١٦/٢/١٩٥٣ .
(٢) من مقال « الأدب فى سيرجاله » للدكتور ناجى .
(٣) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » يأس على كأس ص ٥٩ .
(٤) يجوز أن يروى هذا البيت :
رمق يعللنى بانك عائد ... يوما لقلبى قبل يوم ذهابى
على سبيل الالتفات ولعل هذا أحسن وقعا فى النفس .. ولكن لنترع للشاعر بيته يتحكم فيه ذوقه وحده .

انه ناجى بلا مراء ·· ناجى بيأسه وكأسه وسرابه وأمله وشكه وحذره · انه ناجى وهذه ألفاظه واللحن من موسيقاه ·

ويعرف ناجى « الانتاج الفنى » بأنه (ولادة وأن الفنان الصحيح يعانى فى سبيل فنه ما تعانى الأم حتى تضع مولودها ، وما يسبق ذلك المولود هو نفس ما يحدث للفنان حين يهبط عليه الوحى فتملؤه الفكرة ولا تزال تطارده حتى تندمج فيه ، وما تزال تلح عليه حتى يخلص منها ما نسميه العمل الفنى) (١) ·

ويذكرنى هذا التعريف بقول المغفور له الأستاذ المازنى (·· ليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين ، وبين حركة التوليد فى النفس · وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها ، ولا ينازعها فى ذلك الوقت شوق اليه أو تحس فرحا به ، وانما يكون احساسها بالفرح بعد الضيق الذى كانت فيه ، والكرب الذى كانت تعانيه ، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب ، والتفتير الذى يورثها اياه ما تجشمت ، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس والفكر) (٢) ·

والرجلان صادقان فيما ذهبا اليه ·· ان كلا منهما يصف تجربة عاناها ويعانيها كل فنان أصيل ·

وبعد ·· فقد عاش ناجى حياته فنانا ، أحرى بالواصفين أن يقولوا فيه ما قاله هو فى الحكيم (قضى زهرة الحياة يغترف من معين السماء ، ويقتبس من النجوم ، يريد أن يرفع أهل الأرض الى تلك العوالم المضيئة المتألقة العالية ··) (٣)

سألوه عن شبابه فبرقت عينه وهو يتمتم ·· (ظفرت بالجمال ، وعبدت الفن ، ونعمت بالموسيقى ، ولعبت بالمال ، واحتملت العذاب ، وتلذذت بالكفاح) ·

الجمال والفن ، والموسيقى معابد فنان ··

واللعب بالمال طبيعة فنان ··

والعذاب والتلذذ بالكفاح ضريبة الفن ··

··· وقد أداها وأوفى غاية الوفاء ·

---

(١) (الخبر) العدد الصادر فى ١٩٤٥/٢/١ ·

(٢) العدد ٢٣٠ من مجلة الرسالة · السنة الخامسة · ص ١٩٢٥ بتاريخ ٣٧/١١/٢٩

(٣) كتاب (توفيق الحكيم) للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجى ص ٢١٦

صــور

وقبل أن نودع (ناجى) فى شعره ، بعد أن ودعناه فى الحيـــاة، يحسن بنا أن نتطلع الى هذه الصور القليلة من شعره ·· وقد رأيت أن أخصها بركن خاص حتى لا تخطئها العين العابرة فى زحام المعرض الحافل · **واليك الصور باسمائها :**

حبيبان :

هل رأى الحب سـكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنـا
ومشينا فى طريق مقمـــر تثب الفرحة فيـــه قبلنــا
وتطلعنـــا الى أنجمـــــه فتهاوين وأصـــبحن لنـــا
وضحكنا ضحك طفلين معـــا وعدونا فسبقنا ظلنـــــا (١)

صورة فيها نبض وفيها مرح ، وفيها خفة تكاد تطير ··

فـداء وولاء :

أيحرم حتى وهم حبك من رءى بمهجته فى ناره دون احجـام
وأنفق فيـــه قلبه وشـــبابه فلم يبق الا الجرح والشفق الدامى
ومن عجب أحنو على السهم غائرا ويسألنى قلبى متى يرجع الرامى (٢)

لقـــــاء :

أيها النور سلاما وخشوعا أيها المعبد صمتا وركوعــــا

---

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الوداع ص ٥٥ ·
(٢) ديوان وراء الغمام ، قصيدة مناجاة الهاجر ص ٨٨ ــ ٨٩ ·

ملكت قلبي ولبي رهبـــــة   عصفت بالقلب واللب جميعـا
رب قول كنت قد أعـــددته   لك اذ ألقاك يأبى أن يطيعـا
وحبيبي من عتـاب في فمي   قد عصاني فتفجرت دموعا (١)

مناجاة :

قربي عينك مني قـــربي   ظلليني واغمريني بصـفاها
وأريني هـدأة البحـر اذا انبسـط البحر جـلالا وتناهي
وأريني لجة السـحر التي   ضل في أعماقها الفكر وتاها
ألمـح اللؤلؤ في اغوارها   وأرى الطيبـة تطفو في سناها
وأراها تخبأ الخلد لمـن   باع دنياه وبالروح اشتراها (٢)

نداء :

وأناديك في التداني وما أطمع الا أن يستـجاب النـداء
باسمك العذب أنه أجمـل الأسماء مهما تعددت أسـماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسـها ويرمي القضـاء
وهي بين الشفاه ناي وتغـريد وطير وروضـة غنـاء
وهي في الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

تدليـل :

ماذا صـنعت بناظر لا ينثني   متطلعا متلفتـا مـسرتادا
وأنا غريب في الزحام كأنني   آمال أجفان حـرمن رقادا
ولقد ترى عيني الجموع فماترى   دنيا تموج ولا تحس عبـادا
فاذا رأيتـك كنت أنت النـاس والأعمـار والآبـاد والآمادا
وأراك كل الزهر ، كل الروض،   أنت لدى كل خميلة تتهادى (٤)

حسرية :

وعفـا القيـد عنك كفا وساقا   فاذا الأرض كلها لك دارا (٥)

---

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الغد ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق الى س ص ١٥٥ .

(٣) ديوان ليالي القاهرة ملحمة السراب ص ٩١ – ٩٢ .

(٤) ديوان ليالي القاهرة . آمال كاذبة ص ١٠٤ .

(٥) المصدر نفسه السراب في السجن ص ١٠٦ .

ذكـــرى :

يا زهرة عذراء تنشر عطرهـا وتذيع في جفن الضحى أحلامها
لاقيتها والريح تجمع شملهـا والسحب تجمع برقها وغمامها
عانقتها ظمآن أشرب راحهـا واستقطرت قلبى لتملأ جامهـا
فاذا الرياح نزعنها عن خافقـى ضممت على أنفاسه أكمامها (١)

وفـاء :

لك في خيالى روضـــة فينـانة غنى على أغصـانها شاديهـا
يحمى مغارسها ويرعى نبتهـا راع يجنبها البـلى ويقيهـا
فاذا النوى طالت على وشفنى جرحي وعاد لمهجتى يدميهـا
نسق الخيال زهورها وورودها فقطفتها وشممت عطرك فيها (٢)

---

(١) من شعره المخطوط من قصيدة بعنوان « قصة حب » .
(٢) المصدر السابق .

المراجع والمصادر

١	ــ دكتور ابراهيم ناجى	ديوان وراء الغمام
٢	ــ دكتور ابراهيم ناجى	ديوان ليالى القاهرة
٣	ــ دكتور ابراهيم ناجى	رسالة الحياة
٤	ــ دكتور ابراهيم ناجى	كيف تفهم الناس
٥	ــ دكتور ابراهيم ناجى	شعر مخطوط
٦	ــ دكتور ابراهيم ناجى والدكتور اسماعيل أدهم	توفيق الحكيم
٧	ــ دكتور طه حسين	حديث الأربعاء
٨	ــ الأستاذ مصطفى سويف	الأسس النفسية للابداع الفنى
٩	ــ الأستاذ مصطفى السحرتى	الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
١٠	ــ الأستاذ ابراهيم المصرى	صوت الجيل
١١	ــ صحف ومجلات :	الرسالة ــ أبولو ــ الفن ــ الاثنين ــ الكواكب ــ الجمهور المصرى ــ الخبر

شعب وشـــاعر

- أبو القاسم الشابي

الاهـــداء

الى الروح المضيئة التى تنير لى الطريق
باخائها وصداقتها وتجاوبها وفهمهـا
الذكى العميق لرسالة الأدب ، ودور
الأديب .. الى « طاهر زوجى

أهدى هذا الكتاب »

نعمات أحمد فؤاد

مقدمة

الشابى ·· الشابى ·· ردد العالم العربى هذا الاسم كثيرا فى الفترة الأخيرة قبيل ظهور ديوانه « أغانى الحياة » ، فى اهتمام ظاهر وتقدير ملحوظ · ومن قبل العالم العربى احتضنت مصر الشابى واذاعت شعره فى مجلتها (أبوللو) (١) ·· ثم صمت البلبل وبعد عهد الاسماع به حتى كادت تنساه واذا بالشاعر الذى تألم طويلا من الجحود تقف الأقلام على دراسته فجأة وتجول العين الدارسة والقارئة معا فى نواحى شعره جولات تستأنى وتسرع وتنصف ، أو يميل بها الميزان أحيانا ولكن الحركة بمظاهرها المختلفة ، التفاتة كانت واجبة منذ بعيد واحياء لا شك فيه ·· غير أنك لو جمعت ما كتبه الكاتبون عن الشابى على اختلاف بينهم فى الرأى والهوى وحاولت أن تجمع منه دراسة منسقة متكاملة تنهض مرجعا عنه أو حتى ترسم صورة متماثلة له ، لما ظفرت بطلبتك على الجهد والصبر وصدق الرغبة فى التوفيق ··

ان الكرام الكاتبين الذين أقبلوا على الشابى بالدرس أو التعليق واجهتهم صعوبة ليست بالقليلة أو الصغيرة الشأن فقد عرضوا لشاعر أشعاره متفرقة هنا وهناك ، وآثاره فيها المطمور والبدد · وما كان لشاعر أو صاحب أثر فنى أن يدرس دراسة كاملة أو متكاملة على الأقل ، ما لم تجتمع الخيوط كلها فى يد الدارس تجمعا يواتى معه العرض ؛ وتتوافر

---

(١) يقول أبو شادى من دراسة له عن الشابى (ان لأبى القاسم الشابى روائع كثيرة ظفرت « جمعية أبوللو » ومجلتها التى عنيت قبل سواها بابراز فنه ، ظفرت بالقسط الأوفر منها) ·

كتاب (رائد الشعر الحديث) ص ٧١ محمد عبد المنعم خفاجة ·

معه أسباب المقارنة ؛ ويتهيأ به الترسل والانتقال ؛ ويتبلور في ظله الرأى ويتضح المنهج .. وأحسست أن ظهور ديوان الشاعر « أغاني الحياة » يعين على هذا أو أكثره ومن ثم لم تكن الدراسات التي سبقت عن الشابي - على جهد أصحابها - قد بلغت بالموضوع حد الاشباع الذي يصرف الدارس الجديد الى غرض آخر ، فما زال في الحديث عن شاعر الخضراء بقية عريضة يتشاجن معها الحديث ويطرف ، وهو ما أحاول مخلصة وخالصة أن أسهم به في دراسة شعرنا الحديث في ولاء وطموح يشعله اعتزاز الحي بنفسه ، ويضرمه احساس عارم بوعي القومية العربية الجديدة التي تتلمس كل سبيل الى التطور والتجدد والبعث وتتعلق بكل أمل في النجاة .

***

والدراسة التي بين يديك تعتمد في الاستقراء والبحث على ديوان « أغاني الحياة » باعتباره الأثر الوحيد الوافر له ، وباعتباره أهم انتاجه وباعتباره - وهو الأهم عندي - السجل الجامع لصيحات الوطنية في شعره .. لست أدري لم أحس أني موكلة بمثل هذه الخفقات أتتبعها بل أتلمسها تلمسا وأستافها حيثما وجدت عند كاتب أو شاعر في مصر أو أي بلد عربي فنحن أحوج الى هذا اللون وقودا وغذاء .. يضمن للصحوة الحاضرة النماء ويهبها من قوة الدفع ما يلهب خطواتها فتتواصل على الطريق الوعر الطويل ..

لو لم يتوافر لدينا من شعر الشابي الا « وطنياته » المتسعرة لنهضت وحدها حافزا على دراسته واشاعة دعوته في النفوس ..

بودي لو تواجدت بين يدي آثار الشابي الأدبية جميعا لأكتب عنه في احاطة وشمول ، ولكن ضياع ما ضاع ليس حكما على الباقي الماثل بين أيدينا بالاهمال ، ولو حسنت النية فلتكن هذه الدراسة باعثا موحيا بدراسات أخرى أوفى ، تعين عليها الأيام بكشف ما انطمس من آثاره ، فان قراء العربية كما يقول الدكتور أبو شادي لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه ولو تعددت التراجم والدراسات (١) .

اني أومن أن دراسة البيئة ضرورة لازمة لدراسة الشاعر وموجهات شعره ولكنني أرى معالم بيئة الشابي : في شعره ، وفي كتابات مواطنيه أصحاب البيئة نفسها ، فقد وصفها أو جانبا منها هو الجانب الأدبي ،

---

(١) كتاب الشابي للأستاذ أبي القاسم محمد كرو ص ٢٥ .

الأستاذ كرو فى كتابه (كفاح الشابى) (١) ولكنى أطمح الى شمول يتناول جوانب الوطن التونسى جميعا ٠٠ الجوانب المادية والاجتماعية والعقلية والنفسية والتاريخية ٠٠ ومن أولى بهذا من الأدباء التونسيين الذين عركوا هذا كله ، وعاشوا فيه وورثوه ، وتفاعل به وجدانهم وواقعهم بما فى نفوسهم من رواسب تاريخهم وقومهم ٠

حسبنا نحن فى مصر الدراسة الموضوعية التى يسرها لنا ديوان الشابى « أغانى الحياة » ٠٠

نعمات أحمد فؤاد

يناير سنة ١٩٥٨

---

(١) اقرا ص ٣١ ــ ٣٣ ٠

القسم الأول

لمحة من حياة

حياته من شعره

فى ضاحية من ضواحى الجنوب التونسى ، وشتها الطبيعة بألوانها وظللتها كعروس بالظلال من أشجار النخيل والثمار من بساتين البرتقال ورقرقت بين يديها الماء عذبا فياضا ، وحصنتها من جمال ، بالصحراء تكبد الطامعين التيه واللغوب ..

فى الشابية احدى ضواحى توزر على مرأى من شط الجريد الهادىء الحافل بالأسرار ولد شاعر ، «أهـ» على الدنيا فنان عرفه أهلها ثم تاريخها باسم « أبو القاسم الشابى » .

واذا كان بعض الاطفال يولدون وفى فمهم أو يدهم ملعقة من ذهب كما يصفون أبناء المال ، فان وليد الشابية كان بين ضلوعه لا فى يده قلب من حرير ، أو ورق الورد ، فيه الشفافية والنعومة والنفاسة من الحرير ، وفيه الرفيف والرقة والعطر والحساسية وقصر العمر أيضا من الورد . وهكذا يهب الله قوما الذهب ، ويهب آخرين معانى الورد أى الفن .. ويسعد أولئك أو هكذا يظنهم الناس ويشقى هؤلاء بالمعانى العطرة ، أو هكذا يبدون ، ولكن من وهب الفن عندى هو السعيد ..

ولكن القلب الشاعر الذى فوفته الطبيعة بمعانى الورد على مثال رفيع رائع ، كانت به من الورد أيضا ابر الشوك من الداء والاعياء والأعداء والمظالم ، تلك الآفات التى تتسلل منفردة أو مجتمعة الى الموهوب ، وخاصة اذا بلغ القمة ، كما يزحف العطب الى التفاحة الرائعة فى اكتمال نضجها وتوهجها ...

وترعرع وليد الشابية واستوى شابا ، ولكن لا كالشباب .. فهو

متوفر الحس والعصاب ·· يطيل الحديث بينه وبين نفسه ·· وانه لطويل النظرة بعيد التأمل · هدوؤه هدوء البحر الذى يبدو أحيانا ساكن الصفحة ، ولكن وراء السكون تيارات متباينة ، وعوالم لا يعرف سرها الا من يطيل صحبته ، ويعيش فى دنياه ·

وفى هدأة السكون عادة تطيف أوهام المرض · ثم تتداعى خيالات العذاب فتلح على المسكين القابع فى ركن قصى يرقب الحياة والأحياء ، كلمات الجحود ومظاهر الغبن ، ومداعم الصحة تلك المناعم التى يجسمها المرض ·· ويغوص الفكر ويطفو فيلف عوالم شتى ويلم بمعان شتى ، فيمضى صاحبه الرأى تلو الرأى فى الحياة والناس ·· فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ·· فى الشر والخير ·· فى الفن والعلم ·· وفى التيه الفنى يصنع الشارد الحائر ، الحكمة ، ويأتى بما يشبه الفلسفة فى نظرتها المتجردة وشطحاتها أيضا ·· وستجد معى مصداق هذا كله فى حياة الشابى من شعره ··

ومن تاملاته هذه الخطرات :

ينقضى العيش بين شـوك ويأس	والمنى بين لوعـة وتاسى
هذه سنة الحيـاة ، ونفسى	لا تود الرحيـق فى كأس رجسى
ملء الدهر بالخداع . فكم قد	ضلل الناس من امام وقس
كلما أسـأل الحياة عـن الحـق	تكف الحياة عن كـل همس
لم أجد فى الحياة لحنا بديعـا	يستبينى سوى سكينة نفسى (١)

ولكنه ابن الحياة ، وان خيل اليه فى أزمات اليأس أنه قلاها :

غننى أنشـودة الفجر الضحـوك
أيها الصداح
فلقد جرعنى صوت الظـلام
المـا علمنى كـره الحيـاه
ان قلبى مـل أصـداء النواح
غننى ، ياصاح !(٢)

لقد ضج بأحزانه يود لو يزيحها عن صدره ··· ولكنه بعد أن هفا الى أنشودة الفجر الضحوك وتلمس الغناء عند الصداح ، عاد فزهد فى ألحان السرور وأغانى النور ··

(١) ديوان « أغانى الحياة » قصيدة الدموع ص ٤٦ ·
(٢) الديوان — قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ — ٤٩ ·

لا تغنينى أغاريد الصباح
بلبل الأفراح
ففؤادى وهو مغمور الجراح
بتباريح الحياة الباكيه
ليس تستهويه ألحان السرور
وأغانى النور ! (١)

ما وراءه ؟

ان من أصغى الى صوت المتون
وصدى الأحداث
ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
وابتسامات الحياة السافره
عن جلال الله (٢)

ولكنه فى ديوانه يشعرك أن هذه الآلام كلها خاصة به هو ، أما أنت فانه يدعوك دعوة جادة الى الحياة .. الى الكفاح .. الى الاقتحام .. والانتصار ..

سر مع الدهر ، لا تصدنك الأهوال ، أو تفزعنك الأحداث
سر مع الدهر ، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعنك النفاث
فالذى يرهب الحياة شقى ، سخرت من مصيره الأحداث (٣)

وفى سانحة أخرى يرسم للحياة صورة داكنة .. فهو يراها :

فى ظلام الكهوف أشباح شؤم وبهذا الفضاء أطياف نحس
وحلال القصور أنات حزن وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس
والفضاء الأصم يعتسف النـ ـاس ويقضى مابين سيف وقوس (٤)

أى صورة هذه ؟ .

صورة للشقاء دامعة الطرف ولون يسود فى كل طرس

ولكن هذا رأيه على كل حال

(١) الديوان ـ قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ ـ ٤٩
(٢) ديوان « أغانى الحياة » قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) الديوان ـ قصيدة « سر مع الدهر » ص ٥٢ .
(٤) الديوان ـ قصيدة « شجون » ص ١٠٨ .

لم أجد في الوجود الا شقاء سرمديا ، ولذة مضمحله
وأماني يغرق الدمع أحلاها ، ويفني يم الزمان صداها
وأناشيد يأكل اللهب الدامي مسراتها ويبقي أساها
وورودا تموت في قبضة الأشواك ، ما هذه الحياة المملة ؟ (١)

انسان مغرور ، فلا تعجب ان صاح بك :

فقل لي : « ما جدوى الحياة وكربها »
وتلك التي تذوى وتلك التي تنمو ؟
« وفوج تغذيه الحياة لبانها ،
وفوج ، يرى تحت التراب له ردم ؟ »
« وعقل ، من الأضواء في رأس نابغ
وعقل من الظلماء ، يحمله قدم ؟ »
« وأفئدة حسرى تذوب كآبة
وأفئدة ، سكرى ، يرف لها النجم ؟ »
« لتعس الورى ، شاء الاله وجودهم
فكان لهم جهل ، وكان لهم فهم ؟ » (٢)

ما دام الأمر كذلك فهو ينصح بالعزلة .. العزلة دائما هي الدواء عنده :

وان أردت قضاء العيش في دعة شعرية ، لا يغشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم

دائما العدم في خاطره :

واجعل لياليك أحلاما مغتردة ان الحياة وما تدوى به حلم (٣)

وقد هتف بالعزلة أكثر من مرة وتلهف عليها في قصائده :

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
الا اذا قطعت أسبابي مع الدنيا وغشيت لوحدتي وظلامي
في الغاب،في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة ، والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد متنسك ما ان تدنسه الحياة بذام

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الأشواق التائهة » ص ١١٣
(٢) الديوان ص ١١٦
(٣) الديوان ـ قصيدة « السعادة » ص ١٥١

هجر الجماعة للجبال ، تورعـــا عنها ، وعن بطش الحياة الدامى(١)

ولكنه يحمل نفسه حملا على العيش فى دنيا الناس ٠٠ أسباب قوية تربطه بل تقيده :

لكنني لا أستطيع ، فان لى أما ، يصـــد حنانهـــا أوهـامى
وصغار اخوان ، يرون سلامهم فى الكائنات معلقا بســلامى
فقدوا الأب الحانى ، فكنت لضعفهم كهفا يصــد غوائل الأيـــام
ويقيهم وهج الحياة ، ولفحهـــا ويــذود عنهـــم شرة الآلام
فأنا المكبــل فى ســلاسل حية ضحيت من رأفى بها أحلامى (٢)

ويخرج من عزلته فيحن الى الحياة التى رضى عليها ويشتاقها فى الربيع والفجر والزهر والشــدو ، ويشتهيها فى المرأة ٠٠ المرأة التى يتخيلها بلسما لجراحه ، ومهربا من آلامه عندها الدفء والقبل ٠٠ فمن ذا يلومه وقد ارتدت عنه أحزانه ، أن هتف والشجن فى تهويم :

ان فى المرأة الجميلة سحرا عبقريا . يذكى الأسى ، وينيمه(٣)

روح مضطربة أو هكذا يبدو للناس (روح تراها تارة ساخرة هازئة بالحياة وما فيها وأخرى عابثة بها متعلقة بأهدابها ٠ والحقيقة هى روح مضطربة ما لها من قرار) (٤) ٠

وقلب هو عوالم شتى ٠٠٠

يا قلب ! كم فيك من دنيا محجبة كأنها ، حين يبدو فجرها «ارم»(٤)
ياقلب ! كم فيك من كون،قداتقدت فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
ياقلب ! كم فيك من أفق تنمقـه كواكب تتجـــلى ، ثم تنعـــدم

مرارة من الموت يخترم الشباب :

ياقلب ! كم فيك من قبر،قدانطفأت فيه الحياة ، وضجت تحته الرمم

---

(١) الديوان ــ قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ ٠

(٢) الديوان ــ قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ ٠

(٣) الديوان ــ قصيدة « الساحرة » ص ١٤٥ ٠

(٤) مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ فى ١٩٣٤/١٢/٣١ مقال للاستاذ محمد الصادق دسيس الشريف ص ٣٦ ٠

(٥) ارم : مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالى مسحور ، فزعمت أنهــا بنيت على ضفة من الجنة : أرضها من مسك ، وقصورها من خالص الذهب واللـؤلؤ والمرجان ، وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام ٠٠ وأنها ما زالت الى يومنا هذا فى صحراء العرب ، ولكنها محجوبة لا يراها أحد ٠٠

اعزاز للحياة يرى فى عموذها نورا ينطفىء ، وحقد على الموت يتمثل فى ضجة الرمم ·

ياقلب ! كم فيك من غاب ومن جبل ... تدوى به الريح أو تسمو به القمم

رؤى :

ياقلب! كم فيك من كهف قد انبجست ... منه الجداول تجرى مالها لجـــم

حلم بالحرية :

تمشى ·· فتحمل غصنا مزهرا نضرا ... أو وردة تشوه حسنها قــدم (١)

زراية بقبح الواقع :

أو نحـله جرها التيـــار مندفعـا ... الى البحار ، تغنى فوقهـا الديم
أو طائرا ساحرا ميتا قد انفجـرت ... فى مقلتيه جـراح جمة ودم (٢)

تنديد بقسوة الحياة :

ياقلب · انك كون مدهش عجب ... ان يسأل الناس عن آفاقه يجموا

انسان واع حساس ، تلمس وعيه وحساسيته فى قوله :

كرهت القصور ، وقطانهـــا ... وما حولهـا من صراع عنيف
وكيد الضعيف لسعى القـــوى ... وعصف القوى بجهد الضعيف (٣)

وقد كانت رهافة الحس هذه بيت الداء عنده ، فهــو منهـا متوفز الأعصاب دائما ، يضج كيانه بالحياة والطموح وشعور الاقتحام والتوثب ، ثم يرى حوله قوما عزيز عليه ما هم فيه من خمول وتأخر وبلادة ··

لا قلب يقتحـــم الحياة ، ولا حجى ... يسمو سمو الطـــائر الجـواب
بل في التراب الميت في حزن الثرى ... تنمو مشـاعرهم مـع الأعشاب
الشاعر الموهوب يهرق فنـــه ... هدرا على الأقـــدام والأعتــاب
ويعيش في كـــون عقيم ميت ... قد شيدته غبـاوة الأحقـــاب
والعالم النحرير ينفـق عصره ... فى فهم ألفاظ ودرس كتاب
والشعب بينهما قطيع ، ضائع ... دنياه دنيـــا مآكـــل وشراب

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ ·
(٢) الديوان ــ قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ ·
(٣) الديوان ــ قصيدة « بقايا الخريف » ص ٦٢ ·

وما أعظم ألمه من هذا الوضع ، وهو الوطني المتوقد غيرة وشعبية، مع فرط حساسية ورحمة :

الويل للحساس في دنيـــاهم ماذا يلاقي من أسى وعذاب (١)

وقد أرهقه حسه ... واعترف بالارهاق في حسرة لا تخفى :

واليوم أحيا مرهق الأعصاب ، مشبوب الشـــعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم ، وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ، ويزحف الكون الـــكبير
هذا مصيري ، يابني الدنيا ، فما أشقى المصير (٢)

لقد عاش كما قال : مرهق الأعصاب ، مشبوب الشعور ، متأجج الاحساس ، يحفل بالعظيم وبالحقير . فلا عجب أن ثقل عبء الحياة عليه وأحسها (تمشي على قلبه) (٣) .

ويرى أحد النقاد أن شعور الشابي بالامتياز قد أوهمه أن لا مكان للصواب الا في جانبه ، وأنه وحده البصير بمعاني الحياة فانتهى الى كفر بحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها وانكار قيمة الحياة (٤) .

توسع في الأحكام ليس من طبيعة النقد العلمي . وفيم كان هتاف الشاعر اذن بالطموح والبناء اذا كان كافرا بحاضر الانسانية ومستقبلها ؟ كيف والكاتب نفسه يقرر أن رومانسية الشابي (لم تكن مغلقة ، في نطاق ذاته . وفي عالمه الداخلي ، ولكنها كانت رومانسية متفتحة عـــلى مشاكل قومه،وقضايا الوجود الانساني ، تلك القضايا التي كان يعيشها باحساس الفنان الذي يرى نفسه مسئولا عن الحياة الانسانية) (٥) .

أو ليس بين الـــكفر والمسئوليـــة من التنـــاقض ما بين السلبيـــة والايجابية ؟ وعلى أى الرأيين نقبل قول الناقد بعد قليل (يقظة الاحساس

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الدنيا الميتة » ص ١٨٤ ــ ١٨٥ وقد صرح بعذابه من دقة حسه في غير هذا الموضوع حين اتجه الى الله بشعره قائلا :

« أنت عذبتني بدقـــــة حسي » . الديوان ص ٩٩ قصيدة « الى الله »

(٢) الديوان ــ قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٥٠ .

(٣) وهو يؤثر هذا التعبير حتى ليكرره ص ١٥٧ كقوله : قصيدة « الأبد الصغير

يا قلب . كم من مسرات وأخيلـــة ولذة ، يتحامى ظلهـــا الألم
غنت لفجرك صوتا حالما ، فرحـــا نشوان ثم تـــوارت ، وانقضى النغم
وكم مشت فوقك الدنيا بأجمعهـــا حتى توارت ، وسار الموت والعـــدم

(٤) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٠٤ .

(٥) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ التليسي ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

هى التى خلقت لنا منه ذلك الشاعر الطموح ، الذى يعيش لآمال وأحلام المستقبل ، ويرسل صرخات مدوية داعية الى السير فى موكب الحياة المتطورة) ؟ (١) .

وانه لمن فرط حسه ، توجسه من الغد ، ذلك التوجس الذى شاع فى مثل قوله :

فـاذا سرنى من الفجر نور ساءنى ما يسر قلب الظـلام (٢)

فى حياته أطياف سود :

كم بقلب الظلام من أنة تهفو بغصات صبية أيتام
ونشيج مضرم من فتاة أبهظتها قوارع الأيام
ونواح يفيض من قلب أم فجعت فى وحيدها البسام
وأنين من معدم ، ذى سقام عضه الدهر بالخطوب الجسام

وفى حياته غبن :

ما أخال النجوم الا دموعا ، ذرفتها محاجر الأعوام (٣)
فلقد ضرم الشجون بنوها ، فاذا بالشجون سيل طام
واذا بالحياة فى ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام

رؤوس .. وأقدام ... وأوضاع معكوسة أورثته تلك النظرة الكابية التى ترى لآلىء النجوم دموعا .. دائما عين المغبون متشائمة ...

وفى شعره أشباح كثيرة (٤) .. أشباح وغيلان وعرائس .. غاب وجن وعوالم مسحورة وتهاويل وأطياف .. انها أعصاب مشدودة .. ويله من نفسه .. ويحه من رؤاه ...

« فى الليل ناديت الكواكب ساخطا متأجج الآلام والآراب »
« الحق يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب »
« والنهر ، للغول المقدسة التى لا ترتوى .. والغاب للحطاب »
« وعرائس الغاب الجميل ، هزيلة ظمأى لكل جنى ، وكل شراب »
« ما هذه الدنيا الكريهة ؟ ويلها حقت عليها لعنة الأحقاب »
« الكون مصغ ، يا كواكب ، خاشع طال انتظارى ، فانطقى بجواب »
« الفجر يولد باسما ، متهللا فى الكون، بين دجنة وضباب(٥) »

---

(١) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى ص ١٠٨ .
(٢ ، ٣) الديوان — قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٤ .
(٤) اقرأ قصيدة « الأبد الصغير » الديوان ص ١٥٧ .
(٥) اقرأ قصيدة « صوت من السماء » الديوان ص ١٥٨

هل هو عزاء أم حكمة مرسلة ؟ كلاهما خير ان هدمد ثورته وقرت عليه أشجانه .

وله في الاستعلاء ضروب شتى ، فعندما حشد له الزمان في حربه معه أعداء يكيدون ، نفس عن نفسه ما يكابد من ضراوتهم في ذم النـاس تارة ، وفي غناء بروميثيوس تارة أخرى :

سأعيش رغم الداء والأعـداء ... كالنسر فوق القمـة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة .. هازئاً ... بالسحب ، والأمطـار ، والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب .. ولا أرى ... ما في قرار الهـوة السـوداء
وأسير في دنيـا المشاعر ، حالما ... غرداً — وتلك سعادة الشعراء —
أصغي لموسيقى الحياة ، ووحيهـا ... وأذيب روح الـكون في انشائي
وأصيخ للصـوت الالهي ، الذي ... يحيي بقلبي ميت الأصداء (١)

وقد كان هذا القصيد أو النشيد بداية تطور جديد لف روحه كلها . يقول الشابي من رسالة الى صديق :

« وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت في عـين دراهم . ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهـذا اللون الجديد ، كما أن مصيف هذا العام وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة ، قد أكمل هذا التطور ونماه .. أما الآن فانني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة وستدرك هذا التطور في نفسي حينمـا تطلع على قصائدي الجديدة . وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيدة « الصباح الجديد » الذي أرسلته الى أبولو ، **وقصيدة « نشيد الجبار » هو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد .. » (٢) .**

❋ ❋ ❋

حتى القدر خاله من أعدائه والمتربصين به :

ياليل . ماتصنع النفس التي سكنت ... هذا الوجود ، ومن أعدائها القدر؟
قد كبل القدر الضاري فرائسـه ... فما استطاعوا له دفعا ، ولا حزروا
وخاط أعينهم ، كي لا تشاهـده ... عين ، فتعـلم ما يأتي وما يذر
وحاطهم بفنون من حبائلـه ... فما لهم أبـداً من بطشـه وزر
لا الموت ينقذهم من هول صولتـه ... ولاالحياةتساوي الناس والحجر (٣)

---

(١) اقرأ قصيدة « نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس » ص ١٧٩ .
(٢) مجلة الفكر — العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ص ١٣ .
(٣) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .

الس سخرية وأسى ...

ولا تستطيع أن تلومه على بغض القـــدر خاصــة بعـد أن عرفت استبشاعه للموت ومقته له ، ولعل كراهيته للقدر تسربت اليه من هذه الناحية :

وانمـــا المـــوت ضرب من حبـــــائله
لا يفلت الخلق ما عاشوا . فما النظر ؟ (١)

فما النظر ؟ يلتمس النجاة من الموت .. ليتها ممكنة يا صديقنـا الشاعر .. ولكن هل تستحق الحياة عندئذ تلك اللهفـة الحارة التى تتقد عليها .. تلك اللهفة بما فيها من شوق ونار تحرق وتضىء .. تحفز وتلهم .. تشقي وتسعد .. نار تغرى بالسعي والكفاح والانتصار .. ولهفة تغرى بالجمح السريع أو الزهد العارف ؟ .. بالجرى وراء اللذة .. باقتناص المتعة .. باهتبال الفرصة أو الصد عنها جميعا ما دامت زائلة بزوال الحياة .. ما النظر ؟

حار المساكين، وارتاعوا، وأعجزهم ... أن يحذروا ، وهل يجديهم الحـذر
وهم يعيشون فى دنيا مشيـــدة ... من الخطوب، وكون كله خطر ؟(٢)

هنا مفتاح من مفاتيح نفسه عثرت عليه فى كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحليوى ، يطلعنا على سر الخوف والقدر والموت الذى كان يطارد الشاعر حتى فى منازهه .. حتى فى نجوى الحبيب .. لم يخل بينه وبين هواه ...

« انى لا زلت كالماضى أشعر فى صميم نفسى بأن الأقدار تحاربنى وانما الفرق بينى وبين نفسى الأولى ، أننى كنت أتقبـل آلام الحياة وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع باك ، أما الآن فاننى ألقاها ببسمة الساخر ونظرة الحالم ، المنتشى بجمال الوجود » (٣) .

لم يبق هناك ما يدعو الى تكهن الأسباب وتلمس وجوه التفسير .. أن الشاعر يكشف عن نفسه فى خطاب الى صـــــديق ، خطاب برىء ــ كخطابات الأصدقاء ــ من سمة التكلف والتعليل المرسوم ...

انه الشعور بالاضطهاد .. الاضطهاد ومن القدر نفســـه .. إنه

(١) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .
(٢) لديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .
(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى اقرأ ص ٩٤ ــ ٩٥ .

تفسير الشاعر على كل حال لمرضه الوبيل ... ويتمه الباكر ... وحبه الفقيد .. لا عجب ولا ملامة ، بل العجب كله ألا يفعل والعمر ينحسر كلما طلعت الشمس ، فلم يبلغ ضحى ولم يعرف الآصال ، وتجاوز سخر القدر ، الفرع الى الأصل ، فغاله والعود غض لا يقوى على هوج الريح أو تهور الأحداث .. وظل القدر سادرا فساق الحب الى الشاعر حتى اذا تفتح بين يديه كتب عليه الذبول والعدم ..

لماذا لا يشعر الشابي بالاضطهاد أو يتصوره .. لا عجب أن جار بهذه الشكوى يرفعها الى مولاه :

يا اله الوجود ! هذى جراح في فؤادى ، تشكو اليك الدواهي
أنت أنشأتني غريبا بنفسي بين قومي ، في نشوتي وانتباهي
أنت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بشكل الدواهي
بالأسى ، بالسقام ، بالهم بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهي
بالمنايا تغتال أشهى أماني وتذوى محاجرى ، وشفاهي
فاذا من أحب حفنة ترب تافه ، من ترائب وجباه
واذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهي
يتلاشى فوق الخضم ، ويبقى اليم كالعهد ، مزبد الأمواه (١)

ويضرب الشاعر في الأرض مبهور الأنفاس ينشد من يهدهده وهو يتمزق :

غنني ، يا أخي ، فالكون تيهاء بها قد تمزقت أقدامي
غنني ، علني أنيم همومي انني قد مللت من تهيامي
يا رفيقي ! لقد ضللت طريقي وتخطت محجتي أقدامي
خذ بكفي فانني تائه ، أعمى كثير الضلال والأوهام (٢)

تائه .. أعمى .. ضال .. لقد برح به العذاب .. ان قدميه تجرانه من حيرة الى المقابر .. مسكين .. ظن عند الصمت الطويل جوابا ..

وهناك في عالم الصمت توزعت نفسه الهواتف والأشباح فغاب عنا وعن ديوانه من ١٣٤ ــ ١٤٠ ولكنه كان يتعزى أحيانا فيستريح الى العزاء .. تأمل .

تأمل ... فان نظام الحياة نظام ، دقيق ، بديع ، فريد
فما حبب العيش الا الفناء ولا زانه غير خوف اللحود

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ .

(٢) الديوان ــ قصيدة « يا رفيقي » ص ٧٤ ــ ٧٥ .

ولــولا شـــقاء الحيـــاة الأليم لمـــا أدرك الناس معنى السـعود
ومن لم يرعه قطـوب الدياجـير لم يغتبط بالصـباح الجديد (١)

وتلك سانحة أخرى من سانحاته فى تيه الغائبين

اذا لم يكن من لقـــاء المنايـــا مناخى لمن حل هـــذا الوجود
فاى غنــاء لهـذى الحيـــــاة وهذا الصراع ، العنيف ، الشديد
وذاك الجمال الذى لا يمـــل وتلك الأغانى ، وذاك النشيد
وهذا الظلام ، وذاك الضيـــاء وتلك النجوم ، وهــذا الصعيد ؟؟
لماذا نمـــر بوادى الزمـــان سراعا ، ولكننا لا نعـــود ؟ (٢)

صراع ... لم يصل به الى قرار ..

فاذا قفل راجعا الى دنيا الناس وواقع قومه هاجته أشجان وأحداث ووقائع ، فهو يمور ويثور على الوضع الخائر الذى يعيش فيه مواطنوه . ومن مسارب الثورة فى أدبه قصائد .. ومن صرخاته فى الراكدين :

خلقت طليقا كطيف النسيم ،، وحرا كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أين اندفعت ، وتشـــدو بما شاء وحى الاله
وتمـرح بين ورود الصبـــاح ، وتنعم بالنـــور ، أنى تراه
وتمشى ــ كما شئت ــ بين المروج ، وتقطف ورد الربا فى رباه
كذا صاغك الله ، ياابن الوجود ، وألقتك فى الكون هذى الحياه
فما لك ترضى بذل القيود ، وتحنى لمن كبلـوك الجبـــاه ؟
وتسكت فى النفس صوت الحياة القوى اذا ما تغنى صداه ؟
وتطبق أجفانك النيرات عن الفجر ، والفجر عذب ضـياه ؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فأين النشيد ؟ وأين الاياه ؟
أتخشى نشيد السماء الجميل ، أترهب نور الفضا فى ضحاه ؟
ألا انهض ، وسر فى سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياه
ولا تخش مما وراء التلاع ... فما ثم الا الضحى فى صباه
والا ربيع الوجود الغرير ، يطـــرز بالورد ضـــافى رداه
والا أريج الزهور الصباح ، ورقـص الأشـــعة بين الميـــاه
والا حمام المروج الأنيـــق ، يغـــرد ، منطلقـــا فى غناه ..
الى النور ! فالنور عذب جميل ، الى النور ! فالنور ظل الاله (٣)

لقد تخففت نفسه من أثقالها فى هذه القصيدة فهو ينطلق خفيفا متوثبا

---

(١) الديوان ــ قصيدة « حديث المقبرة » ص ١٣٨
(٢) الديوان ــ قصيدة « المقبرة » ص ١٣٨ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « يا ابن أمى » ص ٨٨

يشرب النور . ويعل منه ويغنى له ، ويدعو الى الحرية ويعين عليها بالاثارة ٠

الى النور ٠ الى النور ٠ انه يهتف بك فى فرحته فبارك نشيده ولب نداه ٠٠ حقا ان النور يبهره ٠٠ لقد سال على الدنيا دفقة واحدة فغمر الضياء السماء والمروج والتلاع ٠٠ ونفس الشاعر ٠٠ نفس الشاعر التى شفت حتى أصبحت ترى رقص الأشعة بين المياه ٠٠

يارب ٠٠ يانور النور ٠٠ ان الشاعر يؤمنا فى محرابك فتقبل منه ومنا الصلاة ٠

٠٠٠٠

ولم تقف ثورته عند حد الوطنية السياسية ، بل اندلعت تجتاح كل شىء ٠٠

يقول الأستاذ كرو (وبدأ ثورته بفك قيود الأدب وأغلاله ، وخلص بنفسه من طرائقه القديمة المقوتة ، وأساليبه الرثة الميتة ٠ فبعث طرائق فنية رائعة ، وأساليب حية ممتعة ، قوية فى روحها وموضوعها ، خلابة فى فنها وجمالها ، ساحرة فى تعابيرها وصورها) (١) ٠

ولم يشذ الشابى عن القاعدة ٠ فوجد من مسخ دعوته الموقظة (ولقد رمى الشابى ٠٠ بنكران الماضى ومحاربة أمجاده ، وبالعقــوق لآبائــه وأجداده ، وبالثورة على المقاييس الشائعة ، والطرائق الذائعة ، وبالسخرية من التراث « المقدس » الجليل وتشويه محاسنه ومسخ جماله !!) (٢) ٠

ولأدع الشابى نفسه يكشف عن حقيقة موقفه ٠٠٠ كتب الشاعر فى معرض الرد على الدكتور مختار الوكيل الذى نقد كتابه (الخيال الشعرى عند العرب) (٣) ٠

> (٠٠٠ اننى اذا كنت أدعو الى التجديد الأدبى وأعمل له ، فان ذلك لا يدفعنى الى الهزء والسخرية بآداب الأجداد ٠٠ كما قد حسب ٠ بل اننى لأومن كل الايمان بما فيها من جمال فنى وسحر قوى ، وأعتقد أنها قد آتت فى عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت اليه أشواقهم من غذاء معنوى دسم ، ولكننى أومن الى جانب ذلك أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما فى الأدب العربى من آفاق ، وأن هذا الأدب اذا كان قد سد خلة آبائنا الروحية ، فانه لعاجز كل العجز عن أن يشبع

(١ ، ٢) كتاب « الشابى » لأبى القاسم كرو ص ٥٥ ـ ٥٦ ٠
(٣) نشر النقد بمجلة أبولو ص ٨٣٣ سنة ١٩٣٣ ٠

ما فى **أرواحنا من جوع وعطش وطموح** • وأنه اذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به ، **كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية** ، وكمنجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا **حليها الساحر** الجميل ، فان ذلك الاعجاب لا ينبغى أن ينقلب فى نفوسنا الى تقديس فعبادة فجمود ، فاطباق لأبصارنا عن كل ما فى السماء من أشعة ونجوم) (١) •

● أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما فى الأدب العربى من آفاق •••

● الأدب العربى اذا كان قد سد خلة آبائنا الروحية ، فانه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما فى أرواحنا من جوع وعطش وطموح

● الأدب العربى حلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية •

* الأدب العربى منجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل •

فهم واع للقيم والمفاهيم الأدبية . وتعبير ذكى لا يتأتى الا من انسان نافذ ، أسفر المعنى فى نفسه سفوراً مضيئاً مشرقاً ، فهو يعرف كل لفظة على مقدار ••

جوع وعطش وطموح •• معان ما أحوجنا الى اشاعتها فى الشرق ، وبين الشباب خاصة ، اذا كنا جادين فى احداث انقلاب فكرى واجتماعى ، تصح عليه النفوس المريضة والعزائم البالية ••

الأدب العربى منجم ذهبى للأسلوب •• أدبنا العربى غنى بحلاه وموسيقاه ، وايحاءات اللفظ واشعاعاته فيه • ولكن هناك أيضا فى الحياة آفاقاً مجهولة ساحرة غير ما فى الأدب العربى من آفاق •••

حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، ثم لا ينفعه الانكار ، أو يجدى الأدب العربى شيئاً ، ولكن الحقائق دائماً مرة المذاق ، ومن ثم كان الفارق (كبيرا جدا بين الشابى وبين شعراء الخضراء المعاصرين له ••• ذلك أن أكثرهم لم يألفه ولم يستطع فهم ما يعبر عنه ، أو يرمى اليه) (٢) •

والى هذا الجو يعزو مواطنه الأستاذ أبو القاسم كرو ، فيما يعزو شعور الشابى بالغربة ، ذلك الشعور الذى يراه أبو القاسم أول احساس وضح تضطرم به نفس العبقرى بين بقية النفوس الخاملة الخانعة ، والذى

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٥٧ ــ ٥٨
(٢) كتاب « كفاح الشابى » لأبى القاسم محمد كرو ص ١٠٧ •

يراه مرة اخرى مصدر الهام العبقرى وتبوغه (١) .

وهذا الغبن يحسه الشابى احساساً عميقاً جـــارحا ، فاذا فضفض وما أكثر ما يفعل .. سمعت منه هذا الأنين

قضيت أدوار الحياة ، مفكرا ... فى الكائنات ، معذباً ، مهموما
فوجدت أعراس الوجود مآتما ... ووجدت فردوس الزمان جحيما
تدوى مخارمه بضـــجة صرصر ... مشبوبة تذر الجبـــال هشيما
وحضرت مائدة الحياة ، فلم أجـد ... الا شرابا ، آجنـــا ، مسمومـــا
ونفضت أعماق الفضاء ، فلم أجـد ... الا ســـكونا ، متعبا ، محمومـــا
تتبخر الأعمـــار فى جنباتـــه ... وتموت أشواق النفوس وجوما
ولمست أوتار الدهور فلم تفض ... الا أنيناً ، دامياً ، مكلومـــا
يتلو أقاصيص التعاســـة والأسى ... ويصهر أفراح الحياة هموما (٢)

ان لك أن تقول لماذا ؟ والشاعر يتوقع هذا السؤال فيأتيك الجواب :

وأنـــا الشـــقى فعشـــت مشـــطور الفـــؤاد يتيما
فى غربة ، روحية ملعونـــة ... أشواقها تقضى عطاشا ، هيمـــا
يا غربـــة الروح المفـــكر . انه ... في الناس يحيا ، سائما ، مسئوما (٣)

اذن هو تفرد الامتياز فلا هو راض عن الناس ، ولا الناس عنه راضون ، فهو يحيا فيهم سائماً مسئوماً .. وقديما قالوا (لا كرامة لنبى فى قومه) ..

هذه واحدة :

ما للرياح تهب فى الدنيا ... ويدركهـــا اللغوب
لا رياحى فهى جامحـــة ، تمردهـــا عصيب ؟
مالى تعـــذبنى الحياة ، كأننى خلـــق غريب ؟
وتهد من قلبى الجميل ؟ فهل لقلبى من ذنوب ؟ (٤)

وعذاب

ماذا عنه أيضاً ؟ سأم ألم أوجاع كثيرة فوق طاقة الشعـر والشاعر ..

سئمت الحياة ، وما فى الحيـــاة ... وما أن تجاوزت فجر الشبـــاب
سئمت الليالى ، وأوجاعهـــا ... وما شعشعت من رحيق بصـــاب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ .
(٢ ، ٣) الديوان ـ قصيدة « صوت تائه » ص ٨١
(٤) الديوان ـ قصيدة « النشيد الأسى » ص ٨٣

فحطمت كـــأسي ، والقيتهــــا بوادى الأسى ، وجحيم العـــذابه
فأنت ، وقد غمرتهـــا الدمـــوع وقرت ، وقد فاض منها الحبـــاب
والقى عليهــــا الأسى ثوبــــه وأقبرهـــا الصمت والاكتئاب(١)

ولا شك أن عنده من بواعث الألم اليتم والفقدان والغبن ٠٠ وانها لكبيرة غير أنها على هولها لا تسئم شاعراً لم يتجاوز فجر الشباب ، فهو أقدر من غيره على التنفيس ، بل الاستعلاء والتعويض ٠

وقد تهادنه الأيام أو يكف عنه الزمن فيهتف من أعمـــاقه متهللا للصباح الجديد :

اســـكني يا جــراح واسكتي يا شجـــون
مات عهد النـــواح وزمـــان الجنـــون
وأطــــل الصبـــاح من وراء القرون (٢)

وقد كرر هذه الأبيات مرتين أخريين في القصيدة ٠ فهـل التكرار للموسيقى أم للمقاومة ؟ هل تلح عليه الجـراح فيصرخ فيما بين لحظــة واخرى :

اســـكني يا جـــراح واسكتي يا شجـــون

لترعوى ؟ أم تراه غير مصدق نفسه فيؤكد لها بالتكرار ٠٠ أرى وراء الأبيات علامة استفهام ٠٠٠

ليت أيامه اتصلت في (عين دراهم) ليملأ أدبنا أفراحاً تغنى

أقبل الصبح جميـــلا ، يملأ الأفـــق بهاه
فتمطى الزهر ، والطـــير ، وأمـــواج المياه
قد أفـــاق العـــالم الحسى ، وغنى للحـــياه
فأفيقى يا خـــــرافى ، وهلمى يا شيـــــاه

واقطفى من كلأ الأرض ، ومرعاها الجديـد
واسمعى شبابتى تشدو ، بمعسول النشيد
نغم يصـــعد من قلبى ، كانفـــاس الورود
ثم يسمو طائراً ، كالبلبل الشـادى السعيد
وامرحى ما شئت في الوديان ، أو فوق التلال
واربضى في ظلها الوارف ، ان خفت الكلال

(١) الديوان ــ قصيدة « السآمة » ص ٤٤ ٠
(٢) الديوان قصيدة « الصباح الجديد » ص ١٥٩ ٠

وامضغي الأعشاب ، والأفكار في صمت الظلال
واسمعي الريح تغني ، في شماريخ الجبال(١)

لقد نسي نفسه وتآلف القطيع كما تآلف مضغ الأعشاب مع الأفكار الشاعر والقطيع العزيز كلاهما يمضغ زاده في صمت الظلال ..

ان في الغاب أزاهيرا ، وأعشـــابا عذاب
ينشد النحل حواليها . أهازيجـا طراب
لم تدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب
لا ، ولاطاف بها الثعلب في بعض الصحاب(٢)

جراحه تتحرك ، حتى في عين دراهم لم يستطع منها فكاكا .. لقد تذكر أذى أعدائه السافرين والمقنعين . فمن الناس ذئب ينم عليه حر أنفاسه ، ومنهم عدو في ثياب صديق كالثعلب .

ويجتمع هذا كله في يد النقد ، فينطلق يصفه بالتشاؤم واليأس ، ويفيض من تعليل وتبرير وملامة ، على خلاف في الرأي والحكم .. ومن الطريف أن أحد الناقدين راح يقسم تشاؤمه ويصنفه ، وأعني هنا الأستاذ الحليوي الذي يرى أن التشاؤم طور من أطوار فلسفة الشابي التي صبغ بها شعره (٣) الذي دخل في ثلاثة أطوار .

(فالطور الأول هو طور **التشاؤم القاتم** ، وفي هذه المدة التي كان ينحو نحو جبران وينكب على مطالعة المعري انكبابا كليا .. فلما نظم أول أشعاره كان مفرطا في اليأس والتشاؤم ، وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص الذي يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم ، فهو تشاؤم لا تعرف مبعثه ولا الداعي اليه ولا علة ترديده وســبب وجوده) (٤) .

أي أنه تشاؤم **تقليد وانسياق** .

(ثم يجيء الطور الثاني من أطوار الشاعر ، فتراه يستمر متشائما ولكن تشاؤمه في هاته المرة **مصحوب بالتعليل** ، وحزنه مبعثه الحيرة ، وكآبته تعتمد على استمرار تساؤله وحيرته وتطلعه الى اليقين) (٥) .

---

(١) عين دراهم « من الشمال التونسي » حيث الطبيعة العذراء الساحرة ، والجبال الشم المجللة بالسنديان .

(٢) الديوان — قصيدة « من اغاني الرعاة » ص ١٥٢ — ١٥٤

(٣) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوي ص ٨٧ .

(٤) كتاب (مع الشابي) للأستاذ الحليوي ص ٨٧ .

(٥) » » » » ص ٩٠ .

ثم يصطاف الشاعر فى بلدة عين دراهم ، فيرى الأستاذ الحليوى فى مضيفه نقطة ارتكاز ، عندها دخل الشابى فى الطور الثالث من أطوار حياته الشعرية ، (وجهت شعوره الى وجهة جديدة) (١) ٠

ويرى الأستاذ عمر فروخ الشابى (شاعرا متشائما يائسا ، يحاول أن يزين شعره أحيانا بشىء من روح الأمل والتفاؤل ٠ الا أنه كان متقلبا بين الأمل واليأس ، وكان اليأس عليه أغلب) (٢) ٠

وممن يقولون بتشاؤم الشابى : الأستاذ على سعد ، والأستاذ أبو القاسم محمد بدرى ، والدكتور شوقى ضيف ، والأستاذ مصطفى خريف ٠ ويعزو كل منهم تشاؤم الشاعر الى سبب يراه ٠٠

فالأستاذ على سعد يرى الأمر طبيعيا (أن يطغى على شعر الشابى ، وهو الذى قال : كل شعره فى طور الصبا ، والذى عاش فى وسط اجتماعى محتبس ، وفى بيئة عائلية محافظة ، هذا اللون من التشاؤم الرومنطيقى ومن النقمة على نفسه وعلى الكون ، والمجتمع ، وهو النزعة القوية للالتجاء الى الحلم من أذى الواقع) (٣) ٠

اننى أسجل وجها من وجوه النقد فحسب ، ولكنى لا أرى عند الشابى نقمة على نفسه أو على الكون ، لا ولا حتى على المجتمع ، فان سخريته اللاذعة وتنديده بالوضع الكريه الذى يعيش فيه وطنه وقومه ، انما ولدها شدة حبه لهم ٠٠ شدة اشفاقه عليهم ٠٠ اضطرام شوقه الى عالم أفضل يعيشونه ٠٠ فنقد الشابى وليد حب حار لا نقمة ٠٠

ولعل الأستاذ أبا القاسم محمد بدرى يرى معى هذا الرأى أو قريبا منه ، فعنده أن الشابى والتيجانى قد تأثرا أيما تأثير بما يسود وطنهما من جمود وتقهقر وانحطاط ، وما يحيط بلادهما من فقر وجهل ومرض ٠٠ فسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤما مبعثه حب الاصلاح) (٤) ٠

ويضيف الدكتور شوقى ضيف الى هذا أن (كان احساس أبى القاسم الشابى حادا ، وجعلته حدته محبا للحياة صبا بها ، وشعر برؤوس أفاع تمتد اليه فى طريقه فتمنعه من السير بل ترده الى داره

---

(١) كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحليوى ص ٩٤ ٠

(٢) كتاب « شاعران معاصران : ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابى » للأستاذ عمر فروخ ص ٥ ٠

(٣) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم محمد كرو ص ٣٠ ٠

(٤) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى ٠

ان لم يكن الى فراش علته ، فرجع محزونا يجر أذياله ، والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها أيضا الاحساس الدقيق بالكارثة ، وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبثه لواعجه سوى ناى شعره ، فأخذ يشدو عليه أغانى مشجية نظمها والدموع تنهمر من عينيه ، وهى لذلك تعد أشجى أغانينا فى العصر الحديث) (١) .

ويرى الأستاذ مصطفى خريف أن هنـــاك سببين أوجدا فى قلب أبى القاسم ذلك السخط والتشاؤم اللذين يبدوان على شعره ، السبب الأول : الحب ، حب جارف باكر فتح الشاعر بصره عليه ، فغمره وساقه فى موكب حافل من العواطف والأخيلة الواســـعة ، ولم يمهله الموت فاختطف الحبيب الى القبر (٢) .

أما السبب الثانى ، فمتفرع من السبب الأول .

ففى ظلمات حزنه البالغ ، كان كل فكره وكل عاطفته وكل خياله التى يكمن فيها ، نبوغ وروحانية يتعمق وراء الكائنات ، وينظر بذلك المنظار الأسود القاتم فى تصرفات الدهر وتقلباته (٣) .

❋ ❋ ❋

انسان مريض حـاد الاحساس متوقد الامتياز فى مجتمع آسن ، كالشعلة المتوهجة فى الرماد الخابى .. طعن الموت حبه فأصماه فتجهم فى عينيه الواقع وأغطش الليل بعد ضـياء ، فهل تنتظر من قبل هذا الجريح فى نفسه وقومه ، وحبه خفة ومراحا وقهقهة خيالية ؟ لا أخال .

ليس غريبا أن ييأس وأن يمضى يتحدث عن الظلام والألم وأن تبدو على شعره الذى اعتصره من قلبه المكلوم ، آثار الجراح .. فأنا لا أنكر هنا أن الكثير من شعره مندى بالدموع ، ولكن الذى أنكره انما هو دعوى النقمة ، فالنقمة تقترن فى رأيى بشر كمين فى نفس صاحبها ، ولكن الشابى شاعر الألوان ، والظلال والرفيف . كان صفاء شابه كدر افتعلته معه الحياة والناس .. ولست وحدى التى أقول بهذا الرأى فان الى جانبى أستاذين يلقيان اللوم على الظروف التى أحاطت بالشاعر .. فالأستاذ محجوب يقول فى استنكار :

(.. لست أفهم كيف يتشدقون بتشاؤم الشابى حتى كادوا

---

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥١ ـ ٥٢

(٢ ، ٣) مجلة « الامام » العدد الخامس ـ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٤ .

يجعلونه شوبنهور العرب بعد أن قال :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عميـــاء بالأحزان (١)

ثم نجد في شعره من آن لآخر نبرات الحزن ، ولكن ذلك لايرجع الى طبيعة سوداوية له ، بل علتها هو الألم اذا طغى عليه ، هو عقوق الناس وحسدهم له · ولئن ثار ثائره وسخط ، فثورته وسخطه على الناس لا على الحياة ··

أما الأستاذ أبو القاسم كرو فعنده أن ليس (خيالا شعريا ولا تشاؤما ما نجده في شعر الشابي من احســاس قوي بالغربة ، وكره وازدراء للمحيط ، فان العملاق لا يبدو ولا يكون بين الأقزام الا غريبا في نظر كل من يراه) (٢) ·

بل هناك من النقاد من لا يكتفون باعذار الشاعر أو تبرير صرخاته ، فيتجاوزون المدى في اختيار الجانب المقابل من الرأي ، فلا يتردد الأستاذ خفاجه في القول بتفاؤل الشابي أشد التفاؤل ، ويعلنها صريحة واضحة أن الشابي في أعماق نفسه ــ على الرغم من هوم الحياة وأحداثها ، وحزنه على بلاده ومرضه ــ متفائل أشد التفاؤل ــ يحب الحياة ويتذوقها وينصت لمشاهدها والهام الجمال الأبدي فيها ، يتغنى بالطبيعة وسحرها ، ويتمنى أن يعيش في عزلة عيشة هادئة (للجمال والفن) (٣) ·

لاشك أنه كان يحب الحياة انسانا ، ويتذوقها شاعرا والا لما حزن على تسللها بالمرض · ولكن حبه هذا للحياة أقرب الى أن يورثه الأسى عليها ، وهي تغيض من أن يشيع فيه (التفاؤل) ·· لقد كان المسكين ذكيا ، يرى ويحس الغروب يتعجله ، وما نعم بشعشعة الفجـر أو ألق الضحى ·· فما الذي يدعوه الى التفاؤل ·· قصاراه أن يتناسى أو يتلهى كما فعل في عين دراهم ·

ان الشـــابي شاعر الألم ، وحسبي أن أقتصر على هذا الوصف ولا أتجاوزه مع الأستاذ عبد العزيز الشابي الذي يراه المثل الأعلى للكآبة والحزن (٤) ·

نمر بالديوان فلا نرى الا روحا تشكو وتتألم وانفاسا تتصاعد من

---

(١) مجلة الامام ــ العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٣ ·

(٢) كتاب « كفاح الشابي » لأبي القاسم محمد كرو ص ١٧ ــ ١٨ ·

(٣) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجة ص ١٥٨ ·

(٤) مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٤٠ ·

بسبب التعاسة والشقاء ، لا تتصور الحياة الا ظلمة قائمة ، وترى فى نظمها لها سخرية متلونة ، فتتراجع منزعجة ، تبث ما بها الى الشعر قائلة :

يا شعر ! قلبى مثلما تدرى شقى مظلم

فلا تقلب صفحة أو تقرأ بيتا ، الا ترى البؤس يكسو روحا قوية ، تصارع الشقاء الجبار (١) ٠

٠٠ فلئن كان فى شعر الشابى بعض من بسمات الأمل ، والتفاتة الى الحياة راضية ، فهو شىء ضئيل جدا ، لا يعدو ابتسامة مسجون ، وأغنية طائر مأسور ، لا ينهض بحال على أنه مقبل على الحياة ، راض عنها ، وكيف يكون ذلك من يقول :

أيها الشـــادى المغرد ههنـــا ثمـــلا بغبطة قلبـــه المسرور
غـــرد ففى قلبى اليك مودة لكن مـــودة طائر مأســـور (٢)

واذا كان الألم سـببا من أسباب يعزى اليها ظاهرة أو أخرى فى شعر الشابى ٠٠ بل لعله ظاهرة كبرى ، لفتت الكثيرين ٠ فمن وفاء الدراســـة أن نفرد لألم الشاعر بابا خاصـــا تتسمع فيه أناته ، وتتقصى انعكاساتها على شعره ٠

(١ ، ٢) مجلة الامام ـ العدد الخامس ـ السنة ٣٢ بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٤٠

شاعر الألم

من النقاد من يعزو الى الألم وحده شعر الشابى كله بل عبقريته نفسها (فلولاه على ما يظهر ، ما تحركت فى داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، واقرأ فيما نشر وجمع من أغانيه وأشعاره ، فستراها كلها نبتت فى تربة الألم ، وتمايلت أغصانها فى ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه) (١) .

والناقد يعنى هنا الألم الخاص والعام (٢) .

أيها السارى مع الظلمة ، فى غير أناة
مطرقا ، يخبط فى الصحراء ، مكبوح الشكاة
تهت فى الدنيا ، وما أبت بغير الحسرات
صل يا قلبى الى الله ، فان الموت آت
صل فالنازع لا تبقى له غير الصلاة (٣)

نعم هناك ثقل يئوده تترجم عنه (مكبوح الشكاة) ...

وهو فى قصيدة (يا شعر) (٤) كثير الانفعال يهدأ ويصخب ، يضحك ويبكى تكاد تغتاله أوهامه ، ثم يفيق على شعاع من نور أو بسمة من زهرة فتنطلق نفسه ويتفاءل . واذا بالوهم الدساس يتسلل اليه وهو

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٧ .
(٢) يقول الناقد « ولم يقف احساس الشابى بالألم عند نفسه ، بل يتعداها الى أمته » ص ٥٧ من المصدر السابق .
(٣) الديوان ــ قصيدة « الى قلبى التائه » ص ٩٢ .
(٤) الديوان ص ٣٥ ــ ١ .

يعزف فيربد من جديد ثم يعود . وظل على هذه الحـال دون أن تدرى أتطرب معه أم تبكى من أجله ؟ ..

انه لا شك مكروب وحسبه راحة أن تنفس فى شعره ...

يا شعر ! قلبى ــ مثلما تدرى ــ شقى ، مظلم
فيه الجراح ، النجل ؛ يقطر من مغاورها الـدم

يا قلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديع
يصغى لضجات العواصف قبل أنغـام الربيع

هنيه ... عزاء وتأسية ...

يا شعر ! أنت نشـيد أمواج الخضم الساحره
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهره

تهليل وانطلاق .. لحظة ..

وبعد أن رقص شعره على وقع نشيد الموج تجهم من جديد ..

هـا أنّ أزهـار الربيـع تبسمت أكمامهـا

أين التجهم اذن ؟

ترنو الى الشـفق البعيـد تغـرها أحـلامها

هنا فى (تغرها أحلامها) .. هنا توجس وطيرة ..

فى صدرها أمل ، يحدق نحـو هاتيك النجوم
لكنـه أمل ، سـتلحده جبـابرة الوجـوم

ألم أقل لك : لكأن بينه وبين الموت ترات ، فهو دائما يتخيلـه يترصده ، ويتحرش به .. مسكين شبابه يتفزع .. فى الحياة .. من الموت .. لقد بكيته عند بيتيه :

يا شعر ! هل خلق المنون بلا شعـور كالجماد ؟
لا رعشـة تعرو يديه اذا تملقـه الفـؤاد

أرأيت أزهار الربيع ، وقـد ذوت أوراقهـا
فهوت الى صدر التراب ، وقد قضت أشواقها

أرأيت شحرور الفلا ، مترنما بين الغصـون
جمد النشيد بصدره ، لما رأى طيف المنون ؟

فقضى ، وقد غاضت أغاريد الحياة الطاهـره

وهوى من الأغصان ؛ ما بين الزهور الباسره؟(١)

شلت يده ··· هذا الموت تمتد الى شباب ··

وهو حين يتسمع للألم أو لشعور الألم على وجه التحديد ، لا تقع عينه الا على مآسى الحياة ، فيطالعه أو تجره قدمه بوعى منه أو بغير وعى الى المقابر ، فيفزع من هول الفجيعة ·· فتاة يغيب أبوها فى الثرى أحوج ما تكون اليه فى دنيا الغاب ·· وحبيب فى ميعة العمر ينطفىء كالومضة وما درى بنائحة تتهاوى عليه جازعة تجأر (ويلى لمن يتركـــونه) ··· وتتوالى الصرخات فى أذن الشاعر · فهذه صرخة تمزق أقسى القلوب ·· نعم هى صرخة أم ريعت فى صغيرها ، وهذه أنة شريد ، وتلك شكـــاة بائس (٢) · وتتكاثر الآلام فى طريق الشاعر حتى لتكاد تسـد عليه طريقه ·· ومن انطباعاتها فى نفسه قصائده ·

مأتم الحب (٣) ، الكآبة المجهولة (٤) ، أيها الليل (٥) ·

شكوى اليتيم (٦) ، الزنبقة الذاوية (٧) ، السآمة (٨)

الدمـــوع (٩) ، أغنية الأحزان (١٠) الذكرى (١١)

مناجاة عصفور (١٢) المساء الحزين (١٣) ، بقايا الخريف (١٤)

أغنية الشاعر (١٥) ، فى فجاج الآلام (١٦) ، جدول الحب (١٧)

يا رفيقى (١٨) الى الموت (١٩) الى عازف أعمى (٢٠)

صوت تائه (٢١) نشيد الأسى (٢٢) ، قلت للشعر (٢٣)

---

(١) الديوان – قصيدة « يا شعر » ص ٣٨ ·
(٢) الديوان – قصيدة « فى فجاج الآلام » ص ٦٥ – ٦٨ ·
(٣) الديوان ص ٢٠ – ٢١ ·
(٤) الديوان ص ٢٢ – ٢٤ ·
(٥) الديوان ص ٢٥ – ٢٨ ·
(٦) الديوان ٢٢ – ٢٤ ·
(٧) الديوان ٢٩ – ٣٠ ·
(٨) الديوان ٤٤
(٩) الديوان ٤٦ – ٤٧ ·
(١٠) الديوان ٤٧ – ٥١ ·
(١١) الديوان ٥٣ – ٥٤ ·
(١٢) الديوان ٥٥ – ٥٦ ·
(١٣) الديوان ٥٩ – ٦١ ·
(١٤) الديوان ٦٢ – ٦٣ ·
(١٥) الديوان ٦٤ ·
(١٦) الديوان ٦٥ – ٦٨ ·
(١٧) الديوان ٦٩ – ٧٢ ·
(١٨) الديوان ٧٣ – ٧٥ ·
(١٩) الديوان ٧٦ – ٧٧ ·
(٢٠) الديوان ٧٨ – ٨٠ ·
(٢١) الديوان ٨١ – ٨٢ ·
(٢٢) الديوان ٨٣ – ٨٥ ·
(٢٣) الديوان ٨٦ – ٨٧ ·

أغانى التائه (١) ، الى قلبى التائه (٢) ، أكثرت يا قلبى ماذا تروم (٣) ، يا موت (٤) ، النبى المجهول (٦) الى الله (٥) صفحة من كتاب الدموع (٧) ، شجون (٨) ، طريق الهاوية (٩) الأشواق التائهة (١٠) ، أحلام شاعر (١١) ، قيود الأحلام (١٢) أنا أبكيك للحب (١٣) ، أبناء الشيطان (١٤) ، رثاء فجر (١٥) ، حديث المقابرة (١٦) ، فى ظل وادى الموت (١٧) ، قال قلبى للاله (١٨) الجنة الضائعة (١٩) ، أيتهـا الحالمة بين العواصـف (٢٠) ، الأبد الصغير (٢١) ، صوت من السماء (٢٢) ، الصباح الجديد (٢٣) ، نشيد الجبار (٢٤) ، زوبعة فى ظلام (٢٥) ، شكوى ضائعة (٢٦) ، فلسـفة الثعبان المقدس (٢٧) .

وهذه القصائد قد حشدت بألفاظ العذاب التى تبلغ ١١١٨ لفظا من مثل :

شجون ـ شقاء ـ ابتئاس ـ نوائب ـ البلايا ـ الرزايا ـ الارهاق ـ لظى ـ اليأس ـ الوجل ـ الهول ـ الويل ـ دامية ـ ضجيج ـ كئيب ـ غريب ـ أنين ـ حنين ـ حزين ـ اعتساف ـ اصطخاب ـ العذاب ـ ركود ـ تائه ـ حيران ـ النحيب ـ غصات ـ الحزن المذيب ـ دموع ـ هدها ـ لوعة ـ صرخت ـ قسوة ـ جهنم ـ ذكرى ـ قطوب ـ تتلوى ـ التعيس ـ المكروب ـ يطفح ـ لذع ـ تبرمت ـ كرهت ـ يعصف ـ لغـوب ـ الخطوب ـ تهاوت ـ تجرع ـ نوح ـ تنهدت ـ شوك ـ أوجاع ـ لفح ـ

---

(١) الديوان ٨٩ ـ ٩٠ .
(٢) الديوان ٩١ ـ ٩٢ .
(٣) الديوان ٩٣ ـ ٩٤ .
(٤) الديوان ٩٥ ـ ٩٧ .
(٥) الديوان ٩٨ ـ ١٠١ .
(٦) الديوان ١٠٢ ـ ١٠٥ .
(٧) الديوان ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٨) الديوان ١٠٨ .
(٩) الديوان ١١٠ ـ ١١١ .
(١٠) الديوان ١١٢ ـ ١١٣ .
(١١) الديوان ١١٤ .
(١٢) الديوان ١١٥ ـ ١١٦ .
(١٣) الديوان ١١٧ ـ ١١٨ .
(١٤) الديوان ١١٩ ـ ١٢٠ .
(١٥) الديوان ١٤١ ـ ١٤٣ .
(١٦) الديوان ١٣٤ ـ ١٤٠ .
(١٧) « ١٤١ ـ ١٤٣
(١٨) الديوان ١٤٦ .
(١٩) الديوان ١٤ ـ ١٥٠ .
(٢٠) الديوان ١٥٥ .
(٢١) الديوان ١٥٦ ـ ١٥٧
(٢٢) الديوان ١٥٨ .
(٢٣) الديوان ١٥٩ ـ ١٦١ .
(٢٤) الديوان ١٧٩ ـ ١٨١ .
(٢٥) الديوان ١٨١ .
(٢٦) الديوان ١٨٦ ـ ١٨٧ .
(٢٧) الديوان ١٩٢ ـ ١٩٤ .

(شعره قد احتوى على الكثير من اليأس في هاته الحياة والتمعض من آلامها وأظن أن هذا ما جاء للشابي الا من ناحية البؤس والشقاء والزهادة في الحياة وزينتها • فمن الواجب أن تكون تعاليم فلسفته في شعره ، وأن يكون شعره هو القيثار الذي يترنم بفلسفته وميوله وآرائه في الحياة • ومن ناحية أخرى ما كان يقاسيه من أوصاب وأمراض عضالة) (١) •

***

ما أحسب الشابي زاهدا في الحياة وان شقي بها •• وما كان ليتحسر عليها كل هذه الحسرات ، لو كانت هينة في عينه لا تستهويه •• ولقد جأر الشابي بالشكوى الى الله وأفصح عن أسبابها في شبه احصاء ، فلم تكن الزهادة من بينها •

ولعلك تراجع الأسباب معي :

أنت أنزلتني الى ظلمة الأرض وقد كنت في صباح زاه
ثم خلفتني وحيدا فريدا بين داع من الرياح ونـاء
أنت أنشأتني غريبا بنفسي بين قومي ، في نشوتي وانتباهي
أنت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكل الدواهي
بالأسى ، بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهي
بالمنايا تغتال أشهى أماني وتذوي محاجري وشفاهي
فاذا من أحب حفنة ترب تافه ، من ترائب وجباه (٢)

وبالطبع •• بعد هذا كله •

واذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهي
يتلاشى فوق الخضم ، ويبقى اليم كالعهد مزبد الأمواه

وحدة •• غربة •• دقة حس •• أسى •• سقام •• هم •• وحشة يأس •• شقاء •• منايا •• انه حشد من الأسباب ، وليس سببا واحدا كما يذهب في التعليل ناقد أو آخر ، كما فعل الأستاذ محمد الحبيب بن بلقاسم في عرضه لآلام الشابي فقد أشار الكاتب الى حب الشابي وقرر

---

(١) مجلة الامام ـ العدد الخامس ـ السنة ٣٢ بتاريخ ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٦ ـ ٣٧ •
(٢) الديوان ـ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ •

انه كان صدمة عنيفة ، ولكنه لم يشأ أن يعزو اليه حزن الشاعر وحجته أن (الشبان أو الشعراء الذين عانوا مثل تجربته فى مثل عمره كثيرون ، ولم تصطبغ أشعارهم بهذه الصبغة القاتمة) (١) • ومن ثم راح يبحث عن تفسير آخر لكآبته غير تفسير الحب ...

وقبل أن نعرض لتفاسيره الأخرى نحب أن نقول انه لا يتحتم مطلقاً أن يستوى جميع الشبان فى درجة الاحساس أو حرارته ازاء العاطفة المماثلة ، حزينة كانت أو سارة ..

بقى أن نرى سائر التفاسير على بينها ما يغنى أو يقنع ...

يقول لكاتب (أما أحواله الخاصة فقد كان فى درجة محمـــوده من العيش ، ولم يعرف عنه التهالك على حب ملذات الحياة ، وأما مرضه فقد صادفه شاعرا كامل الأداة فليس فى أحواله الخاصة كذلك ما يعلل أحزان هذا الشاعر • فاذا نظرنا الى أحـوال تونس الأخـــلاقية والاجتماعيـة والسياسية أيضا فاننـا نجدها تورث الحزن لا محالة • ولـكن كم هم الشعراء الذين زاملوا أبا القاسم الشابى ، ولم تستبدل تلك الأحزان بأشعارهم ؟) (٢) •

كل هذا فى نظر الكاتب « روافد متممات » انما ينبغى عنده (أن يطلب تعليل آلام هذا الشاعر فى داخل نفسه ، ويبحث عن التعريف بكآبته المجهولة فى نظرته للأشياء لا غير ، لأن البحث عن غيرهما غير مجد ، وتعليق هذه الآلام بأمور أخرى خارجة عن ذاته لا تسكن اليـه النفس) (٣) •

والكاتب يعنى بداخل نفسه : (يقظة شعور الشابى التى وكلت باحصاء ما يطوف حوالها) (٤) والكاتب يقدر أن الشاعر (لو عاش بهذا الشعور ولم يرافقه حنين الى حياة أخرى ، لكان من الراجح أن يشتمل شعره على اشراق وبهجة ، تنسينا أحيانا تلك الغيوم من السآمـة والضجر) (٥) •

أى أن حلم الشاعر بحياة أخرى أفضل يعزز عامل يقظة الشعور فى تلوين شعر الشابى بصيغته القاتمة وهو كما يبدو من صياغة الكاتب ليس

---

(١) مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى » ص ٣٣ •
(٢ ، ٣) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى »
(٤) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابى » من كتاب « ذكرى الشابى » •
(٥) ص ٣٥ من المصدر السابق •

من (الروافد المتممات) فحسب · ولكنه يتقاسم الأهمية مــع السبب الأوحد الذى التمسه الكاتب تفسيرا لحزن الشابى وهو يقظة الشعور ··

وعندى أن مرضه ، وفقد أحبته ، وتعاسة وطنه في أيامه ، ويقظة شعوره ، كلها عوامل لا يكاد يرجح أحدها الآخر فى تعليل ألمه بل انها تتساوى تقريبا فى الوصول الى هذا التعليل ···

بعد هذه الآلام الحادة كل سرور يغشيه الألم ، بل ان المحزون يثير السرور أشجانه كالألم سواء بسواء ·· فاذا بالسرور كما أبدع الشاعر في وصفه غمام زاه واذا به هدوء سطحي عارض ، على صفحـــة خضم يتلاشى سريعا في صخب الأمواه أحاطت به وضيقت عليه الخناق ·· وغير هذا يكون الزهد الذي يختاره صاحبه وله ندحة عنه من قدرة أو وفرة ·· ولكن شاعرنا يحب الحياة والمتعة والرفه ·· ولوع بأسباب السرور · ولكن ما حيلته فى الأسى والسقام والهم والوحشـــة واليأس والشقاء ، كلها اصطلحت عليه ، والتقى جمعها عنده ·· فلم تترك له الضيافة الثقيلة فسحة للاسترواح ، أو مجالا للسرور الخالص ، الذي يشتهيه ويتقتل عليه ··

***

ولا ننسى أن فى قلب الشابى جرحا غائرا يخيل اليه معه أن البرء منه بعيد ·· وهو يلح عليه حتى فى سبحات الشاعرية فيحـــد من انطلاقه ··

فيك ــ ان عانق الربيع فؤادي ــ تتثنـــى ســـنابلى وورودى
أنت ياشعرــان فرحت ــ أغاريدى ــ وان غنت الكآبـة ــ عـــودى

الشاعر يستبعد الربيــع والفرح ··· وليس أدل على السبـــخرية المرورة أو المرارة الساخرة ــ ان شئت ــ من اعلانه أن الكآبة تجسدته ، حتى لكأنها تمشى على قدميه ، وترى بعينيه ــ فان جاز أن تغنى الكآبة أي يغني هو فالشعر ·· عوده ··

ما أحوجه الى رثاء ··

وهو اذا طفح ألمه لا يعود يرى فى الدنيـــا الا ظلاما فى ظلام ، ويتنادى (الى الموت) ·

الى الموت · ان حاصرتك الخطوب ، وسدت عليك سبيل السلام
ففى عالم الموت تنضو الحياة رداء الأسى ، وقناع الظـــلام

وتبدو ، كما خلقت ، غضة يفيض على وجهها الابتسام
تعيد عليها ظلال الخلود ، وتهفو عليها قلوب الأنام (١)

ولكن هبه على حد تعبيره : حاصرته الخطوب وسدت عليه سبيل السلام ، ففى الحياة منافذ للسلوى والعزاء والاستعلاء ٠٠ أنا لا أقر شاعرا متفتح الشباب والموهبة ، على هذه النزعة ٠

وهو حين يرقرق الشعر للعازف المطبق الجفنين ، يأخذنى منه تهويله عليه الآلام (٢) حين توقعت منه أن يهون عليه ويغريه بالعزاء ، يجسمه له فى هبة الفن وسحر النغم ٠٠٠ ولكن الشاعر مفعم القلب بالمرارة ، فهو يرى أن الحياة ٠٠

قفر مروع ماؤه سراب
لا يجتنى الطرف منه الا عواصف الشوك والتراب
وأسعد الناس فيه أعمى لا يبصر الهول والمصاب

حسن تعليل كما يقول البلاغيون ٠ ولكنه فى نظر الحياة المتوثبة التى تطفر من المرح والأمل والبهجة ، ليس بالحسن ٠

وما يجهل الشاعر هذا أو ينكره ، فهو نفسه يتساءل :

ما للمياه نقية حولى ، وينبوعى مشوب ؟
ما للصباح يعود للدنيا ، وصبحى لا يؤوب ؟
مالى يضيق بى الوجود ، وكل ما حولى رحيب ؟
مالى وجمت ، وكل ما في الغاب مغترد طروب ؟
مالى شقيت ، وكل ما فى الكون أخاذ عجيب ؟
فى الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب
فاذا به يحيا ؛ وينبت رائق الزهر الرطيب
وهناك أنوار النهار تطل من خلف الغروب
فتخضب الأمواج ، والآفاق ، والجبل الخصيب
ان الوجود الرحب ، والغابات ، والأفق الخضيب
لم تخب أشواق الحياة بها ، فغادرها الخطوب
أما أنا ففقدتها ، والليل مربد ، رهيب
والريح تعصف بالورود فعشت سخرية الخطوب

(١) الديوان — قصيدة « الى الموت » ص ٧٧ ٠
(٢) الديوان — قصيدة « الى عازف أعمى » ص ٧٨ — ٨٠ ٠

ولكنه بعد هذه المعرفة ، ورغم هذه المعرفة يقول وكأن به اصرارا :

مهمـــا تضاحكت الحيـاة فانني أبـدا كئيب

(تضاحكت) لا يسلم بالضحك الخالص ولكنه كلفة وتضاحك !!

أصغي لأوجاع الـكآبة ، والـــكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البـلوى ، ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى ، وتجيش أمواج الـكروب
اني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضـطلعا بأحزان الشـبيبة والمشيب

ترى هل نقول معه :

يا اله الوجود ! مالك لا ترثي لحزن المعذب الأواه ؟

ان الله يغفر مثل هذه البادرات ... ولعل الشاعر ليس أدنى منه الى ربه ، والى قلوبنا في هذه الأبيات من سائر شعره :

قد تأوهت في سكون الليـــالي	ثم أطبقت في الصباح شفاهي
وتغزلت بالحيـــاة ، وبالحب	وغنيت كالسعيـــــد الـلاهي
وزرعت الأحـلام في قلبي الدامي	وحوطتها بكـــل انتبـــاهي
ثم لمـــا حصـــدت لم أجن الا	الشوك،ماذا ترى فعلت ؟الهي !(١)

لقد لج به الألم حتى غاصت في الطفح (يا) النداء ... انه في سعار يضيق بالحروف والكلمات ، الا ما يكاد يبلـــغ صوتـــه ويشيع صرخته ...

يا رياح الوجود ! سـيري بعنف	وتـــغني بصـــــوتك الأواه
وانفحيني من روحك الفخم مايبلغ	صوتي آذان هـــذا الالـــــه
فهو يصغي الى القوى ، ولا يصغي	لصوت بين العـــواصف واه
وانثري الورد للثلوج بـــدادا	واصعقي كل بلبل تيــــــاه
فالوجود الشقي غير جديــــر	بالأغاني ، وبالجمـــال الزاهي
واسحقي الكائنات كونا بكـــون	قبـــــل ان تنتهي آذل تنـــاه
فالاله العظيم لم يخلق الدنيـــا	ســوى للفناء تحت الدواهي (٢)

ان الشاعر الرقيق الناشج قد استحال الى عاصفة ، تدمـــدم ... تسخط وتسخر ...

(١ ، ٢) الديوان ــ قصيدة « الى الله » ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

خبروني هل للورى من اله راحم ـ **مثل زعمهم** ـ أواه
يخلق الناس باسما ويواسيهم ، ويرنو لهم **بعطف الهي**

لقد اعترف به ولما يفرغ من انكاره بعد ...

ويرى في وجودهم روحه السامي ، وآيات فنه المتنـاهي
انني لم أجده في هاته الدنيا ، فهل خلف أفقها من اله ؟

انه يتخبط في ظلام عابس مكفهر ... ويحه ! ما هذا ؟
ما الذي قد أتيت يا قلبي الباكي ؟ وماذا قد قلته يا شفاهي ؟
يا الهي ! قد أنطق الهم قلبي بالذي كان .. فاغتفر يا الهي
قدم اليأس والكآبة داست قلبي المتعب ، الغريب ، الواهي
فتشظى ، وتلك بعض شظاياه .. فسـامح قنوطه المتناهي
فهو يارب معبد الحق ، والايمان ، والنور ، والنقـاء الالهي
وهو ناي الجمال ، والحب ، والأحلام ، لكن قد حطمته الدواهي(١)

اذن هو قنوط حجب عنه الرجاء ....

أنر قلبه يارب ، وسامح قنوطه المتناهي
فهو يا رب معبد الحق ، والايمان ، والنور ، والنقاء الالهي
وهو ناي الجمال ، والحب ، والأحلام ، لكن قد حطمته الدواهي

***

ترى هل انتهت قصة حياته ؟ لعلك تقول : وماذا بقي فيها .. انها لا تعدو الخمسة والعشرين ربيعا .. نعم ولكنها يا صديقي حياة عريضة ، وان لم تكن طويلة .. ومن الناس من يعيشون حياتهم بالعرض فتبذ ـ على قصر فيها ـ حياة أولئك الذين يطوون الأيام الطويلة الرتيبـة ، كما يجتر الجمل غذاءه حركة مألوفة فلا جديد ..

لا تتعجلني الدليل ، فسآتيك به في فصول أخرى .

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الى الله » ص ١٠١

قلب شاعر

والشابى من الشعراء العشاق ، الذين شغل النقاد بهواه كما شغله هواه ‥ قال قوم : انها واحدة بعينها التى رقرق لها الغناء ، **وقال آخرون :** بل هى (المرأة) ٠ **وأقول والشواهد تتدافع نحو الصفحة لتقف معى :** ان فى حياته حبا كبيرا معينا يملأ دنياه ، ويوشى رؤاه ٠

فاذا ما لاح فجر ، كان فى الفجر سناه
واذا غرد طير ، كان فى الشدو صداه
واذا ما ضاع عطر ، كان فى العطر شذاه
واذا ما رف زهر ، كان فى الزهر صباه
فهو فى الكون جمال ، يملأ الأفق ضياه
وتوشى هذه الأكوان بالسحر رؤاه
وهو فى قلبى ــ الذى عانقه الفجر ــ اله
عبقرى السحر ، ممراح ، وديع فى سماه
ينسج الأحلام فى قلبى بأضواء الحياه
ويغنينى ، فأنسى فى مسرات غناه
كل ما فى الكون من حزن وأفراح عداه (١)

انه حبيب من الجنة فيه من الألق والعطر والرفيف والسحر ما يكفى الربيع والفجر والأصيل والشفق ٠

وعنده معبد للحب يستهوى ‥ يقع فى حضن الطبيعة ‥ هناك فى الغاب ‥ كل شىء هادىء ساكن ‥ كأنه يسترق السمع ‥ اصغ معى :

(١) الديوان ــ قصيدة « أنا أبكيك للحب » ص ١١٧ ــ ١١٨ ٠

وسكتنا ، وغرد الحب في الغاب . فأصغى حتى حفيف الغصون
وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكـــون
معبدا للجمال ، والحب شعريا ، مشيدا على فجاج الســـنين
تحته يزخر الزمان ، ويجرى صامتا ، فى مسيله المحـــزون
وتمر الأيام ، والحزن ، والموت ، بعيداً عن ظله المأمــون (١)

حتى فى خدر الحواس وغناء الحب يطارد الموت سبحاته وخيالاته ..

معبدا، ساحرا، مباخره الزهر، على الصخر، والثرى، والغصون

كل زهر يضوع منـه أريج — من بخور الربيع جم الفتون
ونجوم السماء فيــه شموع — أوقدتها للحب روح القرون

وقد لاحظ الأستاذ كرو أن هذا الحب الوئيد قد أحدث (فى حياة الشابى ، وفى أدبه انقلابا بعيد الأثر ، متعدد الجوانب والصور) (٢) .

وقد أنصف الرجل حين قال : (والواقع أن قصة حب الشابى لم تعرف فصولها بعد ، بل ان العنوان نفسه لا يزال مجهولا . وأحسب أننا لن نستطيع كشف هذه الفصول وجمعها بما يتفق والحقيقة التاريخية ، وبما جرى فعلا فى حياة الشاعر ، الا بعد الاطلاع على كافة تراث الفقيد الأدبى ، ومعرفة جوانب معينة من حياة الشابى الخاصة ، وكلا هذين يحتاج الى وقت طويل وجهد كبير . والى أن يتم كل ذلك سأظل مقتنعا كل الاقتناع بأن الشابى أحب فى حياته حبا حقيقيا صادقا ، وبأنه أغرم بفتاة معينة غراما عنيفا مشبوبا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان المملوءة بالحرارة والوجد ، ان هى الا صدى صادق لذلك الحب ، وتصوير رقيق لاحتراق الشاعر به وتمجيده له ، وعكوفه عليه) (٣) .

كتب الشاعر الى صديق ــ وما أصدق هذه الرسائل عندى وأخطرها فى تقييم الأثر الفنى واستشفاف نفس صاحبه من خلالها ..

أما رسالة الشابى فقد جاء فيها :

(أما هذه النفس فانها طائر معذب مطعون ، يسكب دماه فوق الصخور القاسية ، بين أشواك السبيل دون أن يظفر بعشه ،

(١) الديوان ــ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٣ .
(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٢ .
(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٦ .

الذى عبثت به العاصفة ولا بسربه الذى شردته النسور) (١)

العش والسرب .. أحلام بيضاء عمرها بعض ليلـــة .. أو هى حقائق كثيرة الوقوع ، ولكنها عزت على الشاعر الملهوف ، فبدت طيوفا ، ورؤى ومنى بعيدة ، يزيدها حر الشوق ووقدة الحرمان ، وبرودة الوحدة نعيما وروعة ، تأسر المتشوف بالفتنة الخلوب ..

ويشير الأستاذ السنوسى الى أن له حبيبة (وقـــد ماتت وتركته يندب « جدول الحب » ولنا علم اليقين أنه قد أصيب بمرض القلب من تلك الصدمة) (٢) .

ويخلص من هذا بعد صفحات الى أن شاعرنا (برغم الصدمة التى لقيها فى حبه العذرى ، اذ ماتت صاحبته الصغيرة ، فقد أحس فى نفسه بدماء الشباب ونفحات « الحب » تغريه . ثم يقرر فى يقين أن الشابى (كان زواجه سعيدا موفقا ..) (٣) .

وقد أورد الأستاذ السنوسى قصيدتى الشاعر ومطلع الأولى :

أراك فتحلـــو لدى الحـــياة ويملأ نفسى صباح الأمـــل

وأخرى مطلعها :

راعها منه صـمته ووجومـــه وشجاهـــا شحوبه وسهـــومه

على أنهما قيلتا فى زوجته ..

ثم يعود فى ص ٦١ ليؤكد أن زواج الشابى كان (فى آخر أخريات عمره ، قد أحس معه بالسعادة التى خففت من تجهم شعره . ثم كان لحملها وولادة ابنه الأول والثانى أثر أعظم قد ظهر بالاشراق على أدبه) .

ولكن الدكتور شوقى ضيف يرى فى هتاف الشاعر المعول « بالحب الفقيد رأيا آخر قد يبدو غريبا . فعند الدكتور شوقى ضيف أن هذا الحب الذى يرثيه مع قلبه **ليس الا حبه للحياة** (وما حبيبته التى يرثيها

---

(١) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٩٠ ــ ٩١ .

(٢) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٢٤ .

(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٢٩ .

في شدوه الا دنياه ، وما يتألق في بصره من جمالها الذى يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله) (١) .

وناقد آخر يرى أن الشابى انما كان يحب المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ، ودليله أن الشاعر (لا يذكر امرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها ، وانما يذكر المرأة والحب ، ويسبغ عليهما من روحانيته العميقة كل المعانى الرقيقة والأفكار السامية التى تضاهى فى الأفلاطونية أسمى ما كتب عن هاته الأغراض) (٢) .

ليت الأستاذ الحليوى صاحب هذا الرأى يقرأ معى لشاعرنا الرقيق البهاء زهير الأبيات العذبة :

رد السلام رسول بعض النـــاس	بالله قل يا طيب الأنفـــاس
رد السلام وذاك عنوان الرضـــا	بشراى قد ذكـــر الحبيب الناسى
وأنزه اسمك أن تمر حروفـــه	من غيرتى بمســـامع الجـــلاس
وأقول بعض الناس عنك كنايـة	خوف الوشاة وأنت كل الناس(٣)

ويقول الأستاذ خليفة محمد التليسى ..

(... والشعر الذى قاله فى المرأة لا نستطيع أن نعثر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التى تنفرد بها . أقول هذا وأنا على بينة من المذهب الذى اتبعه الشابى فى شعره . فقد أخذ من الشعراء القـــدامى سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التى تميز امرأة عن أخرى . ولو كانت هناك امرأة معينة تختفى وراء هذا القصيدة ، لما صح أن تترك شعره دون أن تسمه بميسم خاص يستطيع معه القارىء التعرف على شخصيتها بوضوح) (٤) .

(وحقيقة يخطىء فيها كثير من الباحثين ، وهى عدم تمييزهم بين هذه النغمة التى تصدر عن الحرمان فلا تصـــور الا اللهفـــة والحنين والشوق ، وتسبغ على المحبوب كل صفات الرقة والجمال ، وبين هذه النغمة التى تصدر عن الحب ، حب الذى عرف المرأة وعاشرها ففهمها وفهم طباعها ، فلم يزد فى التشبيب بها على وصفها بصفاتها المميزة لها (٥) .

---

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٥ .
(٢) كتاب « مع الشابى » للأستاذ محمد الحليوى ص ٧٤ .
(٣) ديوان أبى الفضل بهاء الدين زهير ص ١٠٩ .
(٤ ، ٥) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

ولكن الناقد لم يبين لنا أى لون من الحرمان ، ذلك الذى يعزو اليه تحرق الشابى ولهفته ·· ان الحرمان لونان ·· حرمان ملتاح يتخيل ولا يجد ، وحرمان مشتعل يجد ولا ينال ··

واذا كان مضمون كلام الناقد يرجح ميله الى اللون الأول من الحرمان فانى أزكى اللون الثانى ، وهو عندى أورى نارا وأقدر على ارسال (صلوات فى هيكل الحب ··) ويعزز هذا سيرة الشابى ، وشبه الاجماع المنعقد على وجود حبيبة له صوح بها الموت فى أعياد الربيع ··

وناقد آخر يرى أن (الشابى لم يكن يحب حبا ماديا ، يبغى به قضاء وطر أو وصال حبيب ·· بل كان قلبه يخفق بحب روحى علوى ، يتمثل له فى مشاهد الطبيعة الساحرة وفى مناظرها البهيجة) (١) ·

ولكننى من دراستى الموضوعية أقف الى جانب الرأى القائل : بأن الشابى كان يحب امرأة بعينها ، رفع اليها صلواته فى هيكل الحب ، فهذه الحرارة والدفق والبهر لا تنبعث جميعا ، وبهذه القوة والعمق والذهول الا من قلب عميد ··

***

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ... كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من طهارة ، تبعث التقديس فى مهجة الشقى العنيد
يا لها رقة تكاد يرف الورد منها فى الصخرة الجلمود
أنت ·· ما أنت ؟ أنت رسم جميل ... عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق ... وجمال مقدس معبود
أنت ··ما أنت؟ أنت فجر من السحر ... تجلى لقلبى المعمود
وتبثين رقة الشوق ، والأحلام ... والشدو ، والهوى ، فى نشيدى
أنت أنشودة الأناشيد ، غناك ... اله الغناء ، رب القصيد
خطوات ، سكرانة بالأناشيد ... وصوت ، كرجع ناى بعيد
وقوام ، يكاد ينطق بالألحان ... فى كل وقفة وقعود
كل شىء موقع فيك ، حتى ... لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
أنت ·· أنت الحياة ، فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشجى الفريد
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام ... والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن ... وفوق النهى ، وفوق الحدود

---

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى ص ٥٩ ·

أنت قدسي ، ومعبدي ، وصباحي وربيعي ، ونشوتي ، وخلودي (١)

رحيق يحتسى في صمت معسول ... كافرة بالفن أنا ان حاولت له شرحا أو تحليلا ..

وهو يرسم للقاء صوراً مونقة تغرى بالحب شيوخ الرهبان ...

أراك ، فأخلق خلقا جديداً كأني لم أبل حرب الوجود
ولم أحتمل فيه عبئا ، ثقيلا من الذكريات التي لا تبيد
وأضغاث أيامي ، الغابرات وفيها الشقى ، وفيها السعيد
ويغمر روحي ضياء ، رفيق تكلله رائعات الورود
وتسمعني هاته الكائنات رقيق الأغاني ، وحلو النشيد
وترقص حولي أمان ، طراب وأفراح عمر خلى ، سعيد (٢)

أفراح غامرة لا شك ...

أراك فتخفق أعصاب قلبي وتهتز مثل اهتزاز الوتر
ويجرى عليها الهوى ، في حنو أنامل ، لدنا ، كرطب الزهر
فتخطو أناشيد قلبي ، سكرى تغرد تحت ظلال القمر
وتملؤني نشوة ، لا تحد كأني أصبحت فوق البشر
أود بروحي عناق الوجود بما فيه من أنفس ، أو شجر
وليل يفر ، وفجر يكر وغيم ، يوشى رداء السحر (٣)

ان الشاعر لم يعد من طين .. من لحم ودم .. جماعه الآن روح شفافة .. هفافة مجنحة .. أثير يهفو الى الليل والفجر والغيم والشجر .

ومن عجب أن هذا الفن لم يسلم من الغبن فكاتب كالأستاذ فروخ لم يكد يسلم في ص ١٨٨ بأن الغزل فن عظيم عند الشابي ، حتى ندم في الصفحة المقابلة ص ١٨٩ وقال (أكثر هذا الغزل عادى صريح ، ضعيف الخيال والبناء ، كثير التقليد) (٤) .

وفي ختام فصل (الغزل عند الشابي) يقول الناقد (ان كثيراً من الذين أحبوا حبا صادقا ثم أصابتهم صدمة في حبهم هـذا قد انقلبوا

---

(١) صلوات في هيكل الحب ص ١٢١ ــ ١٢٣ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « أراك » ص ١٢٥ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « أراك » ص ١٢٦ .
(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ .

منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى متهتكين ، ويبدو أن الشابي ــ مما ترى من شعره على الأقل ــ كان من هؤلاء) (١) ٠

هكذا كانت بداية الفصل ، وهكذا كان الختام ! وفى أى موضوع ٠٠ فى الغزل الذى يعده الناقد أحد فنى الشاعر العظيمين (٢) ٠ والذى يعد الأستاذ محمد فهمى أحد قصائده فيه ، قصيدة « صلوات فى هيكل الحب » (عروس قصائد هذا الشاعر ، بل عروس جميع القصائد الغزلية فى الشعر العربى) ٠ تلك القصيدة التى يراها الأستاذ التليسى بحق (أرفع صلاة توجه الى امرأة فى أدبنا العربى ، قديمه وحديثه) (٣) ٠ ولكنه الأستاذ عمر فروخ ٠

ولكن هذا الحب الذى طار به على أجنحته الى آفاق من نور ، ليست من طبيعة الناس ولا هى من دنياهم ٠٠ هذا الحب نفسه استولت عليه السماء ، فظل هناك وأقفرت منه يد الشاعر ٠٠ ولما ريع بالفقدان ، هوى على الأرض حطاما ، فيه دماء من روح تسخو بالدموع ، ولا تكف عن ذكر الحياة والموت ٠٠ الحياة التى تعيش فيها مثخنة بالجراح ، والحياة التى أصبحت ذكرى ٠٠ والموت الذى رأته رأى العين ، يطبق عليها وينتزع منها حبيبها ، ويمضى هو به ، حين يترك لها الشرود والدموع ، والزفرات المحرقة ، والعذاب ٠ ولكنه ــ على بشاعته ــ حين تركها جمرة تتلظى ، ضمن لها الوقود الذى يحفظ عليها الوهج والضوء ، ومعانى الحياة ٠٠٠ فان للحياة والموت فى شعر الشابى صدى بعيدا ، جعلهما ظاهرة من الظاهرات الكبرى فى شعره ٠٠

فاذا انقطع هذا الفصل هنا فلأنه سيتصل فى فصل (الحياة والموت فى شعر الشابى) ٠٠ سيتصل فى أكثر من موضع ، فان حب الشاعر بما اكتنفه من وجدان وفقدان ، ألهمه الكثير من حكمة الحياة والموت ، مما يلقى ظلالا على فصول أخرى أيضا غير فصل (الحياة والموت) ٠٠

كان حبه حيا وميتا ، مفتاح الكثير من شعره ٠٠ امض معى ٠٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٩ ٠

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨ ٠

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٥ ٠

الحياة والموت في شعر الشابي

تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ان مظاهر عشق الشابى للموت تنتشر عبر شعره) (١) . ويلتقى مع نازك كاتب آخر يرى الشاعر (مقبلا على الموت اقبالا ايجابيا واعيا ، راجيا أن يجد فى صدره الراحة من هذا العالم المظلم) (٢) ..

وكاتب يقول (ان أبا القاسم ما انفك يحيى فى شعره ، مشكلة الموت باعتبار أن الموت ينقذه من الشقاء ، ويفتح فى وجهه أبواب الجمال السرمدى . وبذلك أيضا يتضح لنا أن تشاؤم أبى القاسم بالحياة انما ينطوى على تفاؤل بما بعد الحياة . وبما أن الوجود السرمدى ، يمثل القيم القصوى من حيث الحقيقة والجمال ، فان تفاؤل أبى القاسم به ، يحور تماما معنى تشاؤمه بالحياة البشرية) (٣) .

وقد قرأت ديوان الشابى قراءة مستأنية دارسة ، فلم أر الا استعلاء فقط .. عندما أيقن أنه سيخترم سريعا ، حاول أن يصرف نفسه عن مرارة الكأس أو يهون هذه المرارة على الأقل .. ولكنه أبدا ما عشق الموت ، وما كان الموت ليعشق حتى ولو شقيت الحياة .. ولا أحاج هنا بالمنتحرين ، فهؤلاء المنهارون لم يستحضروا الموت حبا ، أو لماذا .. ولكن ضعفا وخوراً وحربا .

يا موت ! ماذا تبتغى منى وقد مزقت صدرى ؟

---

(١) مجلة الآداب العدد السابع السنة الثانية ـ يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٥

(٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠٢ .

(٣) مقال « الشابى وتجربة الفجر البعيد » للأستاذ الشاذلى القليبى مجلة الندوه عدد ١٠ السنة الأولى . أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

ماذا تود ، وأنت قد سودت بالأحزان فكرى
ان كنت تطلبنى فهات الكأس ، أشربها بصبر
أو كنت ترقبنى فهات السهم ؛ أرشقه بنحرى
خذنى اليك ! فقد تبخر فى فضاء الهم عمرى
خذنى اليك ! فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمر (١)

ما رأيك ؟ .. ان شقاءه كله أخف بلاء من الموت ... الأمر ...

***

وقد رأت نازك رأيها من خلال تعبير الشابى عن الموت بأنه (ذوبان فى فجر الجمال) من قصيدة (هكذا غنى بروميثيوس) ..

ولكن مطلع القصيدة يفسر هذا التعبير الذائب فى فجر الجمال .. فالقصيدة تستهل بالتحدى . تحدى العزيز المغلوب على أمره ، فهو يحس الواقع احساسا عميقا حتى اذا برح بــه الألم .. الألم النفسى خاصة ، عكس الواقع المحسوس ، كمن يخادع نفسه ليهرب من أحاسيسها . والشاعر فى هذه القصيدة له عدوان عداوتهما غير خافية فلا جدوى للكتمان .. الداء والأعداء .. الداء يفتك به ويستل منه الحياة بضعة بضعة ، والأعداء تتربص به لتشمت فيه .. ما حيلته فى هذا كله ان لم يكن فى الحر استعلاء ؟ ومن طبع الاستعلاء أن يستبض الخير من الشر ان عجز عن تحويله . وهكذا صنع الشاعر وكأنه يقول للأعداء : لا تظنوا أنى سأموت موتا حقيقيا ، ينطمس معه اسمى كجسمى ، ولكنى سأعيش رغمكم ورغم الداء ، أى سأخلد بفنى .. ان الموت ليس نقمة تحل بى دونكم .. ان هو الا ذوبان فى فجر الجمال ..

وأقول للجمع الذين تجشموا هدمى ، وودوا لو يخر بنائى
من جاش بالوحى المقدس قلبه لم يحتفل بحجارة الفلتاء

رحم الله الشابى .. لقد كان يذوب حسرة على نفسه التى تنداح ، على الأيام .. ولأمر ما كرر لفظة الحياة فى شعره ١١٦ مرة ..

ويرى أحد النقاد أن (الألم الذى يقطر فى كثير من قصائده الأولى ، انما هو نتيجة لخوفه من الموت ، فلقد كان يراه شبحا مخيفا لا يبقى على شىء من آمال الانسانية) (٢) .

---

(١) الديوان ـ قصيدة « يا موت » ص ٩٦ .
(٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠١ .

كانت الحياة عنده نعمة غالية ، لا يطيق أن يذكـره الداء البغيض بزوالها ‥ آه ! لو استطاع أن يجمع عليها يده ، كما نفعل عند امتلاك جوهرة في حضرة لص مفتوح العين ‥ اذن لما أفلتت من انطباقة اليـــد الولوع ··· ولكن لص الشاعر أمهر من كل حريص ‥ انه الموت الذى يدرك ضحيته أينما تكون ، ولو تحصنت بالبروج المشيدة ··· الموت الذى كان الشاعر فى فزع دائم منه ‥ **ومع الفزع حسرة دامعة · فالحياة لا تعبأ بذاهب ، بل تجرى فى سيرها المألوف كأن لم يحدث شيء :**

والدهر يدفن فى ظلام الموت حتى الذكريات (١)

اذن ليس للميت عزاء حتى من ذكرى ‥ يا ضيعة الشباب ، والشاعرية ، والآمال ، والأشواق يغتالها الموت من الشاعر · ويغتاله معها ‥

والموت تحفر ــ أينما يخطو ــ المقـــابر واللحود
وتمـــر بين فجاجها اللذات ، حالمـــة ، تميـــد
سكرى ‥ وأشواق الورى ترنو الى الأفق البعيد
وتظل ترقص للأسى ، للهـــو ، أشبـــاح الدهـــور
حتى يواريهـــا ضباب الموت فى وادى الدثـــــور
وتظـــل تورق ، ثم تزهـــر ، ثم ينشرها الصباح
للموت ، للشوك الممزق ، للجداول ، للريـــاح
بسمات ثغر ، حالم ، يفتر فى ســـــهو السرور
وورود روض ، باسم ، يصغى لألحـــان الطيــور
وتظل تخـفق ثم ، تشــدو ، ثم يطويهـــا التراب
قبل ، وأطيـــــار ، تغرد للحياة ، وللشبـــاب
وتظل تمشى فى جـــوار المـــوت أفراح الحياة

هل هو احساس خفى بمصيره العجلان ؟ عذاب لا شك ‥ هــذا الاحساس ، ولكنه ككل شيء فى الدنيا لا يخلو من الخير ــ يحفز صاحبه فى أحيان كثيرة الى الجود بذخر نفسه سريعا ‥ سريعا قبل القطاف ··· ولعل من هؤلاء الشاعر أو هو كذلك فى تقديرى ·

وهذا الاحساس بالقطاف وبالهدر ‥ بالغبن ‥ بحرب الزمان ‥ كل هذا تعكسه مقطوعته (قال قلبى للاله) (٢) :

---

(١) الديوان ــ قصيدة « قلب الأم » ص ١٣٣ ·

(٢) الديوان ص ١٤٦ ·

في جبال الهموم ، أنبت أغصاني	فرفت بين الصخور بجهد
وتغشاني الضباب ٠ فأورقت	وأزهرت للعواصف ، وحدى
وتمايلت في الظلام ، وعطرت	فضاء الأسى بأنفاس وردى
وبمجد الحياة ، والشوق غنيت	فلم تفهم الأعاصير قصدى
ورمت للوهاد أفناني الخضر ،	وظلت في الثلج تحفر لحدى
ومضت بالشذى فقلت : ستبنى	في مروج السماء بالعطر مجدى
وتغزلت بالربيع ، وبالفجر	فماذا ستفعل الريح بعدى

(فماذا ستفعل الريح ؟) وهم ملح يطارده حتى في نشوة الحب يرتعد فجأة من خاطر يلوح ٠٠٠

الحب جدول خمر ، من تذوقه	خاض الجحيم،ولم يشفق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة ، فما	خوفي اذا ضمني قبري؟ومافرقي؟(١)

يخفي خوفه فيعلنه ٠٠ لقد صرح به وما درى ! انه يرتجف فزعا من القبر ٠٠ ما أتعسه ٠٠ اشتهى الحياة فاخترم ولما يبلغ وطره من الحياة ٠٠٠

الحب غاية آمال الحياة ، أحقا هذا أم عزاء ؟

وفي معبد الحب ، تحت الغصون ، تخفف الشاعر من همومه المركومة ٠ وأقبل على الهوى ظامئا لهفان ، ينهل منه ويعل :

٠٠٠ وسكرنا هناك ٠٠٠ في عالم الأحلام
تحت السماء ، تحت الغصون

وتوارى الوجود عنا بما فيه وغبنا في عالم مفتون

لا تصدق فأعصابه مشدودة ، لا يخدرها شيء ودليلي بيته :

ونسينا الحياة ، والموت ، والكون وما فيه من منى ومنون (٢)

أين هو النسيان ، أعني النسيان التام الكامل ، الذي لا يتذكر ولا يحفل بالذكر ٠٠ رحمه الله ٠٠ كان يحس دائما أنه فريسة للموت يطارده أينما كان ٠٠ حتى في الغاب ٠٠ حتى في معبد الحب ٠٠

احساس بالمطاردة أراه ، وتراه ثائرة الملائكة مظهراً لعشق الشابي

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الحب » ص ٤٥ ٠

(٢) الديوان ــ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٤ ٠

الموت ! والا فكيف يذكره (عندما يتحدث عن الجمال والحياة والشباب والأمل والربيع فى قصيدة (تحت الغصون) :

فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت : للضياء البنفسجي الحزين
للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى ، للمنون

ولكن هذا عندى من الحاح وهم الموت عليه ·· وقد تساءلت الباحثة نفسها (أكان الغرام بالموت يتصل بالوفاة المبكرة عن طريق الايحاء على وجه ما ، أم كان نتيجة لادراك غامض للموت المبكر الذى ينتظره فى زاوية المستقبل القريب ؟) (١) ·

بل خرجت عن التساؤل الى التقرير حين قالت (ولعل هذه الحقيقة تبيح لنا أن نعتقد أن هذا الولع الذى صبه شعراؤنا على الموت ، كان يتضمن ادراكا باطنيا سابقا للخاتمة المبكرة ، تسوقهم اليه ملاحظتهم الخفية لانعدام التوازن بين المبذول من طاقتهم العاطفية ، والرصيد الكامل منها فى كل حياة انسانية · وكأن الواحد منهم كان يشعر بأنه يقتل نفسه شيئا فشيئا ، حينما يسرف فى طاقة الانفعال) (٢) ·

وأرى أن هذا بعينه هو الذى حملهم على تجميل الموت ليهون عليهم البذل ولعلهم فعلوا هذا لا اراديا ·· أو لعله دفاعا عند من يرون انفعالاتهم (حماقة) (٣) وكأنهم يقولون لهم : لتؤد هذه الانفعالات الى الموت ·· ماذا فى الموت ؟ ·· انه (ذوبان فى فجر الجمال) فما لكم أنتم ؟ انه على كل حال خير من حياة راكدة آسنة عفنة ، لا حركة فيها ولا نبض ولا انتفاض ··

ولكن يظل الموت بعد هذا كله حقيقة مرة مبغضة ·· عند الشابى وعندى أيضا :

حقيقـــة ، مــرة ، ياليــل ، مبغضـة
الموت ، لكن اليها الورد والصـــدر (٤)

قد تقول : كيف يرهب الموت وهو يناديه ؟ تعال ·· أليس القائل :

(١ ، ٢) مجلة الآداب ــ العدد السابع ــ السنة الثانية ــ يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٦ ــ ٨ ·

(٣) تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ولا شك فى أن هذا يلوح حماقة للمتوسطين من الناس وهم أغلبية البشر ··) مجلة الآداب يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٨ ·

(٤) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٧ ·

وزد الحيـــاة مرنق ، والمـوت مورده معين
ولربما شـــاق الردى الداجي ، وأعماق المنـون
قلبا ، تروعه الحياة ، ولا تهادنه السنـــــون
ومشاعرا حسرى ، يسير بها القنوط الى الجنون (١)

كلا يا صاح .. هذه انقباضة اليأس ، وما كان يمض هذه المضاضة لولا شغفه المنهوم بالحياة وأفراحها ...

لقد هتف بالحياة ... بالأمل ... ٣١٥ مرة فى ديوانه ظفرت لفظة (الحياة) وحدها بـ ١٦ موضعا .. فعينك تأخذ فى لمحة مثل هذه الألفاظ فى قصيدة : الأماني ــ سرور ــ السلام ــ ابتسام ــ نغم ــ الجمال ــ الطروب ــ بهجة ــ نشيد ــ الرجاء ــ الأفراح ــ خمر الحياة ــ يبنى ــ الحب ــ شوق ــ رقص ــ غناء . أليست هذه الألفاظ لبنات الحياة البناءة الآملة الراغبة ؟ ..

حقا ، لقد ذكر الموت ١٢٥ مرة في ديوانه وهـــو كثير ، ولكن الموسنوس لا يفتأ يردد الوهم الذى يعاوده ..

ولو أخذنا بدلالة العدد فلا ندحة عن التسيلم بغلبة الحياة على الموت فى شعوره وشعره .. ان الحياة لم تفز بـ ٢١٥ لفظا فحسب ، بل ان فى رصيدها ١٦١ لفظا آخر ، هى ألفاظ القوة والاستشراف فى الديوان مثل : مجد ــ يثأر ــ الحق ــ الحسام ــ القوة ــ تشتعل ــ اليقظة ــ أجج ــ يثير ــ الجسور ــ أجنحة ــ متدفع ــ هب ــ بأس ــ اباء ــ أضرم ــ العز ..

أليست القوة والاستشراف من معانى الحياة ؟ من مقوماتها الأصيلة ... أليست القوة والاستشراف مساك الحياة الكريمة ، على صاحبها وعلى الناس ؟

وهو يعترف بالحياة والأمل اعترافا صريحا سافراً :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ــ ومشاعرى عمياء بالأحـزان ـ
أنى سأظمـــأ للحياة ، وأحتسى من نهرها المتوهج النشـوان
وأعود للدنيـا بقلب خـافق للحب ، والأفراح ، والألحـان
حتى تحـركت السنون ، وأقبلت فتن الحياة بسحـرها الفتان
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيـان
ان ابن آدم فى قـرارة نفسـه عبد الحيـاة الصادق الايمان (٢)

---

(١) الديوان ــ قصيدة « الذكرى » ص ٥٤ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الاعتراف » ص ١٨٢ .

انها الأحزان التي تعمي الحواس ٠٠ ولكن الشاعر في قرارة نفسه كلف بالحياة مولع ٠٠ ولا أستطيع أن أتقبل بسهولة عزو أحد الكتاب احساس الشاعر بالغربة الى ايمـانه بعالم المـوت (١) ! ولم لا يكون احساسه بالغربة وليد شعوره بالتفرد والامتياز ، الذى يجعل اندماجـه بمن حوله صعبا عليه وعليهم أيضا ٠ فهو غريب بينهم وهم غرباء ؟

انه ينكر التشاؤم فهل هو متفائل ؟ وكيف يتفاءل من يحيق به الداء والأعداء والغبن برحيل الأحبة ؟ كيف يتفاءل من يرى قومه يغطون فى سبات عميق والمظالم تتخطفهم من كل جانب ؟ كيف يتفـاءل من يعيش بقلب صريع غالى بحبه ، حتى رفعه الى منازل التقديس (٢) ، فاذا به وسط قهقهة القدر الساخر ، يوسده الثرى ويودعه التراب فيصير حفنة من تراب ٠٠٠ والوداعة والجمال والشباب المنغم والرقة ، التى يكاد يرف الورد منها فى الصخرة الجلمود ، والخطو الموقع كالنشيد والصوت الحالم كرجع ناى بعيد ٠٠ أين أين ؟ كل هذا أيضا حفنة من تراب ؟ عـلام التفاؤل ٠ اذن ؟ وما جدوى الحياة نفسها ؟ فى رأيه على الأقل ٠٠

لقد عاش الشاعر فهو ابن الحياة والأم حبيب وان عنفت ، جميلـة وان شاهت ٠ ومات الشاعر فى حياته أو مات بعضه فى أبيه وحبيبته فالموت غريمه ٠٠ وقد خلق شاعراً فامتلأ شعره بالحياة والموت ، واذا أنت فى حضرته تتزاحم على سمعك أصوات مختلفة ، فبينما الضحكات ترن فى جانب من الديوان ، اذا بالنحيب يعلو فى جانب آخر ٠٠ هنا دمعة وشهقة وزفرات ، وهناك روعة وخفقة وبسمات ٠ ولا أحسب أحدا تجتمع له العوامل التى اجتمعت للشابى ثم يفعل غير ما فعـل ٠٠ ويلتقى بى الأستاذ خليفة محمد التليسى هذه المرة فيقول :

(على أن الشابى ظل عميق الحب للحياة ، وليس تشاؤمه الا صورة من صور النقمة على الأوضاع المريضة التى كان يعيش فيها مجتمعه ٠ وهو ينطوى على الرغبة فى الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة ٠ أكثر مما ينطوى على كراهية الحياة) (٣) ٠

---

(١) اقرأ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ٠

(٢) أنت من ريشـة الالـه ، فلا تلـقى بفن السـما لجهل العبيد
أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبـدى من بعيـد
الديوان ــ قصيدة « أيتها الحالمة بين العواصف » ص ١٥٥ ٠

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠٩ ، ١١٠ ٠

(ومجمل الرأى أن الكآبة التى تطغى على شعر الشابى انما صنعها عصره بما كان يشيع بين شبابه من ألوان الحزن ، وصنعها مزاجه الموروث وبيئته التى كانت ترسف فى تقاليد الأجيال الغابرة ، وقراءاته الرومانسية ومرضه العضال) (١) ٠

ويقول كاتب آخر :

(لعل الأقرب الى الواقع أن نقول : ان الشابى كان يحب الحياة حبا مثاليا رفيعا ، كما يحب الناس حبا خالصا ساميا ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها الشوق الصادق والتعبد النزيه) (٢) ٠

ولكن واقع الشابى المزدوج لابد أن يخلف انطباعاته على نفسه ورأيه وشعره ، لابد أن يكون له فلسفته الخاصة به أو نظرات فى الحياة والأحياء ، وان كان يحلو للبعض أن يطلق عليها « فلسفة » بمعنى مذهب ، بل غلا بعضهم فأضفى عليها صفة التمام والكمال ٠ فالأستاذ الحليوى يرى فى دهشة العجب ، أن الشابى (ترك لنا فلسفة تامة متصلة الأطراف ، على قصر حياته ، وقصر الزمن الذى اشتغل فيه بالأدب ، وعجيب حقا أن يصل المرء بمحض مجهوده الفردى وعقله المجرد ، فى مدى عشر سنوات الى بناء فلسفة فى الحياة تامة الحلقات ، لم يقلد فيها الا نفسه ، ولم يصف الا ما رأى وما جرى حوله من الأحداث ، وما اغترفه فى قلبه ، فى ذلك الأبد الصغير ، من دنيا محجبة وظاهرة ٠٠) (٣) ٠

هنا غلب الصديق الباحث العلمى فى الناقد ، فليست نظرات الشابى فى الحياة والحى ، فلسفة بمضمونها الصحيح ، ولكنها تأملات واعية ، ونفاذ فحسب ، لا فلسفة قائمة متكاملة أو تامة الحلقات ، كما يغالى الأستاذ الحليوى فى تقديره ٠٠

ويقسم كتاب الحركة الأدبية والفكرية فى تونس الشعر الوجدانى فيها الى مسلكين ٠٠٠ المسلك الحكمى والمسلك الغزلى ٠ فيتخذ (للمسلك الحكمى مثالا أبا القاسم الشابى) (٤) ٠

وأدنى الصواب عندى ما يراه الأستاذ محمد بدوى فى فلسفة

---

(١) المرجع السابق ٠

(٢) مقال « الشابى وهذه الحياة » للأستاذ عبد الله شريط ــ مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى أكتوبر ٥٣ ص ١٠ ٠

(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٨٥ ــ ٨٦ ٠

(٤) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ٠ اقرأ ص ١٧٨ ٠

الشابي الخاصة ـ والفلسفة هنا كما سترى بمعنى الرأى .. الاتجاه الشخصي ... يتركب (من عنصرين هما مزاج السرور والأحزان ، أو بتعبير آخر نشوة اللذة التي تعقبها مرارة الألم) (١) .

أى أنه شاعر يعيش بالشعور وللشعور كما يقول .. فهو يرسل الحكمة كما يرسل الدمع كما يفتر عن الابتسامة ... وراء كل حالة شعور ما يلون رأيه وتفكيره ... وكثيرا ما تكون له نظرات نافذة وآراء واعية ، أنضجتها التجربة وطول الفكرة ، على طراءة السن وفوعة الشباب :

ما قدس المثل الأعلى وجماله ... في أعين الناس الا أنه حلم
ولو مشى فيهم حيا لحطمه ... قوم ، وقالوا بخبث : (انه صنم)
لا يعبد الناس الا كل منعدم ... ممنع ، ولمن حاباهم العدم
حتى العباقرة الأفذاذ ، حبهم ... يلقى الشقاء، وتلقى مجدها الرمم(٢)

ويطيب له أحيانا أن يرسل الحكمة على طراءة عمره . ولكن لعل له فى التجربة عمرا ثانيا يمده فيقول :

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما ... في كفها الغار ، أو في كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئدا ... غنت لك الطير ، أو غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ... والجم شعورك فيها ، انها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ... ومن تجلد لم تهزأ به القمم (٣)

بل ويصطنعها احيانا كقوله :

اذا صغرت نفس الفتى كان شوقه ... صغيرا ، فلم يتعب ، ولم يتجشم
ومن كان جبار المطامع لم يزل ... يلاقى من الدنيا ضراوة قشعم (٤)

ومن شعره الفلسفى قوله :

ضحكنا على الماضى البعيد ، وفي غد ... ستجعلنا الأيام أضحوكة الآتى
وتلك هي الدنيا ، رواية ساخر ... عظيم ، غريب الفن ، مبدع آيات
ولو مشى فيهم حيا لحطمه ... ووسط ضباب الهم، تمثيل أموات
وكان يؤدى دوره .. وهو ضاحك ... على الغير، مضحوك على دوره العاتى(٥)

---

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ محمد بدرى ص ٢١ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « الناس » ص ١٧٨ .
(٣) الديوان ـ قصيدة « السعادة » ص ١٥١ .
(٤) الديوان ـ قصيدة « متاعب العظمة » ص ١٤٦ .
(٥) الديوان ـ قصيدة « الرواية الغريبة » ص ١٦٤ .

ومن هذا الطراز قصيدته (شكوى ضائعة) ٠

وفى سهمة من حيرته وشروده يتساءل كالذاهل :

نحن نمشي ، وحولنـا هاته الأكوا
ن تمشي ٠٠ ، لـكن لأيـة غـايه ؟
نحن نشـدو مع العصـافير للشمس ،
وهــذا الربيـع ينفخ نـايه !
نحن نتلو رواية الـكون للمـوت
ولكن مـاذا ختـام الروايـه ؟
هكذا قلت للرياح فقـالت :
«سل ضمير الوجود : كيف البدايه؟»

وتغشى الضباب نفسى ، فصـاحت
فى مـلال مر : «الى أين أمشى ؟»
قلت « سيرى مع الحياة ٠٠ » فقالت :
«ما جنينا ، ترى،من السير أمس» ؟
فتهافت كالهشـيم ـ على الأرض ،
وناديت : « أين يا قلب رفشي ؟ » (١)

وقد أورثه هذا كله مرارة ، تطفح حينا سخطا سافرا ، وآنا مقنعا ، تلفه سخرية تكشف منه أكثر مما تداري ٠٠٠

أظمأت مهجتى الحيـاة ، فهل يوما تبل الحيـاة بعض أوامى ؟
يا رفيقى ! ما أحسب المنبع المنشود الا وراء ليل الرجام (٢)

احسب ان طال انتظاره بليل حتى ظن الفجر ضل طريقه فى حلك الظلام ٠ وخاض يوما الزحام مع الجموع المتدافعة ، وبلا الحياة والناس وخبر الأشياء ، فخرج من التجربة يلهث وهو يتمتم :

كان ظنى أن النفـوس كبـار ... فوجدت النفوس شيئا حقـيرا
لوثته الحيـاة ، ثم استمرت ... تبذر العالم العريض شرورا
فاحصدوا الشوك ٠٠ يا بنيها وضجوا ! ... واملأوا الأرض والسماء حبورا (٣)

---

(١) الديوان ـ قصيدة « فى ظل وادى الموت » ص ١٤١ ٠
(٢) الديوان ـ قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٣ ٠
(٣) قصيدة « أبناء الشيطان » ص ١٢٠ ٠

ويبدو أن التجربة الأولى أعقبتها تجارب أخرى ، حتى عم غضبه فقال :

لو كان هـــذا الكون في قبضتي	ألقيته في النـــار ، نـــار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهـــذا الورى	وذلك الأفق ، وتلك النجـــوم ؟
النـــار أولى بعبيـد الأسى ،	ومسرح الموت ، وعش الهموم (١)

ولكنك تحس مع شـــعره أنه ليس متشائما ، بمعنى أنه مقفـــل النفس ، لا يرى الا حلكا من ظلام ، ولكنه مجرد سخط على الواقع لبعد الفرق بينه وبين المثال الذى يشتهيه شاعر مثله ، مملوء بأشواق الحياة ، كما تعلن هذه الأبيات :

كل ما هب ، ومـــا دب ، ومـــا	نام ، أو حام على هـــذا الوجود
من طيور ، وزهـــور ، وشـــذى	وينابيع ، وأغصـــان تميـــد
وبحـــار ، وكهـــوف ، وذرى	وبراكين ، ووديان ، وبيـــد
وضـــياء ، وظلال ، ودجـــى ،	وفصـــول ، وغيـــوم ، ورعـــود
وثلوج ، وضـــباب عابـــر ،	وأعاصـــير ، وأمطـــار تجود
وتعـــاليم ، ودين ، ورؤى	وأحاسيس ، وصمت ، ونشيـــد
كلهـــا تحيـــا بقلبى ، حرة	غضة السحر ، كأطفال الخلود (٢)

ولكنه كما يقول الأستاذ عبد العزيز عتيق :

(كان شديد الانحاء على الجمود والجامدين ، والجور والجائرين ، كما كان شديد **البرم بالحياة** والسخط على ما فيها من المتناقضات ، سخطا كان يدعوه أحيانا الى الثورة على الوجود والناس ، واليأس من صلاحهم ! حتى اذا ما انتهت ثورته أوى الى دنياه ، يتلمس فيها العزاء ، يتلمسه في النجوى العفيفة ، والزنبقة الحالمة ، والجداول النائمة ، والجبال الوقورة ، والأغوار الرهيبة ، والمروج الخضراء ، والرياض الفيحاء ، والآجام المتأشبة ، والسواقى النائحة ، والنجوم اللاغية ، والليل الغريب . أجل يتلمس العزاء فى كل أولئك وغيره ، ثم يخرجه لنا فنا خالصا ، وشعرا تموج فيه العواصف وتزخر ، وتتعانق فيه الرؤى والأحلام) (٣) .

وكان الشـابى لا يكتم حنقه على الجامدين هؤلاء ، بل كان يعلنه غير هياب :

---

(١) قصيدة « زوبعة فى الظلام » ص ١٨١ .

(٢) قصيدة « قلب شاعر » ص ١٨٣ .

(٣) مجلة الامام ــ العدد الخامس ــ السنة ٣٢ فى ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٠ .

كل قلب حمل الخسف ، ومـــا مل من ذل الحيـــاة الأرذل
كل شعب قد طغت فيه الدمـ دون أن يثأر للحق الجلى
خلـه للموت يطويه ! •• فمـــا حظه غـــير الفناء الأنكـــل (١)

سخرية ولكنها من الشعراء هذه المرة :

وفى المهـامه أشلاء ، ممزقة تتلوعلى الفقر شعرا ، ليس ينتحل (٢)

وذاك لون من الشـــعر لا ينتحل ، لأنه مكتوب بالدم ومنظوم من العمر كله ، فالانتحال هنا يكلف عزيزا •• يكلف الحياة نفسها •• ومن هنا جاء الزهد فيه •

ومن أدواته في السخرية « اللفظ » أيضا :

رباه ! كم من فتاة ، تشكو الحيـــاة وتبكى ،
ومعـــدم ، بوأته الدهـور مقعد ضـنك

تأمل (بوأته) هذه ، واذا كان من المسلم به أن مقعد الضنك لا يبـوأ ولكن يســاق صاحبه اليه قسرا عرفت الى أى مدى يســخر الشاعر •• من كل شيء •••

ولكن هل امتدت سخريته هذه الى (الدين) ؟

لا يهولنك السؤال ، فلم يكن ليخطر لى ، وقد قرأت شعره حرفا حرفا فلم يأخذ عينى دليل ولا شبهة ••• ولكن يدفعنى الى الخوض فى الموضوع ، ناقد يرى الشابى قليل الاحتفال بالدين كله (٣) •

بل يتجاوز هذا القول بأن الشابى (غير متقيد بشيء منه ــ في شـعره ــ ثم هو ينحو في تشابيهه واستعاراته أحيـانا منحى لا يقره التوحيد ، أو هو زندقة في رأى النقاد القدماء • يتكلم الشابى عن المرأة فيقول مثلا :

أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحى ، وربيعى ، ونشـوتى ، وخلـودى
يا ابنة النور ، اننى أنـا وحـدى من رأى فيك روعـة المعبـود
وحرام عليك أن تسـحقى ، آما ل نفس ، تصبو لعيش رغيـــد
فالاله العظيم لا يرجم العبــد اذا كان فى جلال السـجود (٤)

---

(١) الديوان ــ قصيدة « خله للموت » ص ١٤ •
(٢) الديوان ــ قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ •
(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٤ •
(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٦ •

أى زندقة ؟ ... شاعر يرى فى الجمال مظهر قدرة الله ... يرى فى الجمال روعة المعبود ... أتكون الزندقة فى البيت الأول (قدسى .. معبدى) واضح من الرفيف الشعرى أنه تعبد لا عبادة حقيقية دينية .. أتكون الزندقة فى البيت الأخير ؟ .. ان العرض لله هنا فيه تعظيم ، فهو يتوسل بالعظيم المتعالى بأن يجعل منه مثالا يرجو الحبيب أن يتطلع اليه ويتأثر به — وقد سبقه مع اختلاف فى الموضوع والجو الشعرى ، أبو تمام وقصته مع أحمد بن المعتصم معروفة .

يقول الشابى فى احدى وطنياته :

لست أبكى لعسف ليـل طويل ،	أو لربع غـدا العفـاء مراحه
انما عبرتى لخطب ثقيـــل ،	قد عرانا ، ولم نجـــد من أزاحه
كلمـا قــام فى البـلاد خطيب ،	موقظ شــعبه يريد صلاحــه
أخمدوا صوته الالهى بالعســف ،	أماتــوا صـــداحه ونواحــه (١)

ترى هل وصف الصوت « بالالهى » هنا يدخل أيضا فى باب استهتاره بالدين ؟

ان الخطيب الموصوف فرض شعرى لا انسان معروف بذاته .. ومن ولع الشاعر بوطنه يرى صوت المصلحين وكأنه صوت من السماء .. اذن أوصافه المنسوبة الى الله أقرب الى العقل أن تكون من شدة حبــه للمشبه .. ومن شدة تعظيمه للمشبه به .

ان العمر — أقصد عمر الناقد أيضا — أغلى وأضيق معا من تبديده فى تصيد حرفية لفظ هنا أو هناك ... وحرام فى شرعة الدين ، وفى شرعة الوطنية ، وفى شرعة القومية العربية العامة ، أن نشوه أصــوات المقاومة فى نواحى الوطن العربى ، باحداث لغط قصاراه أن يشوش ... ولكن هيهات أن يحول دون نفاذها الى القلوب ... والى التاريخ ... تاريخ المقاومة الشعبية فى أفريقيا ...

ماذا على الشابى ، حتى يكون موقفه فيما يتعلق بالدين فى أشكاله المختلفة ، واضحا لا يحتاج الى تعليق كما يقول الناقد ؟ الا انه قال :

ملىء الدهر بالخداع ، فــكم قد ضلل الناس من امــام وقس !

وهل نقده للامام والقس ، معناه نقـــد للاسلام والمسيحية ؟ ان الأديان كلها يا صديقى صفاء وسلام وخير ومحبة ، ولكن معتنقيهـــا أو

---

(١) الديوان — قصيدة « تونس الجميلة » ص ١٣ .

بعضهم على الأقل شيء آخر ... أو ماذا فى رأيك ؟ هل جميع المسلمين والمسيحيين كما شاء الاسلام والمسيحية لهم أن يكونوا ؟ .. اقرأ فى وجهك كلمة (لا) ... اذن فما العجب فى بيت الشابى ؟ ماذا يريبك من المسكين حتى (تبدى) عينك فى شعره (المساويا) ؟ ...

على أنه مما يهون النقد أن صاحبه لا يستقر على رأى بعينه ، فكم ناقض نفسه فى أكثر من موضع وموضوع ... فهو بعد أن رمى الشابى مثلا بالزندقة من وراء ستار القدماء ، راح يقول :

(ان الشابى وان كان قد أدار ظهره للدين ، **لم يكفر بالله ولم يكن زنديقا** ، بل ظل له شيء من الايمان « بالعظيم المجهول » .

ان من أصغى الى صوت المنون
وصدى الأجداث
وابتسامات الحياة الساخره
– بين أزهار الربيع الساحره
ليس تستهويه ألحان الطيور
عن جلال الله

أما فى المقطعين التاليين ، فنرى أن الشابى نفسه ، قد تحلل من مدلول الألفاظ الدينى تحللا تاما ، ورفع المحبوب الى مكان الألوهية ، أو أنزل الله الى درك المحبوب المادى) (١) .

اذن كفر أو تزندق على الأقل ، وهذا مما نفيته عنه منذ قليل .... مسكين الشابى اذ قال :

فى فؤادى الرحيب معبد للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاه فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

هل تفهم من أبيات الشابى هذه ما فهمه الناقد ؟ حتى ولو تعنت وحملت الألفاظ أكثر من مدلولها ؟ لا أخالك تفعل ... وليس بضائرك أن تعلن عجزك التام عن اصطناع طريقة الناقد ذات الأغوار ...

(وأشد ايغالا فى التحلل من ذلك ، ما نجده فى قصيدته « صلوات فى هيكل الحب » قال يخاطب محبوبته ، ويقيمها مقام الألوهية ، فى

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ ص ١٧٢ .

القدس والعبادة ، وفى القدرة والارادة ، وفى الشفاعة والزلفى) (١) ٠

أنت أنشودة الأناشيد غنـا	ك اله الغنساء ، رب القصيـد
أنت ، قدسى ، ومعبدى ، وصباحى	وربيعى ، ونشوتى ، وخلـودى
يا ابنة النور ، اننى أنا وحدى	من رأى فيك روعـة المعبود
فدعينى أعيش فى ظلك العـذ	ب ، وفى قرب حسنك المعبـود
عيشة الناسك البتول ، يناجى ال	رب فى نشوة الذهول الشـديد
وامنحينى السـلام والفرح الرو	حى ، يا ضوء فجـرى المنشود
وارحمينى فقد تهدمت فى كـو	ن من اليـأس ، والظلام مشيد
فحـرام عليـك أن تسـحقى آ	مالى نفس ، تصبو لعيش رغيـد
منك ترجو سعادة لم تجدهـا	فى حياة الورى وسحر الوجـود
فالاله العظيم لا يرجم العبـد	اذا كان فى جلال السـجود

***

كلنا نعبد الجمال أيها السيد ٠٠٠ ومن أين أتيت بالقدرة والارادة ، وسائر الصفات الالهية ، التى تزعم أن الشاعر خلعها على حبيبه ؟ أتراك شممت هذا كله فى مثل (امنحينى السلام ٠٠٠ ارحمينى ٠٠٠) ألا يردد شعراء الغزل مثل هذا وأكثر منه ؟ ودعك من الشعراء ٠ أليس كل انسان له قدرة وقدرات وارادة والا ففيم حسابه اذا كان مسلوب القدرة والارادة ؟ ٠٠ وهل قدرة الحبيب على الاسعاد ، تعنى أنه اله أو شبيه ٠٠ ؟ تعنى أن قدرته كتلك التى ندين بها لله الذى لا يعرف لقدرته أو رحمته أو علمه حدود أو نهايات ؟ أحسب أن الناقد لا الشاعر هو الذى أساء الى الله حين أنزله هذا المنزل ، أو استحضره فى هذا المقام ٠٠٠

ان النقد اذا كان تبصيرا أو هداية فما أحرانا أن نقول للسيد الناقد (ياهادى الطريق جرت) ٠٠٠ وما أقلها بعد الذى قال ٠٠٠

***

سأل الأستاذ الحليوى الشابى ، فى احدى رسائله رأيه فى بيت قاله :

حـاملا كالالـه قلبـا كبيرا	فيه ما فى الوجود من أكوان (٢)

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ ص ١٧٢ ٠

(٢) مجلة الفكر ــ السنة ٢ العدد ١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ص ٦٠

فجاءه جواب الشابي في هذه السطور :

(ان الفنان يا صديقي ، لا ينبغي أن يصغي لغير ذلك الصوت القوي العميق الداوي في أعماق قلبه .. أما اذا أصغى الى الناس وما يقولون ، وسار في هاته الدنيا بأقدامهم ، ورآها بأبصارهم ، وأصغى اليها بآذانهم ، فقد كفر بالفن ، وخان رسالة الحياة ...

ولو شئت أن أسوق الأبيات التي لي ، على غرار بيتك هنا ، في التشبيه بالاله والآلهة لأكثرت ، وخرج بي القلم عن غايته ، ولكنك سترى ذلك في الديوان ان شاء الله : « وانني لأعمق ايمانا بالله من كل أحد حينما أعبر بهاته التعابير الكافرة ، في نظر أولئك الناس . فالألوهية وما تعرف منها هي رمز للمثل العليا ، التي نصبو اليها بأرواحنا ونشخص اليها بأبصارنا في هاته الحياة . ولذلك فاذا أردنا أن نعبر عن معنى نحس له بجلال المثل الأعلى وسموه فانما سبيلنا في ذلك أن تفرغ عليه رداء الألوهية التي هي أسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الأعلى وجلاله) (١) .

الحياة ... الموت ... كلاهما جنى على الشابي ، فلا الحياة مدت له من أسبابها .. ولا الموت تباطأ وأمهله ، حتى يقضي وطرا .. أو لعلهما أحسنا اليه فلولا أن ألهبته الحياة بأشواقها ووخزته بأشواكها ولولا أن نازله الموت مرتين ظافرا من المعركتين بأبيه وحبيبه .. ثم ظل يطارده في الشعور وفي الخيال ... لولا هذا كله فيما يبدو ، لما عزف نايه ، وبكى وتره ، وضم ديوانه هذه الأنغام التي نعيش في جوها وصداها الى يومنا هذا ... ليته يدري أننا الى اليوم نعيش في ذكراه ...

---

(١) نفس العدد ص ١١ ـ ١٢ .

القسم الثانى

فن الشاعر

أنت ياشعر ، فلذة من فــؤادى | تتغنى ، وقطعــــة من وجـودى
فيــك ما فى جوانحى من حنـين | أبدى الى صميم الوجـود
فيك ما فى خواطرى من بكــاء | فيك ما فى عواطفى من نشــيد
فيك ما فى مشــاعرى من وجـوم | لا يغنى ، ومــن سرور عهيـــد
فيك ما فى عوالمى من ظـــلام | سرمدى ، ومن صـباح وليـد
فيك ما فى عوالمى من نجــوم | ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك ما فى عوالمى من ضــباب | وسراب ، ويقظـــة ، وهجــود
فيك ما فى طفولتى من ســلام ، | وابتســام ، وغبطـــة ، وسعود
فيك ما فى شبيبتى من حنين ، | وشجون ، وبهجة ، وجمود (١)

نحن الساعة أمام ديوان فيه : حنين ، وبكاء ، ونشيد ، ووجوم ، وسرور ؛ وظلام ؛ ونور ؛ ونجوم ، وضـباب ، وسراب ، ويقظـــة ، وهجود ، وسلام ، وابتسام وشجون ، وبهجة ، وجمود ... ديـوان حافل لا شك . وهو خليق باحتفال ؛ لأنه فلذة من فؤاد صاحبه .. قطعة من وجود انسان .. لا مجرد ألفاظ وقواف قــد تطـرب أذنك بالرنين ، ولكنها لا تتجاوز الأذن الى ما بعدها ، فهى لا تملك قوة الخلق ، ولا شعلة الروح ، التى تهبها القدرة على اسعادك وتجديدك والتحليق بك ....

كتب الشابى الى صديق يقول :

« الشعر يا صديقى « تصوير وتعبير » **تصوير لهذه الحياة التى**

(١) الديوان قصيدة « قلت للشعر » ص ٨٦ .

تمر حواليك: مغنية، ضاحكة ، لاهية ، أو مقطبة، واجمة باكية ، أو وادعة حالمة ، راضية أو مجدفة، ثائرة، ساخطة ، **أو تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك** ، وتقلبات أفكارك وخلجات نفســــك ورفرفة أحلامك وعواطفك ... **وتعبير عن تلك الصور** أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ماؤه القوة والحياة»(١)

وهو يفهم رسالة الشعر ومهمة الشاعر فهما قويما . فمقياسه أن ان تنظر فى الشعر (هل هو من ذلك النور الذى يوسع أفق الحياة فى نفسك ويجعلها تحس بتيارات الوجود ، أكثر مما كانت تحس ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك ، وينسيك وجودك الانسانى لحظة ، لتستغرق فى عالم الجمال المطلق الذى يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبغ منه على نفسك) (٢) .

الأستاذ محمد الحبيب شلبى يؤكد لنا أن أبا القاسم الشــــابى (أعظم شاعر لا فى الشمال الافريقى فحسب ، بل فى الشرق العـربى بأجمعه ، وجميع بلاد الناطقين بالضاد) (٣) .

ومن يقرأ كتاب (كفاح الشابى) للأستاذ أبى القاسم كــــرو ، تأخذ عينه كثرة الأحكام القاطعة الجامعة المانعــة بأولوية الشــــابى فى الشعر العربى فى أكثر من موضوع واتجاه (٤) .

ويراه صاحب كتاب (الحركة الأدبيـــة والفكرية فى تونس) آية الشعر فى هذا الطور ، وأن منهجه السائر على خطة محددة مدروســـة مرتبطة بنزعته التجديدية العامة ، هــو كمل مثــــال للمنهج الشعــرى الجديد (٥) .

وليس هذا من قبيل التعصب الوطنى ، فان مصر أيضا تؤمن على هذا الـكلام فيعد الدكتور شوقى ضيف ، الشابى (فلتة من فلتات عصرنا الحديث فى حدة الاحساس وعمقه ودقته) (٦) .

وهو عند الأستاذ خفاجى (.. أحد أولئك الأفذاذ العالميى الروح ،

---

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤١ .

(٣) مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر فى ١٢/٣١/ص ٣٠

(٤) كتاب « كفاح الشابى » اقرأ الصفحات ٧١ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١١١

(٥) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ص ٢٧٨ .

(٦) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٠ .

الذين لم يبهروا النقد الموضوعى فحسب من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية ، بل بهروا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وانسانية ، وكانت معجزتهم فى الازدواج بين هذه المزايا وفى الانسجام التام بينها ، وهذا قلما يكون الا للصفوة الموهوبين ...) (١) .

بل يرى أن الشابى (بضربه المثل الأعلى ، صار يحفز النقاد والمجلات الآن الى الاهتمام بأشعار الشرنوبى ، والفيتورى ، وتاج السر ، وأمثالهم) (٢) .

ولكنى مع احترامى لهؤلاء النقاد جميعا ، ولغيرهم أيضا ممن يخالفونهم فى الرأى ، أرى ديوان الشابى أوقع حكما وأوفى شاهدا

لقد دار الناقدون حول جمال التعبير والتصوير وعمق الاحساس .. فهل قالوا كل ما يمكن أن يقال ؟ ... هذا أحدهم يقول :

(اننى لم اقدم كل ما كان يجب أن يقدم من حياة الشابى وجوانب شاعريته ، وانما بذلت جهدى فى أن أعطى للقارىء صورة واضحة المعالم ، كاملة الخطوط ، عن حياة الشابى وبيئته ، وجوانب أخرى تتصل بهذين اتصالا وثيقا مرة ، وغير وثيق مرة أخرى ..) (٣) .

على أنى لا أعتقد أننى أسعد حظا من الباقين ما دامت آثار الشابى جميعا لم تتواجد عندى ... ان للشابى عدا ديوانه (أغانى الحياة) كتابين :

(الخيال الشعرى عند العرب) (٤) و (صفحات دامية) .

ومن الروايات :

المقبرة .

ومن القصص :

١ ـ جميل وبثينة .

٢ ـ قصة (روح ثائرة) .

ومن المسرحيات :

السكير .

ورسائل (٥) .

(١ ، ٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٦٧ ، ص ١٦٩ .

(٣) كتاب « الشابى » للاستاذ أبى القاسم كرو ص ٧ .

(٤) اقرأ كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » ص ١٧٠ .

(٥) وهى مجموعة رسائله الى أصدقائه أبى شادى ، والحليوى ، وابراهيم ناجى وغيرهم . زاخرة بآرائه فى الأدب والحياة .. مبعثرة على قيمتها لم تجمع أبدا .

ومذكرات (١) ومحاضرات (٢) ومقالات ودراسات (٣) ٠

فأنى لى هذا كله لأكتب عنه كتابا جامعا ماوسعنى الجهد ؟

وأكثر هذه المؤلفات مجهول مصيرها اليوم ٠ كما أن بعض الأدباء التونسيين المعاصرين للفقيد يعتقدون بوجود آثار أدبية أخرى ، غير تلك التى تحدثت عنها ٠ وهم يظنون أنها لا تزال باقية فيما خلفه من تراث أدبى عند أهله وأقاربه (٤)

ولكن رغم الضياع تبقى دلالة هذه المؤلفات ٠٠٠ لابد أن وراءه نفسا ثرة ، خصبة ، بل هى نفس فذة تلك التى تعطى هـذا كله فى بضعة أعوام ، هى عند غيره اما مجال للتلقى والأخذ ، لا العطاء ، واما مجال للهو والطيش العابث ٠ ولكنها عند الشابى ابن الخمسة والعشرين ربيعا ، جهد مشبوب فى اتصال واستمرار وخلق ٠٠٠ ولا عجب أن تحترق الشمعة سريعا ، مادامت ترسل من الضوء فوق طاقة الشموع ٠٠٠

لم يبق أمامنا الا الديوان ، فلنقتصر بحكم هذا الوضع على الدراسة الموضوعية له ٠٠٠

أميز وأنفس ما فى هـذا الديوان عندى ، شعر الوطنية فيه ٠٠ أسجل هذا الآن فحسب ، لأفرد لخفقات الوطنية هذه فصلا خاصا حفيا ٠ فليس أكرم على الأدب وعلينا من تمييز الهدف فيه واسـناد القيـادة اليه ٠٠ اننا اليوم ننفر وكأن بنا لسع النار ، أن يكون الأدب مسلاة لفرد أو شعب ٠ انه اليوم فى صحوتنا الحاضرة كما أردنا له ، وكما يجب أن يكون ، لهيب تتكشـف فى ضـوئه القيم ، وتحترق فى ناره الأوهام والزيوف ، ورواسب العصور المظلمة ٠

سأنتقل الى ظاهرة أخرى قبل أن أنسى الديوان كله من أجل شعر الوطنية فيه ، وما حفزنى فى الحقيقة الى دراسة الديوان غير توهج وطنية صاحبه ، وعرامها ٠٠ وولائها ٠٠٠

---

(١) دون الشابى كثيرا من ذكرياته بعنوان « مذكراتى » وقد نشرت فصول منها فى مجلات « العالم الأدبى » و « مكارم الأخلاق » و « الصباح » و « الأسبوع » ٠

(٢) كمحاضرته عن « قصة الهجرة النبوية » ومحاضرته عن « الأدب العربى فى العصر الحاضر » ٠

(٣) كدراسته « شعراء المغرب » التى أعدها للمحاضرة فى النادى الأدبى ولم تشأ الظروف أن يلقيها ٠٠ اقرأ عن مؤلفات الشابى وآثاره فى كتاب « أبو القاسم الشابى » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٦٥ ـ ٦٧ ٠

(٤) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ٠ اقرأ من ص ٩٨ ـ ١٠٥ ٠

والظاهرة الأخرى التي تستوقف العين والبحث هي الغناء بالطبيعة غناء فرحا مبهورا ، ظل الأدب العربي يفتقده طويلا ...

وظاهرة ثالثة هي غناء أيضا ، ولكنه هذه المرة من القلب واليه وله ... لا أريد أن أسمي هذا اللون من الغناء شعر الغزل . فطالما حفل قصيدنا في كل عصوره بالغزل ألوانا وفنونا ، ولكن ما رقرقه الشابي ليس غزلا وانما هو ... صلوات في هيكل الحب ...

ألا ترون معي ، أن نفرد لكل من الظاهرتين الغنائيتين فصلا خاصا ، يعني بها ؟ .. وحتى لا تلهينا الظاهرتان بغناهما عن الجوانب الفنية في الديوان ..

كان الشابي وصافا مفتونا .. عنده عيون فيها نجل وسحر ورؤى .. فيها ملائك من الملأ الأعلى ، وصبايا رواقص ، وعذارى فتون ، وجنة ونار ، وخمر نشوة ، وجنون ...

أي دنيا مسحورة ، أي رؤيا	طالعتني في ضوء هذي العيون
زمر من ملائك الملأ الأعلى	يغنون في حنو حنون
وصبايا رواقص ، يتراشقن	بزهر التفاح والياسمين
في فضاء مورد حالم ، سباه	أطافت به عذارى الفنون
وجحيم تؤجج تحت فراديس	كأحلام شاعر مجنون
أي خمر مؤجج ولهيب	مسكر أي نشوة وجنون (١)

وشفاه :

وردتها الحياة في لهب السحر ، ونور الهوى ، وظل الشجون (٢)

وهو مصور صناع ... ومن أفانينه : صورة رائقة للطفولة في حلاوتها ، وطهارتها ، وخبثها ، ووداعتها ، وعبثها ؛ ومرحها ؛ وتوثبها ؛ وتشوقها وفضولها ، وبنائها وهدمها ، وابتكارها وتقليدها ، واقبالها وعزوفها ، ورضاها ونفورها ، وسلاستها وشموسها ، وانطلاقها وضحكها ، وغناها ورقصها ، وبراءتها وخلوها ، وخيالاتها وأوهامها ، وغرورها الحلو واعتدادها ، ودلالها المعشوق ونعيمها ، وأمرها المرهوف ونهيها ، وأمانيها الطفلة وتحقيقها .... صورة رائقة للطفولة ، مع العصفور في المرج ، والموج على صدر الشاطيء ، والغناء في الجدول ، والصفاء في الغدير ، والنحل في أحواض الزهر ، والفراش في الروض والسنابل في الحقل ، والريح في الخلاء ، والصدى في الفضاء ، والشاة

(١ ، ٢) الديوان ـ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

فى المرعى ، والقطة فى الفراش ٠٠ صورة رائقة للطفولة التى تهفو بجناحين ٠٠٠

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيام لم تعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة ، تحت أعشاش الطيور
مسقوفة بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير
نبنى ، فتهدمها الرياح ، فلا نضج ولا نثور
ونعود نضحك للمروج ، وللزنابق ، والغدير(١)

وفى معرض الغناء بالطفولة يحضرنا رأى للأستاذ خليفة محمد التليسى ، لا يخلو من طرافة ، فهو يذهب فى تفسير غنائه بالطفولة مذاهب شتى ٠٠٠

(فليست الطفولة غريبة عن حياة العباقرة الأعلام ٠ فهم يعيشون بروح الأطفال) (٢) ٠

***

هذا وجه ٠٠ ووجه آخر أن الشابى :

(حين أعياه الاصلاح ، وأوهنت قواه عوامل الشر والفساد ، التفت الى طفولته باحثا عن جنته الضائعة ، فقد أيقن أن حصاده من حقول العالم الرحيب الخطير لم يزد على غير الندامة ، والأسى واليأس ، والدمع الغزير ٠٠٠ التفت اليها يبكى أصائلها الذهبية وأسحارها الفضية وعيشها البرىء) (٣) ٠

ويفسر الناقد سر غناء الشاعر بالطفولة ، الى ايمانه الراسخ بجدة الحياة ، ولما كانت الطفولة مظهرا باذخا من مظاهر هذه الجدة ، فقد تعلق بها الشابى فى حب وفرحة صداحة مسعدة ٠٠٠

---

(١) الديوان ـ قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ ـ ١٤٩ ٠
(٢) « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٧٠ ٠
(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٧٣ ٠

ثم راح يعدد مظاهر غناء الشـــاعر بالطبيعة ٠٠ فرأى أنه تغنى بطفـولة الطبيعة فى ربيعها ٠٠ زمن الحب والبحث والتجديد ، وطفولة اليوم ٠٠ فجره وصباحه ٠٠ وما أكثر ما نقرأ من تمجيد للفجر القدسى ، وللصباح الجديد ٠

والناقد يعدد مظاهر غنائه بالطفولة فى شاعرية فذة لا تنطبق على الحقيقة كل الانطباق ، ولكنها ليست مقطوعة الصلة بها ٠٠ فعنده أن غناء الشابى للطبيعة فى ربيعها سره أن الربيع زمن الحب والبحث والتجديد وغناءه بالفجر والصباح ، سره أنهما يمثلان طفولة اليوم ، وهو كما ترى تخريج بادى الجهد يحمد للناقد من غناء ، حتى ولو لم يخطر للشاعر على بال ٠٠ يقول الناقد (وفاتنته التى أوحت اليه صلواته فى هيكل الحب **لم يجد ما يتقرب به اليها سوى أن يخلع عليها من صفات الطفولـــة ما يجعلها محببة لكل قلب ٠٠٠**

عـــذبة أنت كالطفولة ، كالأحــلام ، كالصـــباح الجـديد

كالسماء الضحوك،كالليلة القمراء،كالورد،كابتسام الوليد (١)

ان الطفولة هنا معنى واحد فى موكب حافل من المعانى وجدهـا الشاعر فى خصوبة نفس وترف خيال ٠٠ وأى معان ؟ الأحـــلام ٠٠٠ اللحن ٠٠ السماء الضحوك ٠٠ الليلة القمراء ٠٠ كلها شبت عن الطوق ، بل أمعنت فى الشموخ والارتفاع ، حتى تجاوزت الأرض الى السماء ٠٠٠

ولكن طفولته بعد هذا سعيدة على أى حال ٠٠٠

وهذه السعادة الغامرة التى سخت بها طفولته انداحت مع الأيام ٠٠ كما (يغنى النشيد الحلو فى صمت الأثير) فهو لا يكتفى مثلنا بذكر عهد الطفولة ؛ بل يتحسر عليه :

أواه ، قد ضـاعت على ســـعادة القلب الغرير
وبقيت فى وادى الزمان الجهم أدأب فى المسير
وأدوس أشـواك الحياة بقلبى الدامى الكســير
وأرى الأباطيـــل الكثيرة ، والمآثـم ، والشرور
وتصـــادم الأهــواء بالأهــواء فى كل الأمـور
ومذلة الحق الضعيف ، وعزة الظـــلم القدير
وأرى ابن آدم سائرا ، فى رحلة العمر القصير (٢)

---

(١) المرجع السابق ٠

(٢) « أغانى الحياة » قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ ــ ١٤٩ ٠

الأباطيل ـ المآثم ـ الشرور ـ تصادم الأهواء ـ صراع الحق والظلم، كلها صفات لواقع مادى محسوس ، فهو لم يبالغ ولم يتزيد ، ولكنها جانب واحد من الحياة يمكن المرء أن يعبره ، الى آخر زاه مشرق ٠٠ ولا نعيب على الشاعر أن صوره ، بل العيب ألا يفعل بوصفه شاعرا يصوغ الحياة فى شعره ٠٠ الحياة كلها من جميع نواحيها ٠٠ ولكنا نشفق عليه أن طال اللبث عندها والوقف ٠

ومن صوره الجفون التى تبسم ، أو تحلم بالنور ٠٠ بالهوى ٠٠ بالنشيد :

قد رأينا الشعور منسدلات   كللت حسنها صباح الورود
ورأينا الجفون تبسم٠٠ أو تحلم   بالنور ، بالهوى ، بالنشيد(١)

ويلاحظ الأستاذ عبد المنعم خفاجى تلاحق الصور عنده تلاحقا فنيا سريعا فريدا (٢) ويرى الأستاذ محمد خليفة التليسى أن :

(٠٠ صفة الفن بارزة فى جميع ما تناوله هذا الشاعر ، فقد كان يستخدم فى شعره مرقم الموسيقى وريشة الرسام وتعبير الشاعر الفحل٠ ولا يعسر على المرء أن يستخرج من هذا الشعر الرائع صورا فنية فاتنة ، عمل الخيال فى تلوينها ، وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة ٠ وتستطيع أن تحس بذلك فى استعاراته وتشابيهه التى تعرض على القارىء فى جملة قصيرة لوحة باذخة تنسجم فيها الأضواء والظلال) (٣) ٠

(وهو يستعين فى ذلك ٠ بقدرة خارقة على الايحاء والتأثير على القارىء ، بحيث يضع أمام بصره فى تعبير بسيط صورة لا نهاية لروعتها ، وأسلوبه تصويرى تتعانق فيه الصور ، وتتلاحق فى موكب فخم ، وهو مسرف فى نثر هذه الصور ، ولكنه الاسراف الذى يدل على الوفر والغنى، ولا يدل على الجهد والعناء)(٤) ٠

كما يرى أن التجسيم أو التشخيص احدى الملكات التى يتمتع بها الشابى ، وتساعده على ابراز معانيه والتعبير عما فى نفسه (٥) ٠

---

(١) الديوان قصيدة « الجمال المنشود » ص ١٠٩ ٠
(٢) اقرأ كتاب « مذاهب الادب » ص ١٦٧ ٠
(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ محمد خليفة التليسى ص ١١٦ ٠
(٤) المصدر السابق ص ١١٨ ٠
(٥) المصدر السابق ص ١١٨ ٠

ويقرنه السيد محجوب بن خليفة بن ميلاد بالشاعر الانجليزى كيتس (فمن افتتان بالجمال واحد ، الى تطلع الى دنيا أسحر وأهدأ متشابه ، الى آلام متماثلة ، الى فن وخيال أخوين . كلاهما كرع من ديمومة الجمال ، وترجم عن أشواقه فى قصائد خالدة ، منعمة بصور شعرية عجيبة ، وكلاهما صنع الآلام التى تصده عن التمرغ فى أحضان الجمال ، وأنشأ لنفسه دنياه المنشودة ، وعاش فيها حياة شعور واحساس نابذا العقل وأهواءه ، ان وجد دنيانا قاسية ضالة ! . فان صاح جون كيتس : « لايوجد فى العالم سوى حقيقة واحدة ! الجمال ! أما الفلسفة فهى محض ضلال . اذ لكل مذهب مضاد له على خط مستقيم ! فمن لى بحياة احساس وشعور ! من لى ! .. »

فان صاح كيتس تلك الصيحة قال الشابى :

عش للشعور وللشعور فانما — دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وانها — لتجف لو شيدت على التفكير

وأن كتب كيتس « أنديميون » أو قصيدته المهداة « الى البلبل » جاعلا شعاره هذا البيت :

كل أثر جميل غبطة لا تزول

قال الشاعر التونسى نسيبه المشتعل غراما (١) .

والمقارنة هنا ذات موضوع وان تكن لا تعنى (التأثر)

ويقرنه ناقد آخر بلامارتين ويراه (متأثرا به تأثرا ظاهرا ملموسا . وقد كان لامرتين يجعل من الحب موضوعا للتأملات السامية ، والذهول الصوفى ، فالشابى كالشاعر لامرتين يذكر الغابات ، والأنهار ، والجبال ، والأحجار ، والغدو والآصال) (٢) .

والى لامارتين يعزو أيضا نظرة الشابى الى الطبيعة (فقد نظر الى الطبيعة نظرة « الحى الخاشع الى الحى الجليل » متأثرا فى ذلك بلامرتين الذى قرأه قراءة معجب وجعل قصته رفائيل كتابه المختار الذى لا يصبر على مفارقته) (٣) .

ومن الطريف أن يقرنه بلامارتين ، حتى فى ظهور كل منهما فى

---

(١) مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر فى ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٣ .
(٢) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ٧٤
(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٧٨ — ٧٩ ـ اقرأ أيضا ص ٩٥ .

لغته فجأة كشاعر تام النضج (١) ٠٠ مع ما فى هذه الظاهرة من عنصر المصادفة الذى يلمح عرضا فى مجال المقارنة والقياس

ولكن هل شرط محتم أن يكون كل صوت نسمعه فى ديارنا صدى لآخر بعيد ؟ ان حدة الاحساس ورهافته ، اذا توفـــر لها نبل الغرض تستطيع أن تجعل الحب (موضوعا للتأملات السامية والذهول الصوفى) ولو لم يقرأ صاحبها (لامارتين) ٠٠

ألم تعجب قصة روفائيل الكثيرين ٠ فلماذا لم يتواجـــد بيننـــا (كورس) يغنى بالطبيعة غناء الشابى ، مادام الاعجاب الشديد وحده يكفى للانطباع ؟ ٠

لست بهذا آنفى بصفة قاطعة ، أن يكون الشابى قد تأثر بلامارتين ٠٠ ولست أدافع عن مبدأ التأثر فما بالعيب الذى يستحق الدفاع أن يتأثر فنان بفنان ، ولكن وجوه التأثر التى ذكرها الناقد بالذات لا تحتاج الى التماس الأسباب من تأثر أو احتذاء

***

لا أدرى لعل شبهة التقليد هذه تدخل فى هموم الفنان التى تحدث عنها الشابي ٠ سألته صاحبته وقد

راعهـــا منـــه صمته ووجومه	وشـــجاها شحوبه وســـهومه
« أيها الطائر الكئيب تغرد	ان شدو الطيور حلو رخيمه »
« وأجبنى ٠ فدتك نفسى ٠ ماذا	أمصاب ؟ أم ذاك أمر ترومه ؟ »
« بل هو الفن واكتئابه ، والفنان	جم أحـــزانه وهمـــــومه » (٢)

ولست بهذا ــ مرة أخرى ــ أغض من نقد الناقد ، فقد كان يدعوه دائما صديقه عند كل كلام ينقد فيه رأيا من آراء الشـــابى ، وكأنه يلمح طريقة القرآن فى الجدل المعارض حين يرســـل الكلام على لسان الأنبياء من أصحاب الدعوة الى أممهم مصدرا بكلمة « ياقومى » استمالة لقلوبهم ٠٠ كلمة آسرة يتفتح على حروفها ما استغلق من النفوس ٠

وقد يعزو قوم هذا الى صداقة واقعة فعلا بينهما ٠٠ صـــداقة كبيرة تستعلن فى الرسائل والكتب ، وتحدو بالأســـتاذ الحليوى الى

---

(١) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ١٣٠ ٠

(٢) الديوان ــ قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤ ٠

المبالغة (١) فى تقدير الشاعر ككل محب .. ولكنه مهما كانت الأسباب فهو نقد مصقول على كل حال .

نعود الى الشابى الذى كان يغالي بالفن الجميل ، وينكر على الدنيا فى زأره ، أن تعدله بغيره من مظاهر الحياة والأحياء :

الويل للدنيا التى فى شرعها ... فأس الطغام كريشة الرسام

والسخرية الملفوفة فى هذا البيت تستعلن تهكما واضحا فى بيت آخر :

وبنو الأرض كالقرود ، وما أضيع عطر الورود بين القرود

حسبه فى هذا الجو أن يرسل ألحانه رضى لضميره وحده :

لا أنظم الشعر أرجو ... به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء ... تهدى لرب السرير
حسبى اذا قلت شعرا ... أن يرتضيه ضميرى (٢)

وهذا الشمم يؤهله فى عين نفسه لارسال الحكمة ، فتسمع منه أحيانا مثل هذا البيت :

اذا طمحت للحياة النفوس ... فلابد أن يستجيب القدر (٣)

ولكن هذا الشمم نفسه ، العازف عن المدح والرثاء ، فوت حقيقة من الحقائق على ناقد كالأستاذ كرو ، فاعتقد أو شبه له أن الشابى قد امتنع عن قرض الشعر فى الرثاء بعامة (٤) .

وذهب فى هذا الى مدى ، نفى معه رثاء الشاعر لوالده (٥) ، ويرى فى قصيدة (يا موت) فى رثاء أبيه زعما من ناشرها كما (زعم كاتب آخر انها فى رثاء حبيبته) ويقول هو بدوره أن (القصيدة نفسها لا تحدد شخصا معينا ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٦) .

ولكن القصيدة مصدرة بتعليق عليها من الشابى نفسه نصه (.. قلتها فى أيام الأسى التى تلت نكبتى بوفاة الوالد ، رحمه الله) .

---

(١) اقرأ فى كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ، ص ٨٥ حول فلسفة الشابى .
(٢) الديوان ــ قصيدة « شعرى » ص ٣٣ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٧٠ .
(٤) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٨٥ .
(٥) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٥١ .
(٦) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٥١ ــ ٥٢

وإذا جاز أن يحتاج هذا التعليق الى دليل فهذه الأبيات :

ورزأتني ، في عمدتي ، ومشورتي في كل أمر
وهدمت صرحا لا ألوذ بغيره ، وهتكت ستري
ففقدت روحا ، طاهرا ، شهما ، يجيش بكل خير
وفقدت قلبا ، همه أن يستوي في الأفق بدري
وفقدت كفا ، في الحياة يصد عني كل شر
وفقد ركني في الحياة ، ورايتي ، وعماد قصري
وفقدت نفسا ، لاتني عن صون أفراحي وبشري
وفقدت وجها ، لا يعبسه سوى حزني وضري (١)

سمات الأب في عين الابن ·· ألست ترى معي هذا ؟ أما الحبيبة فلها من الصفات التقليدية والخاصة ما يغنيها عن المشورة واللياذ والشهامة والحماية · بل لعل هذه الصفات بالذات لا تتواءم مع الحبيبة مواءمتها مع فارسها الذي تتطلب هي فيه هذه المزايا ·

ولكن الذي زعم أنها في رثاء حبيبته له عذره أيضا ، فقبل الأبيات التي سقتها أبيات أخرى عليها طابع الحب وميسمه ، مثل قول الشابي :

واعده فجري الجميل ، اذا ادلهم على دهري
وأعده وردي ، ومزماري ، وكاساتي وخمري
وأعده ، غابي ، ومحرابي ، وأغنيتي ، وفجري ··

ألفاظ رواقص فيها برد الهوى وعبقه وهي أشبه بطبيعة المحبوب وهوى سمعه ·· ومع ما في الورد والمزمار والكاسات والطلا من جمال وبهر ، فهي لا يتوسل بها الى وصف الأب ·· مجرد الوصف بله الرثاء ·· ألفاظ رواقص كما قلت · لا تليق أبداً أن تقرب من محراب الأبوة والبنوة ·· ولا تستطيع ··

ومن هنا يأتي دور الأستاذ كرو في العذر لاعتباره القصيدة (لا تحدد شخصا معينا ، ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٢) ·

وعندي أن القصيدة قالها الشابي في رثاء والده غير أنه غلبه شبابه وهواه وولعه المفتون بالحالم من اللفظ ، كالورد والمزمار والكاسات والخمر والغاب والغناء ·· غلبه شبابه وهواه · فتنفست الطاقات الهائلة للحب في صدره من طول احتباسها ·· في غير مجالها ·

(١) الديوان قصيدة « ياموت » ص ٩٥ - ٩٦ ·

(٢) كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ص ٥٢ ·

ويعده الأستاذ السحرتي (من أظهر شعراء الرومانتيكية) (١) ٠

ويراه مع (الزهاوي ، والرصافي ، وأبو شادي ، وعمر أبو ريشة ، ورشيد معلوف ، وجورج صيدح ، وقبلان مكرزل ، وغيرهم ٠ في توزعهم بين الأدب الرومانسي والواقعي ، قد مهدوا مرحلة الانتقال ؛ الى دنيا الواقع والحياة ؛ ونزلوا من أبراجهم الى أرض الأحياء ، وأكثر هؤلاء الشعراء لم ينهجوا نهجا واعيا ، ولم يسيروا على مبادىء مبلورة ، وانما كانت ثورة أغلبهم تفسيرا لتجارب باطنية ، قد تكون عارضة ، الا أن الأدب قد غنم منهم تجارب واقعية جديدة ، أو نفسية موحية مشرقة ، فرأيناهم يبذرون الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويتغنون بالآمال الوطنية ، ولا يكتمـون فرحتهم بالحياة ٠٠٠) (٢) ٠

والشابي شاعر ولوع بالنغم يوفره لقصيده ٠ ومن وسائل التنغيم عنده : التكرار ٠٠ تكرار مطالع القصائد في الوسط أو الختام كالتسليم الموسيقي في عالم الألحان ٠٠ ومن قصائد هذا اللون :

تونس الجميلة (٣)
الكآبة المجهولة (٤)
جدول الحب (٥)

وهناك قصيدة :

أنت يا شعر ، فلذة من فؤادي   تتغنى ، وقطعـــة من وجودي

التي يضيق بها الأستاذ فروخ ، لأن فيها يقول : (ثلاثة وعشرين بيتا تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين ٠٠ فيك ما في خواطري من بلاء ٠٠٠٠ فيك ما في عوالمي من ظلام ٠٠ فيك ما في عوالمي من نجوم ٠٠ فيك ما في عوالمي من شـــباب وسراب ويقظة وهجود ٠٠ فيك ما في طفولتي ٠٠) (٦) ٠

يبدو أن الناقد لم يكن في حالة انشراح وهو يقرأ الشابي فهو يتبرم

---

(١) اقرأ ص ٢٣١ من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ٠
(٢) من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٢٣٥ ٠
(٣) الديوان ص ١٣ ــ ١٤ « المطلع هو الختام » ٠
(٤) الديوان ص ٢٣ ــ ٢٤ « فيها مقطع في الوسط تكرر في الختام » ٠
(٥) الديوان ص ٥٩ ــ ٧٢ « المطلع تكرر في الوسط »
(٦) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٨

من ظاهرة يولع بها الأدب العربى ويستعين بها ــ كثيرا ــ على التنغيم ٠

على أن ظاهرة التكرار هذه قد تكون محاولة من الشابى لتهدئة نفسه المختلجة ، اذا أغلب ما يكون التكرار فى قصائده الحزينة ٠

وفى شعر الشابى تقسيم كقوله :

فانت ، وقد غمرتها الدموع **وقرت** ، وقد فاض منها الحباب (١)

وقوله :

ولعلعة الحق الغضوب لها صدى ودمدمة الحرب الضروس لها فم (٢)

وهذه الأبيات :

فالدهر **منتعل** بالنار ، **ملتحف** بالهول ، والويل ، والأيام تشتعل

والأرض **دامية** ، بالاثم **طامية** ومارد الشر فى أرجائها ثمل

والموت كالمارد الجبار ، منتصب فى الأرض يخطف من قد خانه الأجل (٣)

ومن الاته الموسيقية ، الاتباع :

ألبسوا روحه قميص اضطهاد **فاتك شائك** يرد جماحه (٤)

ومن الخانه :

قوى ، غلوب ، كسحر الجفون ، شجى ، لعوب ، كزهر حزين

ضحوك ، وقد بللته الدموع ، طروب ، وقد ظللته الشجون (٥)

وهو نابض القوافى والألفاظ والمعانى والموسيقى :

حسبنا زهرنا الذى نتنشى حسبنا كأسنا التى نترشف

ان فى ثغرنا رحيقا سماويا وفى قلبنا ربيعا مفوف (٦)

وله ألفاظ عليها جدة ولها رواء ، من مثل النبات البليل ٠٠

كان فيه النسيم يرقص سكرانا على الورد ، والنبات البليل (٧)

---

(١) الديوان ــ قصيدة « السآمة » ص ٤٤ ٠

(٢) الديوان ــ قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ ٠

(٣) الديوان ــ قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ ٠

(٤) الديوان ــ قصيدة « تونس الجميلة » ص ١٣

(٥) الديوان ــ قصيدة « المساء الحزين » ص ٥٩ ٠

(٦) الديوان ــ قصيدة « الحانى السكرى » ص ١٦٦

(٧) الديوان قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ ٠

ومن توليداته :

(ويستمنحون مزاميرهم ، فتمنحهم كل لحن عجيب) (١) .

ومع هذا يرى ناقد كالأستاذ محمد خليفة التليسي أن : (قـوة أسلوب الشابي ليست في ألفاظه رغم براعته في استخدامها ، ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي العبقري . ولكنها في قوة احساسه . انه أسلوب تحسه قبل أن تفهمه ، لأن الروح التي تسري فيه ، تأخذ عليك طريقك وتحاصرك فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه) (٢) .

ويصور الشاعر الوصاف السعادة فيقول :

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت ... في الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها ... وزلزلت هاته الأكوان والنظم
فما السعادة في الدنيا سوى حلم ... ناء ، تضحي له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهام معربدة ... لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده ... كأنما الناس ما ناموا ولا حلموا (٣)

وهو رقيق رقة محببة ، مثل خفق الوتر ، على حد تعبيره (٤) .

ومن طرائفه في التعبير :

أبداً يحمل الوجود بما فيه ... كأن ليس للوجود زعيمه (٥)

أرى في (زعيمه) كناية لطيفة عن « الله » .

ومن طرائفه في الصفات : الجيد الثمين ، والطرف الساهي ، والخطو الموقع (٦) .

ومن تشبيهاته الذاتية :

سمعتها صرخة مضعضعة
كجدول في مضايق السبل (٧)

---

(١) الديوان قصيدة « المساء الحزين » ٦٠ .
(٢) كتاب « الشابي وجبران » ص ١١٤ .
(٣) الديوان قصيدة « السعادة » ص ١٥١ .
(٤) الديوان — قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ .
(٥) الديوان — قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤ .
(٦) الديوان — قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧١ .
(٧) الديوان — قصيدة « الكآبة المجهولة » ص ٢٢ .

صورة جميلة فيها الصوت ودرجته ، واللون ، والحركة ، والانفعال .

*****

ولكن هذا الأسلوب المشرق لا يخلو من هنة هنا وهناك ، فالشاعر الرقيق المتانق أجاز لنفسه أن يقول ، ولا أدرى كيف :

ان للحب على الناس يدا تقصـــف الأعمـــار (١)

لماذا ؟ ان الحب يطيل الحياة بالعرض ، اذ ينضرها ويخصبها ..

وزلة أخرى فى القصيدة نفسها :

وله فجرا على طـول المـدى ساطـع الأنـــوار

اقرأ معى من قصيدته (قلب الأم) (٢) :

كل نسوك ، ولم يعودوا يذكرونك فى الحياة
الا فؤاداً ، ظل يخفق فى الوجود الى لقـــاك
ويود لو بــذل الحياة الى المنيـــة ، وافتداك
فان رأى طفلا بكاك ، وان رأى شبحا دعاك (٣)

التياع مشدوه ... يذيب على الوصف بله النظر
هو قلب أمك ، أمك **السكرى** بأحـزان الوجـــود

هنا يبدو لنا رأى ... فمع الحزن يعبر عن فقدان الوعى بالذهول ... بالشرود لا بالسكر الذى له ايحاء السرور والخلو ..

وقلب الأم ألهم الشاعر قصيدة طويلة متدافعة العاطفة كالسيل ، متدفقة التعبير كالطوفان .. وقد طال نفسه فيها حتى أرضى .. غير أنه انتهى منها فجأة كمن يقطع حـديثا اندمجت الأذن فيه ، فقلب الثكلى لا ينسى مهما توالت المظاهر .. مظاهر الاغراء التى عددها الشاعر فى آخر القصيدة وأفاض ، حتى كدنا ننسى الموصوف الأصيل فى الموضوع ، وهو قلب الأم الذى كان السياق يقتضى الشاعر أن يؤكد وفاءه فى الختام كما نوه به أثناء القصيدة . ولست أدرى ان كان هذا يعد من هناته أو من محاسنه كفنان أصيل لا ينطلق عن صناعة وتعمل ، بل ينحدر مسيراً باللحظة التى هو فيها .. يمده الهام فتنطلق المعانى من خلاله فاذا ارتفع

---

(١) الديوان — قصيدة « فى الظلام » ص ١٩ .
(٢) الديوان ص ١٢٩ — ١٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٣١ .

الوحي وتوقف العرض الذى اتخذ من الشاعر مجلاه ·· توقف فى أى نقطة ···

ومن لغوياته لفظه (عراص) (١) ·

ومن ألفاظه الغريبة هذه القائمة :

الأسكوب (٢) كضت الأيام (٣) الخميس المجر (٤) صمات الغروب(٥) معسبات الحياة (٦) يشجى صماته (٧) ·

ويبدو أن الشابي كبير الرضا عن صيغة فعيل وفعول ، فهو يقدم الى رواده هذه الألفاظ وكأنها بعض صحبه :

العهيد (٨) السفيح (٩) الذريف (١٠) ضريح (١١) شطيف (١٢) جفيف (١٣) عنيد (١٤) وهيد (١٥) عسوف (١٦) الفزوح (١٧) ·

على أنه يكاد ينعقد الاجماع على جمال أسلوب الشابى ·· سلم بهذا حتى الذين تعنتوا معه ، فالأستاذ فروخ الذى يسخو فى اطلاق الأحكام المقتضبة من غير شاهد يثبت صواب رأيه أو حتى يسوغه (١٨) ·

والذى لا يرى فى شعر الشابى أثراً لثقافة واسعة (١٩) ! ناسيا أو متناسيا أن مهمة الشاعر ليست أن يصنف موسوعات علمية ··· وهو بعد يجب أن يستوحي قلبه أولا ، فمن الشعور لا العقل اشتق الشعر ·· مثل هذا الناقد على كل حال يرى أن شعر الشابى (كلام جميل) ولو

---

(١) الديوان ص ٦١
(٢) الديوان ص ٣٧
(٣) » » ٥٨
(٤) » » ٥٢
(٥) » » ٦٦
(٦) » » ٦٠
(٧) » » ٦٧
(٨) » » ٦١
(٩) » » ٦٢
(١٠) » » ٦٢
(١١) » » ٦٢
(١٢) » » ٦٢
(١٣) » » ٦٢
(١٤) » » ٨٦
(١٥) » » ٧٧
(١٦) » » ٦٢
(١٧) » » ٧٧
(١٨) اقرأ ص ١٦٩ من كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ ·
(١٩) المصدر السابق ص ١٦٩ يقول الناقد : (ليس فى شعر الشابى أثر لثقافة واسعة ان الرجل يتكلم من قلبه لا من عقله) ·

(٦)

أنه عز عليه أن ينصفه لو صح أن (كلام) هذه لا تخلو من تهوين ... فمضى يقول (وشعره كلام جميل أكثر منه كلاما مصيبا ، وفيه موسيقى أكثر مما فيه منطقا متسقا) .

وهل ينفصل الصواب عن الجمال ؟ ألا يشنوه الخطأ الجمال في (الكلام) فلا يعد يوصف بأنه جميل .. ما أحوج النقد الى نقد .

لا ضير فان الشابي حظي من الانصاف بالكثير ، أو ذكراه بتعبير أصح ، فلست متأكدة ان كان يدري من وراء الحجب الذي ضربت بيننا وبينه بهذا الذي تمنى بعضه في حياته ، فلم يظفر الا بالجحود والنكران. وجد الشابي على كل حال من يقول :

(اذا كان الشعر الحي الخالد هو الذي تظهر فيه شخصية صاحبه قوية واضحة ، وتطبعه بطابع خاص ، فشعر الشابي من هذه الناحية من أخلد الشعر وأشده حيوية . فشخصية الشابي تظهر في شعره بقوة ووضوح فائقين حتى أنك لو وضعت شعره بين مئات من شعر غيره لما خفي عليك ، ولعرفته بهذه اللألاء الباهر المتجلي في ديباجته المشرقة ، وهذا الخيال الرائع القوي الجبار (١)) .

ومن كمال هذه الشخصية عند الأستاذ خليفة محمد التليسي . وابرز مظاهر استقلالها أن : تكون لها نظرة في الحياة تنسجم مع مقوماتها ، وفلسفته ، أو نظرته الى الحياة لا تستقل عن شخصيته ، بل هي موسومة بطابع لا يمكن أن يكون لغيره ، **ولقد بلغ من وضوحه وقوته درجة تستطيع أن تتبينه في من أثر فيهم الشابي . وليس أيسر من الاحساس بنغماته خلال عدد كبير من قصائد شعراء الشباب (٢)**

وحين يؤرخ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور للحركة الأدبية في تونس // يرى أن : اللغة العربية ومناهجها الأدبية ، لم تستعص عن محاولاته المرهفة ، بل لانت له كما يلين الصخر لنحت الفنان ، فجاءت قوالب شعره رقيقة صافية محكمة النسج رائقة النظم ، شيقة التعبير ، معتدلة المقاطع ، ثرية من طلاوة الفصاحة ورونق البديع ، بحيث أن أشد الناس انكارا لمذهبه في تجديد المعاني والأغراض ، لا يقدر أن يغض من

---

(١) الأستاذ محمد الحبيب شلبي . مجلة الامام ـ العدد الخامس ـ السنة ٣،٢ الصادر في ٣٤/١٢/٣١ ص ٣١ .

(٢) كتاب « الشابي وجبران » ٩٩ .

براعته العجيبة فى اتقان الصناعة البلاغية التى هى مقيـــاس الجـــودة المشترك بين المشارب المتباينة (١) .

ويلهج الأستاذ كرو بأسلوب الشابى فى أكثر من موضع من كتابه (الشابى) فمظهر امتيازه (دقة بالغة فى تعبيره ، وبراعة فائقـة فى فى تصويره ص ٧٧ ثم يعود فى الصفحة التالية ص ٧٨ يرى شاعريته ممثلة فى صدقه فى التعبير ودقته فى التصوير .. ويبدو أن صديقنـا النـاقد متأثر هنـا بتعريف الشابى للشعر الذى نشره له فى ص ١٣٩ (مقال الشعر) ... ومع ما فى هذا الوصف من اشارة وتقدير ، فان ايراده على هذه الصورة وبهذا الاصرار الذى يوحى بالقصر .. فيه غبن لشاعر تعددت ميزاته ومجالاته ..

والشابى شاعر طويل النفس يستبقيك معه فترة ليست بالقصيرة فى قصائده : أيها الليل (٢) ، يا شعر (٣) ، فى فجاج الآلام (٤) ، جدول الحب بين الأمس واليوم (٥) .

نشيد الأسى (٦) ، النبى المجهول (٧) ، صلوات فى هيكل الحب (٨)، قلب الأم (٩) ، حـديث المقبرة (١٠) ، الجنـة الضائعة (١١) ، ارادة الحياة (١٢) ، تحت الغصون (١٣) الغاب (١٤) .

والديوان تغلب عليه « القافية الواحـــدة » التى نظم منهـا ٥٩ قصيدة (١٥) :

---

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٢٥ ــ ٢٨

(٣) الديوان ص ٣٥ ــ ٤٠

(٤) الديوان ص ٦٥ ــ ٦٨

(٥) الديوان ص ٦٩ ــ ٧٢

(٦) الديوان ص ٨٣ ــ ٨٥

(٧) الديوان ص ١٠٣ ــ ١٠٥

(٨) الديوان ص ١٢١ ــ ١٢٤

(٩) الديوان ص ١٢٩ ــ ١٣٣

(١٠) الديوان ص ١٣٤ ــ ١٤٠

(١١) الديوان ص ١٤٧ ــ ١٥٠

(١٢) الديوان ص ١٦٧ ــ ١٧٠

(١٣) الدوان ص ١٧١ ــ ١٧٤

(١٤) الديوان ص ١٨٨ ــ ١٩١

(١٥) القصائد :

« تونس الجميلة » ص ١٣ ــ ١٤

« خله للموت » ص ١٤

« غرفة من يم » ص ١٧

« زئير العاصفة » ص ٤٢

« السآمة » ص ٤٤

« من حديث الشيوخ » ص ١٤

« الحياة » « ١٥

« أيها الليل » « ١٥ ــ ٢٨

« الى الطاغية » « ٤٣

« الحب » « ٤٥ =

حين عدد القوافي في ١٥ قصيدة (١) . منها قصيدتان عبارة عن مقطوعات ذات روى مستقل ، هما : (نظرة في الحياة) و (شعري) .. ومنها قصيدة هي رباعيات مزدوجة ذات رويين متتابعين (٢) .

= « أيها الحب » ص ٤٥
« المجد » ص ٥٢
« الذكرى » ص ٥٣
« قالت الأيام » ص ٥٨
« أغنية الشاعر » ص ٦٤
« صوت تائه » ص ٨١
« قلت للشعر » ص ٨٧
« الى قلبي التائه » ص ٩١
« ياموت » ص ٩٥
« النبي المجهول » ص ١٠٢
شجون » ص ١٠٨
أحلام شاعر » ص ١١٤
« أنا أبكيك للحب » ص ١١٧
« رثاء فجر » « ١٢٦
« حديث المقبرة » « ١٣٤
« قال قلبي للاله » « ١٤٦
« السعادة » « ١٥٦
« الأبد الصغير » « ١٥٦
« ذكرى صباح » « ١٦٢
« ارادة الحياة » « ١٦٧
« الناس » « ١٧٨
« الاعتراف » « ١٨٢
« قلب الشاعر » « ١٨٣
« شكوى ضائعة » « ١٨٦
« فلسفة الثعبان المقدس » « ١٩٢

« الدموع » « ٤٦
« سر مع الدهر » « ٥٢
« مناجاة عصفور » « ٥٥
« بقايا الخريف » « ٦٢
« يا رفيقي » « ٧٣
« نشيد الأسى » « ٨٣
« يا ابن أمي » « ٨٨
« أكثرت يا قلبي فماذا تروم » « ٩٣ ـ ٩٤
« الى الله » « ٩٨
« صفحة من كتاب الدموع » « ١٠٦
« الجمال المنشود » « ١٠٩
« قيود الأحلام » « ١١٥ =
« صلوات في هيكل الحب » ص ١٢١
« فكرة فنان » « ١٢٧
« الساحرة » « ١١٤
« الجنة الضائعة » « ١٤٧
«أيتها الحالمة بين العواصف» « ١١٥
« صوت من السماء » « ١٥٨
« الرواية الغريبة » « ١٦٤
« تحت الغصون » « ١٧١
« نشيد الجبار » « ١٧٩
« حرم الأمومة » « ١٨٢
« الدنيا الميتة » « ١٨٤
« الغاب » « ١٨٨

(١) القصائد :

« نظرة في الحياة » ص ١٥
« الطفولة » « ٥٧
« الى عازف أعمى » « ٧٨
« من أغاني الحياة » « ١٥٢
« أبناء الشيطان » « ١١٩
« الى طغاة العالم » « ١٨٥
« الى الشعب » « ١٧٥

« شعري » ص ٣٢
« الأشواق التائهة » « ١١٢ـ١١٣
« أراك » ١٣٥
« الصباح الجديد » « ١٥٩
« زوبعة في ظلام » « ١٨١

(٢) قصيدة « الطفولة » « ٥٧

ومن تواشيحه : مأتم الحب (١) ، شكوى اليتيم (٢) ، أغانى (٣) ·

ونظم الشابى من الرباعيات (الثنائية) سبع قصائد (٤) ، ومن رباعياته المزدوجة غيرها قصيدته (فى ظل وادى الموت) (٥) ·

ولا يهم هنا الاحصاء الا من حيث دلالته الخاصة بالشاعر ومنحاه نحو التحرر من قيود القافية العربية أو التمسك بها ، ثم دلالته العامة على نزعة الشعر العربى فى أمر هذه القافية ·· أما فيما عدا هذا فلتؤد الطاقة الشعرية ·· الطاقة الفكرية ·· الطاقة المعنوية ·· فى أى صورة من الصور .. شعر مقفى أو مرسل ما دام يزكى قدرتنا على التقدم ، ويزيد ثروتنا من الابداع الأصيل ··

وبالشابى ميل الى التسكين · وتسكين القافية عنده غير قاصر على موشحاته ورباعياته ، بل يتناول قصائده أيضا ·

ويقول الأستاذ زين العابدين السنوسى :

أن أبا القاسم لم يكن يكتب شعره بيتا بيتا · بل كان يخطر له القصيد « خاطرة » واحدة ، ونفحة واحدة ، فاذا غرق فى صناعة تلك النفحة ، غرق فى نفسه فلا يلتفت لقلم ولا ورق ، وانما اذا أتمه ارتاح لحظة ، حتى اذا استجم نشاطه من جديد ، أخذ الورق والقلم ، وبدأ يستنسخ القصيد أو المقطوع فينقلها الى ورقة عن الأصل الذى انصاغ فى قلبه ونقش فى ذاكرته) (٦) ·

---

(١) الديوان ص ٢٧·

(٢) الديوان ص ٢٩·

(٣) الديوان ص ٨٩

(٤) القصائد :

« أنشودة الرعد » ص ١٨ — « فى الظلام » ص ١٩

« الزنبقة الذاوية » ص ٣١ — « يا شعر » ص ٣٥ ·

« جدول الحب بين الأمس واليوم » ص ٦٩ ·

« قلب الأم » ص ١٢٩ ·

« الحانى السكرى » ص ١٦٥ ·

(٥) الديوان ص ١٤١ ·

يعد الأستاذ ابراهيم العريض قصيدة الشابى « فى ظل وادى الموت » مثالا من امثلة تنويع القوافى ، بالمناوحة بينها فى كل عقد يؤلف من ثلاثة أبيات فاكثر على أشكال فى قصيدة ذات عقود متشابهة النغم ·

اقرأ كتاب « الشعر وقضيته » للأستاذ ابراهيم العريض ص ٧٨

(٦) مجلة الندوة — السنة الأولى العدد ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٣ ·

ويؤيد هذا ما جاء فى رسالة الشاعر إلى صديقه الحليوى من اشارة الى قصيدة (نشيد الجبار) والاشارة تهمنا هنا بقدر كشفها عن طريقته فى النظم ودلالة هذه الطريقة عليه ٠٠ اليك قصته :

(٠٠ نمت معذب النفس مهموم القلب ، ثم استيقظت نحـو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فلجت بى الآلام وضربت بى فى كل سبيل ، حتى لقد كاد رأسي ينفجر وأحسست أنى لا بد مشف على الجنون لو دام بى ذلك الحال الى الصباح ٠ وتطورت نفسى فى غمرة الألم فبعد أن كانت معذبة باكية فى ظلمة أحزانها ، تكاد تجن من الأسى ، انقلبت ثائرة هائجة ، واثقة من نفسها ، ساخرة بالقدر والداء والأعداء ٠ وكل آلام الحياة ، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت « نشيد الجبار » فذابت آلام نفسى ، وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبى عبئا ثقيلا يهـــد القوى ٠ وقد نظمتها فى تلك الليلة ٠ ولكن نفسى لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها ، وفى نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا ، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت منها كلمة واحدة ، فكتبتها ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين ، وبعض تنقيحـــات رأيتهـــا لا بد منها ٠٠٠) (١) ٠

***

يقولون (ان المرء اذا عظم كثرت أسماؤه) ويبدو أن الشابى يريد أن يعدل قليلا هذا المثل فيستبدل بالأسماء ، الصفات ٠٠ فقد تعـددت صفاته فهو :

صاحب مدرسة (٢)
صاحب فلسفة (٣)
صاحب مذهب (٤)
شاعر عبقرى (٥)

---

(١) مجلة الفكر ــ العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ٠
(٢) الأستاذ الحليوى كتاب « مع الشابى » ص ١٠٧ ٠
والأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ٧٢ ٠
(٣) الأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ٨٥ ٠
(٤) الأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ١٠٨ ٠
(٥) الأستاذ السحرتى « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٣٩ ،
واقرأ للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى « مذاهب الأدب » ص ١٥٠ ــ ١٥٣ ٠

شاعر متحلل (١)

من أصحاب المذهب الاجتماعى (٢)

شغل النقاد فى حياته وبعد الحياة ٠٠ اذن لا بد أن نخرج من هذا كله مجتمعا ومتفرقا بأنه كان موجودا ٠٠ وسواء سمى قوم الجذوة المتوهجة النور والاشراق ، أو سموها النار والاحراق فهى جذوة ٠ تتضوأ وبهذا ترتفع على الرماد المعتم المتخلف عن الخلق ، القابع فى سلبية وخمول ٠

هذا هو ديوان الشابى الذى رفعه قوم الى سماء الخلـــود ، وحكم عليه أو على بعضه ، آخرون بالاعدام — أى والله بالاعدام ! فالأستاذ فروخ — مثلا — يرى (أن ديوان الشابى لا يجوز أن ينشر كاملا بل يحسن أن تنشر منه مختارات فقط) (٣) ٠

هب يا سـيدى أن الديوان به الغث والسمين ، ألا ترى كناقد أن الدراسة العلمية الصحيحة تقتضى تواجد آثار الفنان جميعـــا — الغث والسمين — للتفسير والاستشفاف ، ولمح التطور عليه وعلى فنه ٠٠

ترى هل من المختارات المرضى عنها ، شعر الشابى فى الطبيعة ، وطنياته ؟ أيا كان الجواب سأتحدث عن هذين اللونين للحقيقة والتاريخ ولكم ٠٠

---

(١) الأستاذ فروخ كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٢ ٠

(٢) الأستاذ السحرتى فى كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ١٥ ٠

(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٧٠ ٠

يا أيها الشادى ، المغرد ها هنــا ثملا بغبطــة قلـبه المسرور
قبل أزاهــير الربيع ، وغنهـــا رنم الصباح الضاحك المحبور
واشرب من النبع الجميل، الملتوى ما بين دوح صنوبر وغـدير
واترك دموع الفجر فى أوراقهـــا حتى ترشفها عروس النــور (١)

الا يذكرك هنا بروستو ، الذى كان يتحاشى النمـل فى الحقــول فلا تطؤه ، من الرحمة قدماه ؟

ويبدو الشاعر علائيا فى هذه اللفتة من لفتاته :

يا زهرة سامها العابرون خسفا وهونـــا
لو كنت شوكا عضوضا ما داسك العابرونا
لأنهم يجهلون الوحى الذى تضمرينـــا

هم يسخرون بهمس الزهور ، وهو بديـع
وينصتون لصوت الأشواك ، وهو مريـــع
فلا تبــالى بقـــوم الحق فيهم صريع (٢)

ان زهرة الصديق ، لتذكرنا بفرخ أبى العلاء الذى وصفه له الطبيب فسخر من الحياة وطبها ، فى هذه الزفــرة المأثورة عنه (استضعفوك فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد ؟) .

يا زهــرة سامها العابرون خسفا وهـــونا
لو كنت شوكا عضوضا ما داسك العابرونا

(١) الديوان ــ قصيدة « مناجاة عصفور » ص ٥٦ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « فى فجاج الآلام » ص ٦٨ .

ان الرجلين يتلاقيان ... فى تقديرى على الاقل ..

وهو مفتوح الحس والهوى والفؤاد للطبيعة :

وافتح فؤادك للوجود ، وخلـه   لليم للأمواج ، للديجور
للثلج تنثره الزوابع ، للأسى   للهول ، للآلام ، للمقدور
واتركه يقتحم العواصف ، هائما   فى أفقها ، المتلبد ، المقرور
ويخوض أحشاء الوجود ، مغامرا   فى ليلها ، المتهيب ، المحذور
حتى تعانقه الحياة ، ويرتوى   من ثغرها المتأجج ، المسجور
فتعيش فى الدنيا بقلب زاخر   يقظ الشاعر ، حالم ، مسحور
فى نشوة صوفية ، قدسية ،   هى خير ما فى العالم المنظور (١)

ان الشاعر هنا يعيش فى لحظة مضيئة زاخرة تجيش فيها عاطفته ، وتتدافع حتى لا يملك معها وقتا يختار فيه لفظه ، ثم يجرفه تيارها العاتى الى مثل هذا التعبير (يخوض أحشاء) .. صورة بشعة فيها فتك وضراوة ، ويزيد فى وقعها على النفس صدورها عن شاعر رقيق حالم مخملى الأسلوب .. ويزيد فى وقعها على النفس ، ورودها فى موضوع محلق .. فطالما تمنيت على الأدب العربى وله ، أن يتحد بالطبيعة ويفيض بها الروح والحرارة فتتحرك وتحس .. ويتجاوبان ..

وفى حضن الطبيعة ملاعبه ، يغنى مع النسيم تارة ، ويصغى تارة أخرى الى قلب الطبيعة المتغنى :

نحن نلهو تحت الظلال ، كطفلين   سعيدين ، فى غرور الطفوله
وعلى الصخرة الجميلة فى الوادى   وبين المخاوف المجهوله

نحن نغدو بين المروج ونمسى   ونغنى مع النسيم المغنى
ونناجى روح الطبيعة فى الكون   ونصغى لقلبها المتغنى (٢)

ويناجيها فى حب رؤوم :

يهجع الكون فى طمأنينة العصفور ، طفلا ، بصدرك الغربيب (٣)

وبأحضانك الرحيمة يستيقظ فى   نضرة الضحوك ، الطروب
شاديا ، كالطيور بالأمل العذ   ب ، جميلا ، كبهجة الشؤبوب

نفس تنتفض نشوة على وقع قطرات المطر :

---

(١) الديوان ــ قصيدة « فكرة الفنان » ص ١٢٨ .

(٢) الديوان ــ قصيدة « الحانى السكرى » ص ١٦٥

(٣) الديوان ــ قصيدة « أيها الليل » ص ٢٥ ــ ٢٦ .

ياظلام الحياة ! ياروعة الحـــز ن ! ويامعـزف التعيس الغريب

يا روعة الحزن ·· نفس هفافة ·· كل شيء يروعها حتى الحزن ··

يا ظلام الحياة ! ان الغناء المنهل فى أول القصيدة ، ليس الا تغطية ما لبثت أن تخلت عنه عند بيته :

يا ظلام الحياة ! يا روعة الحـــز ن ! ويا معزف التعيس الغريب

واذ أفلت الزمام من يده انطلق على سجيته الحقيقية :

صاح ان الحياة أنشودة الحـــز ن ، فرتل على الحيـــاة نحيبى
ان كأس الحياة مترعـة بالدمـــ ـع ، فاسكب على الصباح حبيبى
ان وادى الظـــلام يطفح بالهـــو ل ، فما أبعد ابتسام القـــلوب
لا يغرنـــك ابتســـام بنى الأر ض ، فخلف الشعاع لذع اللهيب
أنت تـــدرى ان الحياة قطـــو ب وخطوب ، فما حياة القطوب ؟
ان فى غيبة الليالى تبـــاعا لهيبا يمر اثر خطـــوب

حقا لا يغرنك ابتسام بنى الأرض ، فخلف الشعاع لذع اللهيب ·

ولكن ليس معنى هـــذا أن يستسلم لتشـــاؤم لا يرى فى الحياة اشراقا ، أو صفواً حتى ليقول :

ماسكوت السماء الا نجـــوم مانشيد الصباح غير نحيب
ليس فى الدهر طائر يتغنى فى ضفاف الحياة غير كئيب
خضب الاكتئاب أجنحة الأيـا م ، بالدمع والـــدم الأسكـــوب
وعجيب أن يفرح الناس فى كهف الليالى بحزنها المشـــبوب !

وهيهات أن تزحزحه عن هذا الرأى ·· فى هذه القصيدة على الأقل ·

لا تحاول أن تنكر الشـــجو ، انى قد خبرت الحيـــاة خبر لبيب
فتبرمت بالسكينة والضجة ، بـــل قـــد كرهت فيها نصيبى
انه ضـــيق بـــكل شيء ·· لم ؟ أى شيء يسر نفس الأريب .
أنفوس تموت ، شاخصـــة بالهـــول ، فى ظلمة القنـوط العصيب ؟
أم قلوب محطمات على ساحل لج الأسى ، بمـــوج الخطـــوب ؟

انما الناس فى الحيـــاة طيـــور قد رماهـــا القضـــا بواد رهيب
يعصف الهول فى جوانبه الســـو د فيقضى على صدى العندليب (١)

(١) الديوان ــ قصيدة « أيها الليل » ص ٢٧ ·

ولكن هذا الالم لا ينسيه الطبيعة .. أبدا .. انه يزيده منها قربا ، ويزيده بها تعلقا . بل اتحادا .. امتزاجا .. تجاوبا ..

مـالى تعـذبنى الحيـاة كأننى خلق غريب ؟
يا مهجـة الغاب الجميـل ألم يصـدعك النحيب ؟
يا وجنـة الورد الأنيـق ألم تشوهـك النـدوب ؟
ياغيمـة الأفـق الخضيب ألم تمزقـك الخـطوب ؟
يا جدول الوادى الطـروب ألم يرنقـك القطـوب ؟
يا كوكب الشفق الضحـوك أما ألم بك الشحوب ؟ (١)

..... **ومن حديثه مع « الزنبقة الداوية » :**

وان جرفتنى أكف المنون الى اللحـد ، أو سـحقتك الخطـوب
فحزنى وحزنـك لا يبرحـان أليفين رغم الزمـام العصيب

وتحت رواق الظـلام الكئيب اذا شمل الكون روح السحـر
سيسمع صوت ، كلحن شجى تطاير من خفقـات الوتـر

يردده حـزننا فى سـكون على قبرنا ، الصامت المطمئن
فنرقد تحت التراب الأصـم جميعا على نغمات الحـزن (٢)

واشهى الغناء عنده ما كان :

« للضياء البنفسجى الحـزين »
« للضـباب المورد ، المتـلاشى كخيالات حـالم ، مفتـون »
« للمسـاء المطل للشفق الساجى لسحر الأسى ، وسحر السكون »
« للعبير الذى يرفرف فى الأفق ويفنى ، مثل المنى ، فى سكون »
« للأغانى التى يرددهـا الراعى بمزمـاره الصـغير ، الأمين »
« للربيع الذى يؤجج فى الدنيـا حيـاة الهـوى ، وروح الحنين »
« ويوشى الوجود بالسحر والأحلام والزهر ، والشذى ، واللحون » (٣)

وهـو مفتون بالطبيعة ... ضباب الصباح .. وسحر المساء ... وضوء القمر ... والنور ... والظل ... والنبع ــ والمرج .. والزهر والطير .. والنسيم والمطر .. **حتى الظلام يأسره فيهتف :**

« آه ! ما أجمل الظلام ! وأقوى وحيه فى فـؤادى المفتـون ! »

---

(١) الديوان ــ قصيدة « نشيد الأسى » ص ٧٣ ــ ٧٤ .
(٢) الديوان ــ قصيدة « الزنبقة الذاوية » ص ٣٢ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧١ .

« أنظرى الليل فهو فى حلة الأحلام يمشى على الذرى والحزون »
« واسمعى الغاب، فهو قيثارة الكون تغنى لحبنا الميمون »
« ان سحر الضباب، والليل، والغاب بعيد المدى ، قوى الفتون »
« وجمال الظلام يعبق بالأحلام والحب .. فابسمى والثمينى (١) »

انها الطبيعة لا تغيب عنه فى غضبه ورضاه ، فهى مجلى وصفه مهما اختلف الموضوع ، حتى فى ثورته على قومه النيام (٢) ..

حتى صرخاته للحرية والكرامة يستوحيها من .. الكائنات .. من روحها المستتر .. من الوجود حوله .. من الطبيعة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر فى جوها ، واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لى الكائنات وحدثنى روحها المستتر (٣)

فالريح تدمدم :

« اذا ما طمحت الى غاية ركبت المنى ، ونسيت الحذر »
« ولم أتجنب وعور الشعاب ولا كبة اللهب المستعر »
« ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر » (٤)

والأرض تقول :

« أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر »
« وألعن من لا يماشى الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر »
« هو الكون حى ، يحب الحياة ويحتقر الميت ، مهما كبر »
« فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر »
« ولولا أمومة قلبى الرءوم لما ضمت الميت تلك الحفر »
« فويل لمن تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر (٥) »

ولما كان معنى النفس بآلامه وآلام شعبه معا .. شعبه الذى يصرخ فيه فتضيع صرخته فى الفضاء ، أو هكذا يخيل اليه ، فهو يريد أن يتناسى

---

(١) الديوان – قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٤ .
(٢) ص ١٧٥ – ١٧٨ الديوان قصيدة « الى الشعب » .
(٣ ، ٤) الديوان – قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ .
(٥) ص ١٦٨ .

هذا الواقع الحالك ، فيرتمي في أحضان الطبيعة الرءوم على صدرها . يهدهد أساه فتحلو له صحبة أطفالها : الجدول ، والبلابل ، والغاب ، والفجر ، والنجوم ، والنهر ، والضياء ، والصدى ، والطل ، والنسيم .. ان الانسان ابن الطبيعة البكر ، وهو أدنى الى قلبها من هؤلاء جميعا ، لأنه أشد بها علوقا وأكثر لها تمجيدا ..

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنيا سعيداً بوحدتى وانفرادى
أصرف العمرفي الجبال، وفي الغابات، بين الصنوبر المياد
وأغنى مع البلابل فى الغاب ، وأصغى الى خرير الوادى
وأناجى النجوم، والفجر، والأطيار والنهر ، والضياء الهادى
عيشة للجمال ، والفن ، أبغيها بعيداً عن أمتى وبلادى
لا أعنى نفسى بأحزان شعبى فهو حى ، يعيش عيش الجماد
وبعيداً عن المدينة والناس ، بعيدا عن لغو تلك النوادى (١)

يقول الأستاذ أحمد المختار الوزير معللا غضبه الشابى هنا :

(فشعور أبى القاسم بدائه (فى هذا القصيد) ليس الا خيطا مفردا ، له حصة من الوجود النفسى الشامل له ولغيره ، من خيوط أخرى مكونة باضافتها اليه ، وباضافته اليها نسيج الحالة النفسية المعبر عنها . وليست حصة ذلك الخيط من الوجود النفسى هى أوفى الحصص ، ولا نصيبه من ذلك الوجود هو أوفى نصيب ، بل ان **أثر الحياة الاجتماعية ليبدو من خلال القصيد ، أبعد توغلا فى نفس الشابى من كل شيء سواه مما له اتصال بعلته واشتداد علته** » (٢) .

(لقد وسع قلب الشابى ولبه حياة الناس يومذاك وشعر بما كان شائعا مستفيضا فى دواخلها من سوء وفساد ، **فلم يضق بشيء من ذلك بمثل ما قد تألم له** . ولم ينشد لنفسه فرارا منه ، بمثل ما أراد له من صلاح . ولم ييأس من قدرته على صلاحه ، بمثل ما آمن به من تلك القدرة على الصلاح ، وهل قصيدة « أحلام شاعر » الا صورة من ذلك الايمان ، وان تغشاها لون من اليأس ؟ أليس الأحق أن نقول : ان الشابى فى هذه القصيدة ، لا ينشد الفرار ، وانما كان ينشد القرار ؟ وهيهات أن يجد القرار ، ما دام مرددا بين النقص والكمال) (٣) .

***

---

(١) الديوان – قصيدة « أحلام شاعر » ص ١١٤ .

(٢ ، ٣) مجلة الفكر – عدد أكتوبر سنة ١٩٥٦ مقال « أحلام شاعر » ص ٣١ .

وهو منسحر بالغاب ينشده مستراضا ومعـــزلا ، وقدس هــوى ، ومجلى الهام ، ومسرح أحلام ، ومغنى شاعر ... فيه يتملى سحر الطبيعة وسحر الحبيبة فى حنان ولذة وذهول ، وفيه يروى من الحسن المشرق فى أمان وفرحة ...

كان فيه النسيم ، يرقص سكرانا على الورد ، والنبات البليـــل
وضباب الجبال ، ينساب فى رفق بديع ، على مروج الســهول
وأغانى الرعاة ، تخفق فى الأغوار والسهل ، والربا ، والتـــلول
ورحاب الفضاء تعبق بالألحـان والعطر ، والضـــياء الجميـــل
والملاك الجميـــل ، ما بين ريحـان وعشب ، وســـنديان ، ظليـــل
يتغنى مع العصافير ، فى الغـــاب ويرنو الى الضـــباب الكســـول
وشعور الملاك ترقص بالأزهـــار والضوء ، والنسيم ، العليل (١)

ويروى الأستاذ كرو عنه أنه (لم تكن للشابى طيلة حياته أمنية أو رغبة يحن اليها ويرغب فى تحقيقها ، كالغـــاب بسروه وسنديانه وبكل ما فيه من نبات وحيوان ، وسماء صافية ، وماء نمير) (٢) .

الغاب ... الغاب ... يروعه ويستهويه ... وهو عنده :

بيت ، من السحر الجميل، مشيد للحب ، والأحلام ، والالهام (٣)
فى الغاب سحر ، رائع ، متجدد باق على الأيام والأعـــوام
وشــذى كأجنحة الملائك ، غامض ساه يرفرف فى سكون ســـام
وجداول تشـــدو بمعسول الغنـــا وتسير ، حالمـة ، بغـير نظـــام
ومخارف نسج الزمان بساطها من يابس الأوراق والأكمـــام
وحنا عليها الدوح ، فى جبروته بالظل ، والأغصان ، والأنســـام
فى الغاب ، في تلك المخارف،والربا وعلى التلاع الخضر ، والآجـــام
كم من مشاعر ، حلوة ، مجهولة سكرى ، ومن فكر ، ومن أوهام

وللغاب عنده قصة بل أقاصيص :

لله يوم مضيت أول مـــرة للغاب ، أرزح تحت عبء سقامى
ودخلته وحدى ، وحـــولى موكب هزج ، من الأحلام والأوهـــام

(١) الديوان ــ قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ .
(٢) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ٩٢ .
(٣) الديوان ــ قصيدة « الغاب » ص ١٨٨ ــ ١٩٠ .

ومشيت تحت ظلاله متهيبا كالطفل في صمت ، وفي استسلام
أرنو الى الأدواح ، في جبروتها فأخالها عمد السماء ، أمامي
قد مسها سحر الحياة ، فأورقت وتمايلت في جنة الأحلام
وأصيخ للصمت المفكر ، هاتفا في مسمعي بغرائب الأنغام ،
فاذا أنا في نشوة شعرية فياضة بالوحي والالهام
والغاب ...
ساج ، والحياة مصيخة والأفق ، والشفق الجميل ، أمامي
وعروس أحلامي تداعب عودها فيرن قلبي بالصدى وعظامي
روح أنا ، مسحورة ، في عالم فوق الزمان الزاخر الدوام

وفي الغاب (١) نفض همومه ، وتخفف من أحزانه ، ونسي الناس وحبائلهم وسخافاتهم .. في كل شيء ... كل شيء ... تطهر وكأنه ولد من جديد ... تفتح للحياة والضوء ، والنسيم ... تفتح للخيال والشعر .. :

في الغاب ، في الغاب الحبيب وانه حرم الطبيعة والجمال السامي
طهرت في نار الجمال مشاعري ولقيت في دنيا الخيال سلامي
ونسيت دنيا الناس، فهي سخافة سكرى من الأوهام والآثام
وقبست من عطف الوجود وحبه وجماله قبسا ، أضاء ظلامي
فرأيت ألوان الحياة نضيرة كنضارة الزهر الجميل النامي
ووجدت سحر الكون أسمى عنصرا وأجل من حزني ، ومن آلامي
فأهبت ــ مسحور المشاعر ، حالما نشوان ــ بالقلب الكئيب الدامي
« المعبد الحي المقدس هاهنا يا كاهن الأحزان والآلام »

لقد تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها كاهنا :

فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله والبس رداء الشعر ، والأحلام(٢)

وروعي النقاد هذا الشعر فأمن بعضهم عليه ، وسلم بأن الطبيعة (تفجر له من ينابيع المعرفة أصفاها وأعذبها ، وتكشف له عن جمالها وفتنتها في ساعات الصفاء والانفراد وتخلق له دنيوات أخر ، تخصه بها وتؤثره !) (٣) .

---

(١) سنفصل الحديث عن سر تعلق الشابي بالغاب في فصل « الشابي والمهجر »
(٢) الديوان ــ قصيدة « الغاب » ص ١٩١ .
(٣) الأستاذ عبد العزيز عتيق . مجلة الامام ــ العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ ٣٤/١٢/٣١ ص ٣٠ .

وتجاهله البعض الآخر · لا بل ان هناك من أغمض عينيه ثم راح يقول أنه لا يرى شيئا ، وأن وصف الطبيعة عند الشابى (... قليل جدا بل هو نادر بالاضافة الى مجموع شعره) (١) · وهى دعوى كبيرة كما ترى لا تترك عادة بغير تلطيف فأردف الناقد قائلا : (على أن أقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان : قصيدته « فى تونس » ، وقصيدته « من أغانى الرعاة ») (٢) ·

الطبيعة عند الشابى قصيدتان .... قصيدتان فقط ...

لقد ذهب الشابى فى طفولتى الباكرة · فأنا لم أره الا فى شعره · أما معرفتى بالناقد فلا تتجاوز كتابه (شاعران معاصران) أى أنى لم أر الشاعر أو الناقد ، ولكنى رأيت تحاملا ، فليست الطبيعة بالموضوع الوحيد الذى ثلب فيه الأستاذ فروخ الشابى بل حاول أن يغض من هتفة الوطنية عنده ثم لم يكفه هذا كله فغمزه فى دينه ! تلمح هـذا كله فى موضعه من الكتاب ... فلنأخذ الشاهد من موضوع هذا الفصل وهو الطبيعة ... وأعنى قصيدة (أغانى الرعاة) التى التقى النقـاد كلهم (٣) عندها ، لا يستجيدها الأستاذ فروخ الا بعد أن لفتت أنظار الشاعر الأسوجى « كارل ألوف سفننغ » فنقلها الى اللغة الأسيوجية (السويدية) ...

ومع هذا لا بأس من أن يشوب المدح بشىء من التجريح ، فالقصيدة موفقة لأنها (خارجة من قلب الشاعر ، وأحسن تعبيرا عن نفسه من عدد من قصائده التى تكثر الصنعة المعنوية فيها) (٤) ·

***

لا ضير فالشابى مهما تفوق نبوغه ، لا يعدو أن يكون ابن الحياة ، والحياة على غناها وصلاها يراها كثيرون كالحة أو مكفهرة ، ومن هـؤلاء الشابى نفسه فى أزماته وان كان مفتونا بها فى صفوه وانشراحه ...

(١ ، ٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٠ ·

(٣) يقول الأستاذ كرو فى كتابه « كفاح الشابى » ص ٩٢ ·

(وفى قصيدة « أغانى الرعاة » قطعة حية من فؤاد الطبيعة ، وصورة متحركة من مشاهدها الخلابة ، وهى أعلى وأعمق قصيدة تصف الرعاة وحياتهم ، والمراعى وجمالها ، فى شعرنا العربى كله) ·

وصاحب كتاب « الشاعران المتشابهان » يرى فيها « صورة فنية نادرة » ص ٣٩ ·

(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ٢٠٤ ·

فلا بأس أن تحيفه نقد ، أو تحامل عليه ناقد فقد أنصفه كثيرون ...
هذا كاتب يراه بعد مقارنة واعية ...

(... يقف الشابى قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين ، الذين ظفرت الطبيعة فى شعرهم بنصيب كبير ..) (١) .

(ان الطبيعة التى يصورها الشـــابى ليست متعددة المشـــاهد ولا متنوعة المناظر . وشعره خال من « اللوحات » الطبيعية الكاملة ، فلا ترى وصفا خاصا بنهر ، أو روض ، أو غير ذلك من المجالى الطبيعية الرائعة . ولكننا حين نقرأ شعره نحس أن الشاعر يعبد الطبيعة عبادة عميقة ، تصل به الى درجة الفناء فى جمالها الأخاذ ، ويدرك أن شعوره بها لم يكن شعورا بسيطا ، ولكنه كان شعورا مركبا ، لأنه لا يتذوقها فى سذاجة المتلذذ المتنعم ، الذى لا يشغله منها الا ما تهيئه له من راحة وظل وفير ... وأغانى الرعاة عند الناقد (... من أعمق شعر الطبيعة فى الأدب العربى) (٢) .

***

وعبادة الطبيعة ليست مجرد وصف سخى ، نخلعه مجاملين على الشابى . فان هذا اللون من الشعور كان يعرفه الشاعر ويتعمقه ويؤمن به عن وعى وبصيرة . فلا غـــرابة أن يدين به فى حمـــاس وحب عظيمين ...

هذا الايمان ... هذا الحماس ... هذا الحب ... نستشفه من رأيه فى نظرة الأدب العربى الى الطبيعة ... لقد كان الشابى يرى (أن النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة الغربية ، مهما بلغت من العمق والشعور . وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحى الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمق وطراز جميل ، وهى لا تزيد عن الاعجاب البسيط . ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر منهـــا أن تشرق بالخيال الجميل . لأن الخيال الشعرى منشؤه الاحساس الملتهب ، والشعور العميق . وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى قلب الطبيعة الا شعورا بسيطا ، خاليـــا من يقظة الحس ، ونشـــوة الخيال) (٣) .

(١ ، ٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ٨٣ ــ ٨٤ .
(٣) كتاب « الشابى وجبران » للاستاذ التليسى ص ٩٣ ــ ٩٤ .

شعب وشاعر

أيها الشعب ! ليتني كنت حطابا — فأهوى على الجذوع بفأسي !
ليت لي قوة العواصف ، ياشعبي — فألقى اليك ثورة نفسي !
في صباح الحياة ، ضمخت أكوابي — وأترعتها بخمرة نفسي !
ثم قدمتها اليك ، فأهرقت — رحيقي ، ودست ياشعب كأسي !

انني ذاهب الى الغاب ، ياشعبي — لأقضى الحياة ، وحدى ، بيأسي
والشقي الشقي من كان مثلي — في حساسيتي ، ورقة نفسي (١)

طالما شكا الشابي وتألم حتى عذلناه ولكننا يجب أن نقر — هنا على الأقل — أن يأسه لم يصدر عن ضعف وهروب وخمول ، ولكنه يأس الجذوة المتضرمة التي تتوهج بالنار ، وتزغرد بالشرر ، لتوقظ الرماد الهامد حولها ، وتبعث فيه منها النار المقدسة ... فلا يصيخ ولا يعين ... الا أن الشاعر لم ييأس الا بعد أن أجج قصيدة « النبي المجهول » فما ظفر بجواب ..

لهذه القصيدة قصة يرويها لك أبو القاسم كرو في كتابه (كفاح الشابي) :

« ... وتقوى الرجعية الباغية على طليعة الأحرار ، فيعلن الحداد من فوق منابر الجوامع ، ويحكم على الشابي بالجحود والكفر على أعمدة الصحف ، وتتألب عناصر الرجعية على بذرة الاصلاح النابتة في قلوب الشبيبة ... » (٢) .

---

(١) الديوان — قصيدة « النبي المجهول » ص ١٠٣ .
(٢) كتاب « كفاح الشابي » ص ٧٠ .

أحسب أن هذه الثورة لم تمنع الأستاذ كرو من الجهر بأن (قصيدة « النبي المجهول » وهذه الأبيات منها بوجه خاص « المطلع » لهي أعظم شعر قاله شاعر عربي ، في حب الشـــعب ، وفي التعلق به ورغبة الخير له) (١) ٠

أخيرا ينصفه قومه !

وقصيدة « النبي المجهول » من القصائد التي شغلت النقاد وتجمعت حولها الآراء ٠٠٠

تساءل الأستاذ محمد العروسي المطوي :

ما هو شعور الشابي نحو شعبه ؟ وكان جوابه :

(**يتمثل هذا الشعور أولا في الاشفاق والحسرة** ، وابداء العطف والحنان ، **والاستعداد للفداء** ٠ **ثانيا في اثارة الشعب ضد الظلم والطغيان** ، وفساد الأوضاع ، وباطل التقاليد ، ويشتمل ثالثا في تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه ، وسيله الجارف الغشـــوم ٠ ثم يتمثل هذا الشعور في تشاؤم الشابي ويأسه وصب جـــام غضبه عليه ، ثم الاعتزال والهروب الى عالم خيالي ، اختاره ليعيش فيه ، مع عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه الاشفاق والعطف) (٢) ٠

***

وينتهي من هذا الى : أن الشابي يئس وطغى به اليأس الى النقمة ، الى الغضب العنيف الصاخب ٠٠ انه ليثور حتى يتمنى تحطيم هـــذا الشعب وازالته من عالم الحياة ٠ لأنه لا يصلح للحياة في نظر الشابي ذلك (النبي المجهول) (٣) ٠

وهكذا تكون رسالة الشابي في نظر الناقد (قد انتهت بسلبيـــه بغيضة ويأس قاتل ٠٠) (٤) ٠

هذا حين يرى الأستاذ محسن بن حميده أن :

(الشابي هو في زمانه الشاعر الوحيد ، الذي كان يعيش مأساة

---

(١) كتاب « كفاح الشابي » ص ٧١ ٠
(٢) كتاب « ذكرى الشابي » مقال « الشعب في شعر أبي القاسم الشابي » ص ١٧ ٠
(٣) كتاب « ذكرى الشابي » مقال «الشعب في شعر أبي القاسم الشابي » ص ٢٤ ٠
(٤) المصدر السابق ص ٢٤ ٠

شعبه كلها ، ويحاول أن يبعث فيه روح الثورة على المـــوت والايمـــان الصادق بانتصار الحياة ٠٠٠

هذا يجعل الشابى فى نظرى أبا الشعر العربى المعاصر ، لأنه أول من عاش مأساته الخاصة فى مأساة شعبه ، ولم يحاول قط فى أنانيـــة وادعاء ، أن يفصل هذه عن تلك ولربما لم يكن التلميح أو الاشـــارة الى مأساته الخاصة الا مجرد وسيلة للتعبير عن المأساة العامة) (١) ٠

ويقول الأستاذ بوراوى الملوح :

(شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجـــال من معاصريه واتضحت له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل ما لديه من قوة جارفة ، وقريحة صاخبة ، ليدفعه الى الوعى الحقيقى ٠ ولمـا رأى أن الصـــخور لا تتزحزح ، انهـــال عليهـا ضربا وتهـديما وسخرية ٠٠) (٢) ٠٠ وهنا استشهد الكاتب بمطلع قصيدة (النبى المجهول) ٠٠

ثم يقول :

(وأظنك لبيبا ، لا تجهل أن محبة الشعب ليست فى ألفاظ معسولة تقدمها له لتخدره ، بل انما المحبة الحقة فى صيحات ثائرة صاخبة ترسلها لتوقظ همته) (٣) ٠

حين يصف الأستاذ الشاذلى القليبى ثورة الشابى بأنهـــا (ثورة تهديمية ناتجة عن يأس ، متغلغل فى أعمـــاق نفســه ، وملل وسآمة ، وارادة تحطيم وتقويض ، هذه العناصر الثلاثة هى ينابيع قريحته) (٤) ٠

وهذه القصيدة نفسها يتخذ منها الأستاذ التليسى (نقطة انطلاق فى تحديد وطنية الشابى ، ذلك لأنها تحمل خطوطا عريضة واضحة تدل على مدى احساسه بضرورة البعث والتطور ، وتشير الى الأهداف التى يريدها لمجتمعه ٠ وهى فى عنفها وقسوتها أدل على نواحى الضعف التى

---

(١) مجلة الفكر عدد أكتوبر سنة ٥٦ ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

(٢) مجلة الشباب عدد ٦ فبراير سنة ٥٧ « مقال ـ أبو القاسم الشابى شـــاعر الوطنية » ص ٣٨ ٠

(٣) مجلة الشباب ـ عدد ٦ فبراير سنة ١٩٥٧ « مقال أبو القاسم الشابى شاعر الوطنية » ص ٣٧ ٠

(٤) مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى ـ أكتوبر سنة ٥٣ من مقال « الشابى وتجربة الفجر البعيد » ص ٩ ٠

كان ينزح الشعب تحت عبئها ، ونواجى القوة التى يتطلع اليها الرواد من الشباب) (١) .

والدكتور شوقى ضيف يفسرها : بأن الشابى لم يكن يلقى خصومه بشيء من التسامح (فقد كان حاد الحس والشعور ، فتحول يقذفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمى رءوسهم ، ووسع الدائرة التى يقذف فيها بحجارته ، فلم يقف بها عند طائفة معينة من ... شعبه ، بل عم بها الشعب فى ساعة غضبه ، فاذا هو يصب عليه طوفانا من الأحجار ..) (٢) .

ثم يقول بعد سلسلة من الأبيات ، (ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه الا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا يصب جام سخطه عليه ، حين رآه لا يعرف مواهبه ، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التى ينبغى أن تستقبل بها) (٣) .

ويبدو أن الدكتور احسان عباس يشايعه فى هذا الرأى ، فعنده أن : حملة الشاعر على الشعب ليست لنقص حقيقى فى الشعب نفسه ، بل لنقص اعتبارى — لأن الشعب أبى أن يعترف بعبقريته الشعرية ، التى رمز لها الشاعر بالكأس والأزاهير (٤)

***

أهذا كل السبب ؟ أيذكى سبب كهذا مثل وقدة الشابى ، ويعبىء مثل شحنته ؟ ... لا أخال ... ولماذا نغالط الحقيقة ... ألم تأخذ شعوبنا العربية فى أيام الشابى سنة من نوم ، بل غط بعضها فى سبات عميق ؟ (٥) ... ألا يعد الرقاد نقصا فى عصر طائر مجنح ؟

---

(١) كتاب « الشابى وجبران » ص ٧١ .

(٢) الدكتور شوقى ضيف ، « كتاب دراسات فى الشعر العربى المعاصر » ص ٦٣ .

(٣) الدكتور شوقى ضيف ، « كتاب دراسات فى الشعر العربى المعاصر » ص ٦٣ .

(٤) الدكتور احسان عباس كتاب « فن الشعر » ص ٢٤٠ .

(٥) يقول الأستاذ بوراوى الملوح « الشعب التونسى فى عصر أبى القاسم الشابى لا يشبه شعبنا التونسى اليوم فى بعض مظاهره وقد شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجال من معاصريه ، واتضحت له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل ما لديه من قوة جارفة ، وقريحة صاخبة ليدفعه الى الوعى الحقيقى . ولما راى أن الصخور لا تتزحزح انهال عليها ضربا وتهديما وسخرية » .

أحسب أن الذى يؤذى الشابى أكثر ، انما هو عدأ الاستجابة لمعانى القوة وانتفاضات الحياة والكرامة فى شعره فقد كان هـذا هدفه الأول وحلمه المؤرق ... كان هذا الهدف يأتى عنده قبل التقدير الذى ان سره ككل انسان فهو لا يغنى عنه شيئا حين تحقق الاستجابة الشعبية لشعره فورة دافعة الى أمام ...

كان اذا نكأ طاغية جرحا لوطنه ، فكأنما مس شاعرنا شـواظ فيهدر كسيل عات . وتتدفع منه هذه الأبيات تتضاغى :

لك الويل يا صرح المظالم من غد — اذا نهض المستضعفون ، وصمموا
اذا حطم المستعبدون قيودهم — وصبوا حميم السخط أيان تعلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى — وأن الفضاء الرحب وسنان،مظلم
ألا ان أحلام البلاد دفينة — تجمجم فى أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتى بعد لأى نشورها — وينبثق اليوم الذى يترنم
هو الحق يغفى..ثم ينهض ساخطا — فيهدم ما شاد الظلام ، ويحطم
غداالروع،ان هب الضعيف ببأسه — ستعلم من منا سيجرفه الدم
لك الويل يا صرح المظالم من غد — اذا نهض المستضعفون وصمموا!(١)

ألا يزدهيك الغموض الرهيب ، يكمن خلف « صمموا » ؟

وفى قلبه من المستعمر نار لا تخبو . فيا أيها المستعمر الباغى :

رويدك ! لا يخدعنك الربيع — وصحو الفضاء ، وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام — وقصف الرعود ، وعصف الرياح
حذار ! فتحت الرماد اللهيب — ومن يبذر الشوك يجن الجراح(٢)

هذه الرقة الحالمة الموشاة التى طالعتك فى غنائه للحب والطبيعة ... هذه الرقة تنتفض فجأة اذا ذكره ذاكر بحال شعبه .. هنا يهب المارد فيه كمن مسته نار ، ويمطر قومه حاصبا من اللفظ للاهاجة والاثارة حتى يحطموا القيد ويسحقوه سحقا :

والقيد يألفه الأموات ، ما لبثوا — أما الحياة فيبليها وتبليه (٣)

ان فى قلبه من المستعمر جمرة تتلذع ... ذلك القوى الظلوم الذى يعصر من الآلام السود لضحاياه من الشعوب لذة ومداما .

---

(١) قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ من الديوان .
(٢) قصيدة « الى طغاة العالم » ص ١٨٥ من الديوان .
(٣) قصيدة « سر النهوض » ص ١١٨ من الديوان .

يتحسار ضاحكا ... لا يراه سا خلقت في الوجود الا طعاما (١)

وهو مع هذا يريد ، من غيره ، أن يمزق هذا الشعب الذي يتمزق هو من أجله .. من وطنية وحيوية وعرام :

أين ياشعب، قلبك الخافق الحساس أين الطموح ، والأحلام ؟
أين ياشعب، روحك الشاعر الفنان؟ أين الخيال والالهام ؟
أين ياشعب، فنك الساحر، الخلاق ؟ أين الرسوم والأنغام ؟
ان يم الحياة يدوى حواليك فأين المغامر ، المقدام ؟
أين عزم الحياة ، لا شيء الا الموت ، والصمت والأسى والظلام
عمر ميت ، وقلب خواء ودم ، لا تثيره الآلام
وحياة ، تنام في ظلمة الوادى وتنمو من فوقها الأوهام
اى عيش هذا ، وأى حياة (رب عيش أخف منه الحمام) (٢)

انه يريد أن يوقظ النيام .. أن يدفع الجامدين بقبضة يده ، أن يلفحهم بحر أنفاسه .. أن يحرقهم بوقدة أشواقه ليخرجوا الى الحياة السليمة البريئة من القيود ..

انى لأحسب لو تجمع قومه فى رجل واحد لهزه هزا عنيفا متواليا ، أو لصفعه صفعة فيها نار وشوك ليفيق .. لتدب فيه الحياة العاملة الساعية الطموح .. الحياة ذات الاشواق ، والغايات ، والرغائب .. الحياة الراكضة المتدافعة .. الجادة العاملة .. البريئة من آفة الركود وعطن الجمود وخدر التبطل ..

قد مشيت حولك الفصول وغنتك فلم تبتهج ، ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك فلم تضطرب ، ولم تتألم
يا الهي ! أما تحس ؟ أما تشدو أما تشتكى ؟ أما تتكلم ؟
مل نهر الزمان أيامك الموتى وأنقاض عمرك المتهدم
أنت لا ميت فيبلى ، ولا حى فيمشى ، بل كائن ، ليس يفهم(٣)

انه يريد أن يثير حفيظته على المستعمر ، أن يلهب نخوته ، أن يشعل ناره ، فلا يجد ولا أجد أنا معه أقسى من هذين البيتين للاستنفار :

---

(١) قصيدة « أبناء الشيطان » ص ١٢٠ من الديوان.
(٢) قصيدة « الى الشعب » ص ١٥٧ من الديوان .
(٣) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ من الديوان .

فالزم القبر .. فهو بيت شبيه بك في صمت قلبه ، وخرابه
واعبد«الأمس»واذكر صور الماضي فدنيا العجوز ذكرى شبابه (١)

أحسب أن لو قيلا بين سكان الحفر لهبوا من رقدة العدم مرعدين .
وصف أنت هذه الأبيات :

واذا مرت الحياة حواليك جميلا ، كالزهر غضا صباها
فاحذر السحر ، أيها الناسك القديس ان الحياة يغوى بهاها
وتمل الجمال في رمم الموتى بعيدا عن سحرها وصداها
وتغزل بسحر أيامك الأولى وخل الحياة تخطو خطاها (٢)

هل هى سخرية حانقة أم صرخات تخترق أذن الأصم ؟

وكما لم تغب الطبيعة عنه في رضاه لم تزايله صورتها فى غضبه فهو يلمحها فى ثورته على قومه النيام فى سخرية «مرور :

واذا هبت الطيور مع الفجر تغنى بين المروج الجميله
ومشى الناس فى الشعاب،وفى الغاب وفوق المسالك المجهوله
ينشدون الجمال والنور والأفراح والمجد ، والحياة النبيله

الحياة النبيلة .. هذه هى المقصودة

فاغضض الطرف في الظلام وحاذر فتنة النور .. فهى رؤيا مهوله

يسخر من نظرات قومه الى الحياة وآرائهم فيها ..

وصباح الحياة لا يوقظ الموتى ولا يرحم الجفون الكليله (٣)

★★★

كل شيء — الاك — حي ، عطوف يؤنس الكون شوقه ، ونشيده
فلماذا تعيش في الكون يا صاح وما فيك من جنى يستفيده
لست يا شيخ للحياة بأهل أنت داء يبيدها وتبيده
أنت قفر ، جهنمى لعين مظلم ، قاحل ، مريع جموده (٤)

لقد وقعت الواقعة ..

أنت يا كاهل الظلام حياة تعبد الموت .. أنت روح شقى
كافر بالحياة والنور .. لا يصغي الى الكون قلبه الحجرى
أنت قلب ، لا شوق فيه ولا عزم وهذا داء الحياة الدوى

(١ ، ٢) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ من الديوان .
(٣) قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٧ من الديوان .
(٤) من قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٨ .

أنت دنيا ، يظلها أفق الماضي وليـــل الكآبة الأبـــدي
مات فيها الزمان ، والكون الا أمسها الغابر ، القديم ، القصي
والشقي الشقي في الأرض قلب يومه ميت ، وماضيـــه حـي
أنت لا شيء في الوجود ، فغادره الى الموت فهو عنك غني (١)

ان الشاعر ينعى على شعبه في حرقة محمومة ، تحامله على الماضي واستعلاءه به ، ولا يسايره كشعراء آخرين بالتغني بماضيه والطنطنة به ٠٠ حقا لقد فهم الشاعر رسالته ٠٠ بعث وايقاظ ، ودفع واع الى الأمام لا مسلاة ولا تزويق وتملق غرور الشعوب ٠٠

***

يقول الدكتور شوقي ضيف والحق يظاهره :

وهذا الشعر السياسي أو الوطني ، كان منتشرا في كل بلاد الشرق الأوسط ، في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في هـذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس (٢) ٠

وهذا مواطن له لا يكتم الشهادة بل يعلنها في غـــير مواربة أن (الشابي وشعره قد ارتبطا بتاريخنا ، وأصبحا حلقة ذهبية كبيرة من أمجادنا الخالدة ٠ بل اني أزعم أن تاريخ شعبه الحـــديث لم يبـــدأ الا بالشابي) (٣) ٠

وهذا الأستاذ خفاجي يرى في قصائده ذخيرة مميزة في التراث الأدبي المعاصر ، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القـــومي في العالم العربي لا في تونس فحسب (٤) ٠

جاهر بالنقد وقسا فيه من عذابه بواقع قومه ، واشفاقه عليهم ٠٠ اشفاق وحب ، لا نقمة وتشاؤم ويأس من امكان الاصلاح كما يقـــول الأستاذ فروخ (٥) ٠

---

(١) من قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٨ ٠

(٢) اقرأ كتاب « دراسات في الشعر العربي المعاصر » للدكتور شوقي ضيف ص ٥٨ ٠

(٣) مقدمة كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ص ٤ ٠

(٤) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ خفاجي ص ١٦٨ ٠

(٥) يقول الأستاذ فروخ في كتابه « شاعران معاصران » ص ١٦٥ : « ولم يكن بامكان الشابي الا أن يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم ٠ ولقد أنصف الشابي بلده في الشعر فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم أو راحم فقط ، بل كان يحث قومه على الرقي ويمنيهم بالنتائج التي يمكن أن يصلوا اليها اذا استيقظوا ونهضوا ، غير أنه أيضا كان في بعض شعره السياسي متشائما ، نافضا كلتا يديه من امكان الاصلاح أو النهوض » ٠

ولا أرى في صيحات الشابى الراعدة يأسا ، ولكنها قوة الحانق على الوضع الذميم من اباء وولاء ، قسوة الملهوف على اليقظة الباعثة ..

(وعندى أن كثيرا من آرائه في هـــذا الباب كان تقليدا للشعراء الذين طرقوا مثل هذه الموضوعات .. واذا نحن قبلنا ما قاله أبو القاسم محمد كرو ، من أن الشابى قرأ كثيرا للمعرى وابن الفارض وابن الرومى والخيام .. وجبران وسائر أدباء المهجر ، فاننا لا نعدو ـ والحق معه ـ في أن نرد كثيرا من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها) (١) .

وأين اذن تأثر المواطن الطبيعى الذى قررته سالفا ؟ !!

والشابى شاعر ناقم يزعم أنه يريد أن يؤدى رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولا ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة (٢) .

قف قليـــلا نناقش النـــاقد الذى ناقض نفسه خلال أربع صفحات فقط من كتابه فبينما يرى الشابى ص ١٦٥ (يحث قومه عـــلى الرقى ويمنيهم بالنتائج) اذ به ينسى ويراه في ص ١٦٩ (معـولا يهدم البلاد والموطن والأمة !!) .

وقبل هذا رد كثيرا من نقمة الشابى في رأيه الى مطالعاته عنـــد المعرى وابن الفارض وابن الرومى والخيام وجبران . فهل قياسا الى تفسيره هذا يجوز لنا أن نطبق رأيه على هؤلاء ؟ هل المعرى وابن الفارض وابن الرومى وجبران معاول أيضا أم ماذا ؟؟ .

أحسب أن الناقد هو الناقم على الشابى فان الشاعر اذا جاز عليه ككل فنان النقد لا يجوز عليه أبدا ـ انسانا ومواطنا وفنانا ـ أنه هدام يهدم البلاد والوطن والأمة ..

ليس هذا نقدا ، ولكنه سباب وهدم ، لا خير فيه لأحد حتى للناقد نفسه ..

اقرأ كتاب (الشاعران المتشابهان) الشابى والتيجانى فما كنت لأطلب اليك قراءة هذا الكتاب ، لولا دلالة المشابهة بين الشاعرين فحيثما توجد تقاليد رثة ورواسب متعفنة ، وتفكير سقيم ، وأوضاع فجة ومجتمع راكد ، ويقابل هذا كله فرد متوثب متحفز الحس والضمير ، يوجـــد

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ .

(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٩ .

تعبير السخط والثورة الجامحة والاستثارة ٠٠ ومن هذا يتبين أن الشابى لم تكن نقمته شخصية ، ولم تكن حقدا بل كانت ثورة طبيعية ــ كغيرها من ثورات الشعراء الثائرين فى أوضاع مشابهة (١) ــ تهيأ لها الميدان ومولدات الشرر ٠٠

على أن الناقد لم يلبث أن ناقض نفسه :

(وقصائد الشابى فى الوطنية والسياسة والقومية ، لا تقل عن قصائده الجياد فى الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى أن شهرة الشابى كلها مدينة لشعره القومى أو لبضعة أبيات من شعره القومى) (٢) !!

ويقول الناقد فى ص ٢٢٧ من كتابه عن الشاعر (انه ينظم الشعر ليسرى به عن نفسه ويصور حاله ٠ ثم هو لا يتكسب بشعره ، ولا يتملق فيه أحدا ، بل يريد أن يرضى ضميره ، ويرضى به وطنه) ٠

اذن أين المعول الذى حمله الشابى ليهدم به كل شىء : الحيـــاة والناس والبلاد والوطن والأمة ؟!!

حتى قصيدة (ارادة الحياة) لم تسلم منه ، بل جاء حديثه عنهـا مثالا من أمثلة عديدة للتخبط فى النقد لا تكاد تستقر معه على مــدح أو قدح أو مجرد تقويم صحيح ٠٠ افسح صدرك معى لتسمع (انهـا أى قصيدة ٠٠ ــ ارادة الحياة ــ بلا ريب أشهر قصائده ، ولعلها أحسن قصائده أيضا ٠ ثم انها قصيدة عامة : ليست وطنية فى التغنى بتونس وحدها ولا سياسية تشنع بالحرب فتوهم أن صاحبها ميال الى معسكر دولى مخصوص ، ولا هى اقليمية ضيقة الأفق ٠ على أن أحسن ما فيهـا أنها مفعمة بروح الأمل ، مليئة بالثقة بالنفس عند القول ٠ وهـــذه القصيدة كمعظم شعر الشابى ، فيها صور شعرية جميلة وتشـــابيه واستعارات جديدة صحيحة ، غير أنها أيضا ــ كمعظم شعره ــ مملوءة بالرمز الذى يجعل المعانى غامضة فى كثير من الأحيان ، على أن قيمة هذه القصيدة انما هى فى أبيات معدودة متفرقة ، ينقص من جمالها أنها تأتى بين أبيات فيها معان مرددة مكرورة معادة) (٣) ٠

حرنا معك يا صاحبى ٠٠

---

(١) اقرأ ص ٢٢ من كتاب « الشاعران المتشابهان » ٠

(٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٧ ٠

(٣) كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروخ ص ٢١٤ ٠

وكأنى بالأستاذ خليفة محمد التليسى يرد عليه حين يقول :

(والوضوح هو الدعامة الاولى للبساطة . ولذا أجدنى مخالفا لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعمد التعابير الرمزية . وان شعره لمن الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح أو اعنات القريحة فى فك تعابيره . ومثل هذه المحاولة خليقة أن تؤدى الى افساد الأجواء النفسية التى تحيط بألفاظه ، لأنها ألفاظ عادية مألوفة ، تكمن قوتها فى هذا الجسد الشاعرى الذى يوشحها بالسحر ..) (١) .

***

وقصيدة (ارادة الحياة) هذه من القصائد المميزة عند الشابى ، بل ان أكثر الذين سمعوا بالشابى ، لا يكادون يذكرونه الا بتلك القصيدة كما يقول الأستاذ ميخائيل نعيمه (٢) .

وقد سلطت الأضواء عليها من كل جانب .. فالأستاذ على سعد يعدها (من أكمل قصائد الشابى بحسن سبكها ، ووحدة جوها ، ولطابع الفرح والعافية والقوة ، الذى تتسم به ، ولمعنى الرجاء الذى تتضمنه فكرة (العودة الدائمة) والحياة المتجددة التى تعبر عنها) (٣) . وان كان يرى فى جوها كثيرا من النفس النيتشى .

وأرى أن ليس حتما أن يكون الشابى قد لمح نيتشه فيها ، فهى ليست غريبة على روح الشابى المتقدة ، وانتفاضاتها اللاهبة ..

على أن الأستاذ على سعد لم يجزم بتأثر الشابى بنيتشه بل سجل كالمتحرج أن الأمر قد يكون مجرد صدفة .. (فالتقى الشابى مع الفيلسوف الألمانى بهذه النبرات القوية والنابضة بالعزمات والتسامى البطولى عندما انحدر الى واقع بلاده ، فألهاه تيار الحياة التى تعصف فيها عن مشاكل ذاته ، وعن الدوران فى حلقة عقده النفسية ، ووجدانيته الفردية) (٤) .

ويبدو أن هذا النقد قد أشعل حماسة المواطن فى الأستاذ كرو فأخذ يزكى القصيدة ويثنى عليها بما هى أهل له ، بل تجاوز هذا الى المجد

---

(١) ص ١١٤ من كتاب « الشابى وجبران » .

(٢) أقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٦ .

(٣) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .

(٤) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .

والسمو وأعلى القمم والألفاظ الطنانة التى تهواها الشعوب العريقة عندما تغلب على أمرها وعندما تفيق ... (١) .

❋ ❋ ❋

ومن شعره الرمزى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) وهو يرمى بها الى التنديد الساخر من سياسة الغرب التى تتحدث كما قال : (الى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها فى ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها « سياسة الادماج » وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذى لا معدى عنه لهاته الشعوب اذا أرادت نيل حقوقها فى هذا العالم ، وبلوغ الكمال الانسانى المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة ، مبغضة ، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما فى التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام) (٢) .

والقصيدة تقرأ ككل فسائرنا كالشابى موتور من الغرب صاحب الاصطلاحات المسمومة (سياسة الادماج) ، (الأحلاف) ، (الدفاع المشترك) معاهدات الصداقة .. النقط التى لا تنتهى ... ما أحوج الشرق الى وعى قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) عن الشابى ليؤمن من لم يكن قد آمن بعد ... أو بعض أهله على الأقل :

ان السلام حقيقة ، مكذوبة ‏ ‏ ‏ والعدل فلسفة اللهيب الخابى

حقا ان شعوب الحضارة الأولى .... واللهيب الخابى أكثرت من الخطب المفوهة المؤمنة بالعدل ، المؤملة فى هيئة الأمم المتحدة ... ولم تع بعد على هول التجارب وفداحتها أن :

لا عدل ، الا ان تعادلت القوى ‏ ‏ ‏ وتصادم الارهاب بالارهاب (٣)

---

(١) يقول الأستاذ كرو فى كتابه «كفاح الشابى» ص ١١١ « وسواء أكان التقاء فى فكرة الحياة المتجددة مع الفيلسوف الألمانى مجرد صدفة أو نتيجة لترسبات ثقافية فى ذهنه الخاطف الجبار فانها ستظل من أعظم الدلالات العبقرية على بطولة الشابى الوطنية والأدبية ، وستبقى خير نشيد عزفه عازف عربى فكان البذرة القوية الصالحة التى نبتت فى قلب شعبه الخانع الذليل ، فحولته الى الطموح والكفاح والثورة ، وبعثت فيه اليقظة والوعى والنهضة ، ثم جعلته يصنع الحياة بيديه ، ويبنى المجد بنفسه ، ويسمو كالأشواق والنسور الى أعلى القمم ... » .

(٢) الديوان ص ١٩٢ .

(٣) الديوان ص ١٩٣ .

وأن :

لا رأى للحق الضعيف ، ولا صدى   الرأى ، رأى القاهر الغلاب (١)

هذا الطراز من الشعر هو الذى نبتغيه فى صراع الحياة والموت بين الشرق والغرب . هذا الطراز من الشعر الهادف الدافع المتلهف ، الذى يطهر نفوسنا من الأوهام والخدع والبدع . ويطهر حواسنا من الخدر اللذيذ الذى تتمطى فيه وتسترخى ... هذا الطراز من الشعر المتسعر الذى يفتح عيوننا على الواقع الكريه العفن الذى يعيش فى بعض شرقنا ليتحرر منه .. ليدفع عاره .. لنبعث من جديد فى عالم الأقوياء ... مسلحين بالعلم والحرية والقوة .. لنستحق الحياة يوم نزيدها خصبا ونفعا وجدوى ، لا نحمل عليها كالزبد الطافى تحت زحمة التيارات المختلفة يطوح به أقواها كيف يشاء ، ويطرحه أينما شاء .. أبدا .. القوة للقوة ..

ان السلام حقيقـــة ، مكـــذوبة   والعـــدل فلسفة اللهيب الخـابى
لا عدل الا ان تعـــادلت القـــوى   وتصـــادم الارهاب بالارهـاب

خذوا الدرس عن مصر التى أعدت للطامعين البغاة ما استطاعت من قوة فجمدوا فى مكانهم من الجولة الأولى ينعون أحلام الغزو والسيطرة ولم ترحم فشلهم فسلطت عليهم الموت والدمار يتخطفهم ويسمرهم ، فدارت من الذهول والرعب رءوسهم المنخوبة ، وطارت من الأرق المتفزع عقولهم العفنة ، أما ضمائرهم فقد خرست منذ أمد بعيد ، أو لعلها لم تخلق على الاطلاق ...

هل ألجمهم غير القوة ؟ هل شل زحفهم غير القوة ؟ هل جمد مطامعهم غير القوة ؟ ...

ان القوة فى كل مكان سلاح بتار ، وهى فى الشرق خاصة سلاح حاسم جبار .. انها هنا فى أرضنا تساندها الروح ويرفدهـا الايمان ويشعلها الظلم القديم ويسعرها رغبة التعويض و ... وبدون القوة سيظل الشرق ــ مهما وضحت حجته ــ نهبا لكل سارق ، ومرتعا لكل طامع ، ومطمحا لكل أفاق أعوزه المجد والغنى فى بلده فجاء يرفعه على حطامنا ، ويجمعه من عرقنا ودمائنا ...

ان السـلام والعـدل والمنطق وكل ما اتفقت عليه شرائع الأديان والانسان ، حقائق فى أذهان الضعفاء وحدهم ، أما الأقوياء فلا يردعهم الا عنيد جبار يخاطبهم بلغتهم ، ويناجزهم بسلاحهم ويتقاضاهم الثمن

(١) الديوان ص ١٩٤ .

فادحا رهيبا ، يفيق عليه غرورهم ، وتطيح منه وحشيتهم التى ظلت قرنين من الزمان تمتصنا وتضنينا وتفدحنا بأقسى ما تجيده الوحشية من ضروب العذاب .

❋ ❋ ❋

وينسى بعضهم هذه كله ، فلا يتلقف صرخات الوطنية من فم الشابى وأمثاله من الشبيبة العربية ، لينفعل بها ويثرى منها فى نفسه وشعوره ، ولكن ليجعل همه كله أن ينسبها الى نيتشه أو يردها الى جبران ...

حتى الكتب العربية التى عرضت للمفكرين والأدباء الأحرار لم تلمح شاعر الخضراء ، فحين عد الأستاذ رئيف خورى فى كتابه (الفكر العربى الحديث) أديب اسحاق ، وشبلى شميل ، وفرح أنطون ، وجبران خليل جبران ، أغفل الشابى كأن هذا البيت لشاعر آخر ...

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر (١)

أو كأن هذه القصيدة لسواه :

أيها الشعب ، ليتنى كنت حطابا فأهوى على الجذوع بفأسى
ليت لى قوة العواصف يا شعبى فألقى اليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير ، ان ضجت فأدعوك للحياة بنفسى

اياكم ، أن تهونوا منها فانها زادنا على الطريق ...

اياكم أن تطامنوا منها فانها ضرام يندلع به الحريق فى كل مكان من المحيط الأطلسى حتى الخليج الفارسى ، لتعود لنا الأرض ، ويعود الرغد والخفض ، وتضىء أيامنا وتخصب أعمارنا وتهدف أحلامنا ، ويصح واقعنا ، وترهب وقائعنا اوتهاب مواقعنا وتصح مواضعنا ، ويعتز بالحاضر ماضينا ...

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

خذوا هذا البيت عن الشابى حارا متوهجا ، واعتنقوه بلا مناقشة ، أو جدال يبرد حرارته أو يبدد صداه ... رددوه ألف مرة واضغطوا على كل حرف من شطره الثانى « فلا بد أن يستجيب القدر » نعم لا بد أن أن يستجيب القدر لكل شعب يريد الحياة .. لا بد أن يستجيب القدر ..

(١) ص ١٦٧ من نفس الديوان .

الشابى والمهجر

المهجر ... المهجر .. باب طرقه النقاد على الشابى كثيرا حتى ضج بالطرق والطارق ... لا تنزل يد الا لترتفع أخرى ، واختلطت الأصوات واختلفت التعليقات والتعليلات ، فما كنه هذه الضجة ، وما مضمونها ؟ .

يعد الأستاذ على سعد (من ضياع الوقت البحث عن مقومات شاعرية الشابى فى أسلوبه وأفكاره ، فاننا قد لا نجد فيهما الا رسوبات لقراءته وظلالا لآلهته الأدبية ، من غوته الى جبران ، ومن لامرتين الى نيتشه « من خلال جبران » وقد يكون لأدب هؤلاء الرومنطيقيين السافرين أو المقنعين ، يد كبرى فى طبع شعر الشابى بهذا الطابع الكئيب ، الحائر . وبهذه النزعة للهرب من دنيا الواقع الى دنيا الأحلام والأوهام ، وبكل هذه الأشواق الغامضة ، وبهذا التشاؤم والتهدم النفسى ، الذى تنعكس ظلاله فى كل أدبنا الحديث) (١) .

وعنده أن (من العسير تحديد شاعرية الشابى فى كنهها وفعاليتها . فهى ككل العبقريات الشعرية ، تقع فى هذا المجال السحرى ، فى هذا العالم المرصود ، والذى لا تعرف له حدود ، هذا العالم القائم على أشياء هى النغم المترف ، والأناقة فى اختيار الايقاع الراهن بين ألوف الممكنات ، وشفافية العتمات والأضواء المبثوثة هنا وهناك بين الحروف والكلمات ، والصفا المترقرق فى التآليف ، والتزويج بين الكلمات والأنغام ، والأصداء والسكينات .

ان هذه الشاعرية تقوم على اشراق الديباجة ، وغنى الجو الانفعالى

---

(١) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٩ .

المتولد من أداء الأفكار والصور ، والانفعالات بالكلمات اللازمة أكثر مما تقوم على الأفكار والصور والانفعالات نفسها) (١) .

طريقة الأداء ... حرارة الأداء ... روح الأداء ... هي التي تثرى الأفكار وتغنى الصور ، وتقوى الانفعالات فتبدو جميعها الأفكار والصور والانفعالات ، وكأنها طراز فذ فريد حتى المسبوق منها .. وهى احدى قدرات الشاعر ، بل لعلها أروع قدراته على الاطلاق ...

والأستاذ عبد المنعم خفاجى يرى أسلوب جبران قد استبد به (٢) .

ثم يضيف :

انه (كان مع ذلك لأدب طه حسين أثر فى عقليته ، وتأثر ـ فيمن تأثر بهم من القدماء ـ بالمعرى ، وابن الرومى ، والخيام ، وابن الفارض) (٣) .

أما الأستاذ فروخ فيقول على طريقته المعهودة :

(ولقد اكتسب الشابى من الأدب المهجرى ضعفا فى التركيب ، واغراقا فى الرمز وشيئا من التشاؤم والصدفية السلبية ..) (٤) ولعله هنا يلمح كتاب الأستاذ (الياس أبو شبكة) أو يسايره (٥) .

ويعيب الناقد الشاعر بضعف اللغة (٦) ، ثم يقول :

(واذا كان الشابى خريج الجامعة الزيتونية فى تونس ، واذا كان لا يعرف الا اللغة العربية ، فيجب أن تكون لغته متينة وأسلوبه على عمود الشعر العربى . ونحن نلمح ذلك فى شعر الشابى ...

.... وكذلك نرى فى شعره مقدرة لغوية ، لا شك فيها وذوقا لغويا أيضا .) (٧) .

ويبدو أنه أحس ما فى موقفه من تناقض فتراجع ... متعللا بالرمز الذى يورط الشابى ـ على زعمه ـ فى الركاكة (٨) .

---

(١) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٨ .
(٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٥٦ .
(٣) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٥٦ .
(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٠ .
(٥) اقرأ كتاب « روابط الفكر والروح بين والفرنجة » ص ١٠٤ .
(٦) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .
(٧) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٨) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .

والى المهجر يرد نقمته على قومه في زعمه (١) ، بعد أن عزاها قبلا الى مرضه (٢) .

ومن القائلين بأثر جبران في الشابي الأستاذ زين العابدين السنوسي (وهو قد تشيع بالمدرسة الرمزية التى أقام عمادها فى العربية جبران خليل جبران) (٣) .

ويقول الدكتور احسان عباس :

ولا نستطيع أن نجد مدرسة رومانطيقية واضحة المعالم ، الا فى العصر الحديث ... ومؤسسـها جبران كان رومانطيقيـا الى أطراف **أصابعه ، وصورة تكاد لا تفترق فى شيء عن شعراء الرومانطيقية بفرنسا وانكلترا** ... وقد مجدت هذه المدرسة العودة الى الطبيعة وألهت النغمة ، وامتلأت **بالحنين الطاغي ، وبالكآبة والألم ، وبالنفور من حياة المدنية ،** وبالثورة على التقاليد والشرائع **قدست شريعة الحب واتخذت القـلب** اماما هاديا .. وغمرتها الرموز الصوفية ، وثارت على الشكل ، واهتمت بالمضمون وحطمت **القالب اللغوى الصلب** ، ولجأت الى التحليل ، وتعلقت فى ما كتبه جبران **بخيال ، لا يقر على هذه الأرض الا ليستجمع** فيطير الى آفاق أعلى . وقد **كثر تلامذة هذه المدرسة** سواء بتأثير من مدرسة المهجر ، أو بمؤثرات مباشرة من أوربا ، فاذا بها تعم البلاد العربية فتظهر فى الزهد والتصوف ، والاغراق فى الروحانية ، والميل الى الطفولة عند التيجانى يوسف بشير ، **وفى الميل الى الطفولة ، وعشق المرأة المنحوتة** من الوهم **فى شعر الشابى)** (٤) .

ومواطنوه ايضا يلحون فى نسبة شاعرهم الى المهجر . فيقـول قائلهم :

(انخرط شاعرنا فى سلك هؤلاء الشعراء بعد أن طالع نتـائج قرائحهم وامتلأ وطابه ، واكتظ جرابه وضرب على قيثارتهم ، فهو لـم يخترع الطريقة الموجودة فى شعره لأنه مسبوق بها ، وانما كان مقلـدا لأدبائها بحذق ولباقة . جعلتاه كأنه المخترع أسلوبه وطريقته ، فهـو مقلدهم فى قوافيهم التى استحدثوها ، ومعـانيهم التى ابتدعوهـا ، ومواضيعهم التى طرقوها ، ولكن فى مقطعاته الحكمية والوطنية والحماسية .

---

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ .
(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٣ .
(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٥٦
(٤) كتاب « فن الشعر » للدكتور احسان عباس ص ٤٦ .

يسير في سبيل الشعراء القدامى . فان من طالع شعره في الغزل ، وطالع شعره في الحكمة والوطنية والرثاء ، وجدهما بعيدين في معانيهما وألفاظهما بعد المشرقين ... نسج الشابي على منوالهم وأجاد في اتباع طرائقهم وأبدع في شعره ...) (١) .

ويروي لك آخر أن الشابي :

(شب بواحة توزر الشهيرة تحت ظلال نخيلها وفي صحرائها ، فكان أول عهده بالجمال جمال النخيل ـ وبالنقاوة ـ نقاوة الصحراء ، ثم كانت معرفته بخليل جبران وبكتبه التي التهمها التهاما ! ومن لا يعرف خيال جبران الخصب ، وأسلوبه الفذ وحبه للجمال وكرهه لكل منظر ذميم ولتلك النظم الغاشمة التي تكبل الانسانية المعذبة بأغلالها الثقيلة ، تلك الأغلال التي كسرها وثار عليها كالجبار العنيد ! فلا غرو اذن أن ينحو الشابي منحى أستاذه الجليل ويترسم خطاه ، سيما وقد وجدت أفكار الشاعر اللبناني صدى في نفسه ، على أنه لا يفقد شخصيته البارزة ولو حينا لأنه لا يحاكي أستاذه محاكاة العاجز ، بل محاكاة المقتدر حتى انه ليفوقه أحيانا) (٢) .

ومن القائلين بتفوقه عليهم الأستاذ الحليوي الذي يرى أنه (تأثر بأدب المهجر تأثرا ظاهرا ، ولكنه حين اقتفى أثر أعلامه تفوق عليهم وغلبهم ، ولا سيما في جمال الأسلوب ونقاوته ، وقوة الصور الشعرية) (٣) .

ويرى الأستاذ كرو أن التحاق الشابي بالزيتونة وفي العاصمة ، كان نقطة تحول هامة في حياته ، ملصه من كل رقابة كانت تسيطر عليه (فانهال أول الأمر على كتب المهجريين « كجبران ، ونعيمه ، وأبي ماضي » يطالعها بشوق بالغ وادمان شديد . وقد ميزته هذه البذور بطابع « المدرسة المهجرية » التي تمتاز بصوفيتها الشعرية ، ونقدها اللاذع ، وحدبها على الانسانية المعذبة ، وسخريتها المرة بالحياة الراكدة والبشرية المتحجرة . وكل هذا نلمسه واضحا في آثاره الأولى من شعر ونثر) (٤) .

---

(١) الأستاذ محمد الصادق دسيس الشريف . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٦ .

(٢) الأستاذ محجوب بن خليفة بن ميلاد . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٢ .

(٣) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوي ص ١٠٥ .

(٤) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٤٧ .

ثم ماذا ؟

(ذلك ما كان الشابي وذلك ما بعثه الأدب المهجري في روحه ، من حيوية واشراق وصفاء وسحر) (١) ٠

***

وأرى الحيوية والاشراق والصفاء والسحر ، من صفات النفس المطبوعة ٠٠ قد يزكيها هذا العامل أو ذاك ، ولكن لا يبعثها لأنها لا تموت ما ظلت الحياة ٠٠٠ ، ولا **يوجدها** لأنها لا تمنح وانما تخلق مع صاحبها فطرة وطبيعة ٠٠٠ وكم آلافا قرأوا أدب المهجر فلم يبضوا بقطرة من نبع الشابي المترقرق في صفاء وعذوبة وحنان ٠٠٠

ولكن يدلل الأستاذ كرو على أثر الأدب المهجري في الشابي ، قارن بينه وبين جبران في وصف السعادة التي قال فيها جبران (٢) ٠

وما السعادة في الدنيا سوى شبح ... يرجى ، فان صار جسما مله البشر
كالنهر يركض نحو السهل مكتدحا ... حتى اذا جاءه يبطي ويعتكر
لم يسعد الناس الا في تشوقهم ... الى المنيع ، فان صاروا به فتروا
فان لقيت سعيدا ، وهو منصرف ... عن المنيع ، فقل : في خلقه العبر

حين قال الشابي :

فما السعادة في الدنيا سوى حلم ... ناء ، تضحي له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهام معربدة ، ... لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده ... كأنما الناس ما ناموا ولا حلموا
خذ الحياة كما جاءتك مبتسما ... في كفها الغار ، أم في كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئدا ... غنت لك الطير أم غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ... والجم شعورك فيها انها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ... ومن تجلد لم تهزأ به القمم

* * *

ان تشابه الصدر في البيتين ليس معناه هنا التقليد ، ان دل التشابه عليه في أحوال مماثلة ، اذ أن أبيات الشابي التالية تنم عن دفعة شعرية تنبع من نفسه ، هو في اتجاه خاص بها غير تابعه ٠ وقد سلم

---

(١) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٧١ ٠

(٢) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٧٤-٧٥ ٠

باختلاف الشابى عن جبران الناقد نفسه (١) بل قال بالنص بعد أن عرض رأى جبران فى السعادة ... (... والشابى على عكسه ...)

وقد كان الشابى من يقظة الاحساس وعرامه ، بحيث يستطيع الخلق على غير مثال ، فان الاحساس اذا تيقظ فى قلب الشاعر والفنان كما يقول الشابى :

(كان له — بالرغم منه — استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حسية منتجة ، من المستحيل أن تندمج فى سواها ، وأن تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب فى غيرها أو تنحط الى درك التقليد) (٢) .

وقد عاد الناقد الى حديث المهجر وأثره على الشابى فى كتابه (كفاح الشابى) (٣) .

ومن تونس أيضا ترامى الينا صوت غريب ... أقصد فيما ذهب اليه ، فهو لم يقف عند القول بأثر المهجر ... بل تجاوزه الى أبعد من هذا بكثير ... وما هذا ؟ سأنتقل بك الى مصدر الصوت ... المصدر نفسه :

(هنالك صممت نفسه على التخلص من أوقارها ، بتمهيد مسالك تنفذ منه الى التعبير عن مشاعرها على النحو الذى تطلب ، فانبعثت أمام عينيه صور من الأدب الغربى الذى تعرف اليه من خلال المترجمات ، وأنس بما فيها من صور قاتمة وروح متشائمة ، ونقل نفسه بدافع التقمص الشعورى الى الحياة الغربية التى لم يعرفها ولم يقع بصره على الوانها ، فالغاب والضباب والراعى النافخ فى نايه والثلج ، كلها أمور لم يعرفها الشابى ولم يعش فى دائرتها ، ومع ذلك كانت أكثر الألفاظ دورانا فى شعره ، فكان استعماله اياها أقرب الى الاستعمال الرمزى منه الى الاستعمال التمثيلى والمجازى ، ووجد من شعر جبران خير رائد له فى هذا الطريق ، وساعد على سلوكه فتعلق به حتى تخرج على منهجه وامتزج بروحه ، فأتى بالتأملات العجيبة العميقة فى العواطف الانسانية وأسرارها والوجود وحقائقه . وأظهر التلاقى المتحقق فى ذاته بين الحياة المودعة

(١) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٧٥ .
(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٤٣
(٣) ص ٨٨ .

والموت المتوقع ، فمزج الحياة بالموت وركب من مزجهما وحدة الوجود ...) (١) .

* * *

الغاب .. والضباب ... والراعى ... كلها أمور لم يعرفها الشابى ؟ ... و (عين دراهم) التى ثبت أنه استشفى بها ... أين هى ؟ والخراف والشياه التى غنى لها ... من كان يسوقها أمامه ؟ .. أترى وصلت الديمقراطية الى علمها فانتخبت بنفسها من بينها رأسا يرعى ويقود ؟ ...

ان من يقرأ حياة الشابى ، ودفع المرض له الى رحبات الطبيعة للاستشفاء ثم ما قبل المرض من آلام واقع شعبه المرير ... أما يكفى هذا كله لايحاء مثل هذه الأبيات دون حاجة بقائلها الى ترسم أثر ؟ ..

وان أردت قضاء العيش فى دعة ... شعرية ، لا يغشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم ... وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا ... فى عزلة الغاب (٢) ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاما مغردة ... ان الحياة وما تدوى به حلم

ويقف الدكتور أبو شادى فى هذا الزحام ناحية وحده ... مكانا قصيا لا تبلغه عدوى الزحام الذى يسير تلقائيا ... فلم يردد الصوت القائل بالمهجر ، بل رأى رأيا آخر :

(لقد كان للشابى ذاكرة فوتوغرافية ، وهو الذى أتم حفظ القرآن الشريف فى التاسعة من عمره حفظا كاملا ، كما كان له اطلاع واسع — عن طريق اللغة العربية التى لم يكن يعرف سواها — على آداب شتى مترجمة ، لا على الأدب العربى وحده ، وكانت له قبل كل هذا وبعده ، لوذعية أصيلة حلقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة أظفاره ، وعلى ذلك لنا أن نعتقد أن أية مشابهة بين شعره وبين بعض الشعراء

---

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ص ١٧٩ .

وممن يرون فى الشابى بالغاب أثرا لجبران ، الأستاذ كرو . اقرأ كتابه « الشابى » ص ٥٠ .

(٢) المقصود بالغاب هنا « العزلة البعيدة » وسأذكر رأيى فى غابة الشابى بعد استعراض الآراء الناقدة .

المهجريين هى من باب المصادفة لا أكثر) (١) .

(ولعل أعظم تجاوب للشابى كان مع زملائه شعراء (أبولو) (٢). حتى قبل ظهور مدرستها . ونحن شخصيا أولعنا بالشابى لا لعبقريته الفنية فحسب ، بل لانسانيته الرفيعة والوطنية السامية أيضا ، وكان التجاوب بيننا تاما مع تميزه هو **بأناقة لا نعرف لها نظير الا فى قصائد** الشاعر الفحل العظيم بشارة الخورى . مثال ذلك موسيقى الشابى فى قصيدته الخالدة « صلوات فى هيكل الحب » التى يقول فى مطلعها :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !

فهى متجاوبة مع قصيدة « عرس المأتم » التى كان يعجب بها الشابى (ديوان « زينب ») وقد جاء فى مطلعها غير المسبوق الى طرازه :

عذبة أنت فى الخفاء ، وفى الجهر ، وفى الهجر ، يا أغانى الظلام
بلغى العاشق الأمين مدى العمر ، شقاء لقلبه المستهام
وارقئى أدمعى ، فحسبى عزاء أن يسر الحبيب من ايلامى

ومثال آخر قصيدته العظيمة « ارادة الحياة » فانه متجاوب فى مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة « النهضة ارادة » (ديوان الشفق الباكى) ، وقصيدته الجميلة « الصباح الجديد » التى يقول فى مطلعها :

اسكتى يا جراح ! واسكتى يا شجون !

فهو متجاوب منها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين ، هما قصيدة « الوداع » (قطرة من يراع ــ الجزء الثانى) وقد جاء فى مطلعها :

انتهب يا شعاع نبض قلبى الحزين
حان وقت الوداع ليته لا يحين

انتهب يا شعاع أنا ذاك القريب
ان روحى مشاع فى مداك العجيب

وقصيدة « بعد الصيف » (ديوان « أشعة وظلال ») التى جاء فى مطلعها :

---

(١) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٣ فى معرض تعليق الدكتور أبو شادى على الكتاب تحت عنوان « كتب حية » .

(٢) اقرأ كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٢٣ ــ ٢٤ .

اضحكي يا رمال من هدير المياه
غاب ملك الخيال وتجلى سواه
ذاك بحر الدموع من بكاء الزمان
فهو دوما مروع من مآل الهوان
كل حسن بناه بيديه يزول
ومرارا رثاه وأطال العويل
واضحكي يا رمال من فتوني العظيم
أنا عبد الجمال الضرير الحكيم (١)

ويقرر الدكتور أبو شادى أن الشابى كان (كما كان ناجى ـ رحمة الله عليهما ـ معجبا بكلتا القصيدتين ، وكلاهما نسج على منوالهما) ٠

* * *

ويعارض الدكتور أبو شادى ، الأستاذ التليسى اذ يقول :

(والمشابهة بينه وبين جبران أعظم من أن توحيها المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها المشابهة التى تنتجها التلمذة ٠ تلمذة من عكف على دراسة جبران وأدبه ومن هنا يبدو لنا خطأ الدكتور أبو شادى ، الذى كان يعتبر الشابى تلميذا من تلاميذ مدرسته الشعرية ٠ والحق الذى لامراء فيه أن التجاوب الذى كان بينه وبين الشابى ، انما هو تجاوب شكلى لا يتعدى الصياغة اللفظية ٠ أما التغنى بالنور فصفة بارزة فى أدب جبران ، وقد سبق بها أبا شادى) (٢) ٠

ويقول فى موضع آخر :

(والدراسة الواعية لانتاج هذين الأديبين ، تكشف مدى الأثر العميق الذى طبع به جبران الشابى ٠ وتوضح أنه كان من أخلص تلاميذه وأنبغهم ٠ ولعل الأدب المعاصر لا يعرف بين شعراء الأدب الحديث من وضح فيهم تأثير جبران كما وضح فى الشابى) (٣) ٠

وقد وفق الأستاذ التليسى الى المقارنة والتطبيق فى مواطن كثيرة (اقرأ فصل الشابى وجبران) من ٤٩ ـ ٦٧ غير أنه جنح الى المبالغة أحيانا كقوله :

(أما التشابه فى الخصائص الفنية ، فتلك صفة واضحة فى اتفاق

---

(١) ص ٢٤ من كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ٠
(٢) ص ٦٥ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى ٠
(٣) ص ٥١ كتاب « الشابى وجبران » ٠

الأديبين على تمجيد الفن والسمو به ، على الأغراض التافهة . ولعل جبران ، قد ألقى فى نفس الشابى ، مثل هذا التقدير) (١) .

ان تمجيد الفن أمر طبيعى بالنسبة الى الفنان ، لا يحتاج الى تأثير خارجى . ويبدو أن الناقد ذاته قد حاك فى نفسه هذا الاعتراض فاحترس فى التعبير بعض الاحتراس الذى يخايلنا فى قوله (لعل) جبران ، قد ألقى فى نفس الشابى مثل هذا التقدير .

ويقول التليسى :

(ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذى قدسه الشابى وجعله كل شىء فى حياته ليس سوى فكرة جبرانية ، فاليقظة التى تجعل بطل جبران قريبا بين الناس ، لا ينقاد لتعاليمهم ولا لتقاليدهم لأنه يحس بنفسه ، ويشعر بذاته ، فيكره لها أن تذوب فى أية صورة من صور العبودية ، هى اليقظة التى تملأ عبقريا كالشابى شعورا بنفسه وبالحياة) (٢) .

وهذه الأخرى لا حاجة بها الى تأثير من الخارج فمرهف الحس المتميز الذات يحس بامتيازه وتفوقه وبعد الفارق بينه وبين الأوساط العاديين .

وأنا ألمح فى دراستى للشابى ، ان جميع ما قيل فى تأثير الشابى بالمهجر يميل فى عمومه الى تحديد جبران بالذات مثالا احتذاه الشابى وترسم خطاه ... وقد عاودت قراءة جبران على ضوء هذا الرأى حتى أتبين وجه الصواب فيه ، والخطوط العريضة فى الصورة التى رسمها الكتاب ليصوروا تقليد الشابى لجبران هى : الرومانطيقية - الشكوى ونقد المجتمع .. العزلة أو الهروب الى الغاب ...

فأما رومانطيقية جبران وأسلوبه وروحه ، فانها تتمثل فى تلك القطعة الحالمة عن النفس :

(.... وفصل اله الآلهة عن ذاته ، نفسا وابتدع فيها جمالا .

وأعطاها رقة نسيمات السحر وعطر أزاهر الحقل ، ولطف نور القمر

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربى منها الا اذا نسيت الماضى ، وأهملت الآتى . وكأس حزن وقال : تشربين فيها فتدركين كنه فرح الحياة ....

---

(١) ص ٥٨ من كتاب « الشابى وجبران » .
(٢) ص ٦٤ من المصدر السابق .

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها مع أول كلمة ترفع ...

وأسقط عليها علما من السماء ، ليرشدها الى سبل الحق ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى ...

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح

وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس القزح

وأخذ الاله نارا من مصهر الغضب ، وريحا تهب من صحراء الجهل ، ورملا من على شاطىء بحر الأنانية وترابا من تحت أقدام الدهور وجبل الانسان .

وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات .

ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .

وابتسم اله الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى .

وجمع بين الانسان ونفسه ...) (١) .

* * *

والى أمثال هذه القطعة ينسبون ألفاظ الشابى وأسلوبه ...

النسيم والعطر والكاس والتنهيد والخياليات والأشباح والشوق والتموجات وقوس قزح والحيرة والخيال والدموع والشعر ، كلها ألفاظ بلورية هام بها الشابى لا لأنها ألفاظ جبران ، ولكن لطبيعتها الشعرية التى تستهوى كل رومانطيقى شاعرا كان أم كاتبا ...

وأما نقده المجتمع فمعرضه كتابه (المجنون) حيث تجد فى قصته (كيف صرت مجنونا) (٢) اشارات بعيدة ورمزا وغموضا ... وفى قصته (الله) (٣) معنى قوامه أن الانسان بضعة من الله ، ولا شىء يدنيه من الله أكبر من هذه الحقيقة التى تفوق عنده العبادة والصلاة ... وهذا الرأى يفصله بصورة أخرى فى كتابه ، (دمعة وابتسامة) (٤) . وقد لجأ جبران الى القصص الرمزى فى ذم مساوىء الناس (٥) ونقد

---

(١) كتاب (دمعة وابتسامة) للأستاذ جبران خليل جبران ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(٢) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٥ ــ ٦ .

(٣) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٧ ــ ٩ .

(٤) اقرأ كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران ص ٢٧ ــ ١٨ .

(٥) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران قصة « اللعين » ص ١٤ ــ ١٥ .

أخلاقهم ومظاهرهم (١) وسخر من آراء المجتمع (٢) ونقده نقدا لاذعا لا يسلم منه أحد حتى علماء الأديان · وفى قصته (العالمان) (٣) سخرية تكاد تكون تنديدا ···

فهل هذه الآراء فى الناس غريبة على أحد فينا ، ان التعامل واشتباك مصالح الأفراد والجماعات تكشف عنها فى كل مجتمع ، وفى كل زمان ، وانما فضل الكاتب فى استقراء النفوس وتصوير انفعالاتها ، وفى اراحة القارىء حين يتخفف على يديه مما فى صدره ورأسه من خلجات وآراء ·

وأنت أيضا مع جبران الشاعر تتسلل الى أذنك أصوات حزينة مبحوحة ، تتألف من اليأس والهموم والسقم والصبر والرماد والهشيم والقتاد والقفر والسراب والغيوم والغروب والظلام ··· فلا تلبث أى ترى نفسك وقد انتزعك جبران الى عالمه حيث يروى لك قصة حياته :

قد أقمنا العمر فى وادى تسير بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابا تطير فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير وأكلنا السم من فج الكروم

ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب فغدونا نرتدى بالرماد
وافترشناه وسادا فانقلب عندما نمنا هشيما وقتاد

يلتفت عنك الى أحلامه :

يا بلاد حجبت منذ الأزل كيف نرجوك ومن أى سبيل ؟
أى قفر دونها أى جبل سورها العالى ومن منا الدليل
أسراب أنت أم أنت الأمل فى نفوس تتمنى المستحيل
أمنام يتهادى فى القلوب فاذا ما استيقظت ولى المنام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب قبل أن يغرقن فى بحر الظلام ؟

ويبدو أن البلاد المحجوبة التى يتشوف اليها لم تكن الا مهربا ولو فى الخيال من واقع مرير ··· وأشد ما تكون الأحلام الوردية تأنقا أظلم

---

(١) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « بين هجعة ويقظة » ص ١٦ ــ ١٧ ·
(٢) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « الكلب الحكيم » ص ١٨ ·
(٣) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران ص ٨٢ ــ ٨٣ ·
ويمضى جبران ينقد المجتمع والناس فى سائر كتابه ، حتى يستغلق عليك أحيانا · الست تلمح غموضا فى « عندما ولدت كآبتى » ص ٧٤ ــ ٨٦ ولو أن مضمونها أن الألم يعمق النفس وهو على ثقله لا يخلو من الحسد · واقرأ له أيضا « كيف ولدت فرحتى » ·· ومع أن المقالين أو القصتين فلست أدرى فيما يريد صاحبهما أن يسلكهما ــ ترمزان الى لون من أخلاق الناس ، الا أنهما مفتعلتان أو هكذا أراهما على الأقل ·

ما يكون واقع رائيها ٠٠٠ فحيث يكون الكنود والجحود والتفرد يتعلق الشعراء بخيالات مفوفة توشي لهم عالما آخر على مواهم ويبدو أنهم يقنعون بهذا ويقتنعون به ، حتى يكاد الخيال عندهم يصبح حقيقة ، فيمضون فى الغناء بالدنيا المسحورة ، ولها ، مبهورين كأنها ليست من بنات أفكارهم. وجبران كالشابي واحد من هؤلاء ، وهو مثله عانى من غدر الأصدقاء وجحود الناس ، وغدا متفردا فيهم وحيدا بينهم فهتف وعليه من كسف اليأس ظلمات :

هو ذا الفجر ! فقومي ننصرف	عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف	زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف	مع قلوب كل ما فيها عتيق ؟
هوذا الصبح ينادي فاسمعي	وهلمي نقتفي خطواته
قد كفانا من مساء يدعي	أن نور الصبح من آياته

لا تجاوب ولا صديق ، ولا تطور ٠٠ غمز وسخرية ٠٠٠ ألم اقل لك أن الأحلام تنفيس عن واقع مرير ؟ ٠

ومثل هذا كما رأينا عند الشابى ، فهل كان شاعر الخضراء يقلد جبران عن تخيل ، كما يعارض شاعرا لوقوع قصيدته من نفسه ؟؟ أم أن هذه أدواء العبقرية أو الامتياز على الأقل فى كل زمان ومكان ، فالشكوى واحدة لأن أسبابها متفقة ؟ ألم يملأ المتنبى قبلهما الدنيا شكوى وسبابا واستعلاء ؟ ألم يندد أبو العلاء بأخلاق الناس وطباعهم قبل أن تضع الحياة جبران والشابى ؟ ٠

وهب أن الشابى لمح جبران فى الشكوى والألم فما قيمة التقليد فى معان عامة يرددها كل غاضب بغير قواف وأوزان ؟ انما التقليد الذى أقره دون غبن لأحد ، فهو الغناء بالغاب ، فان هذا الغناء صوت جديد وطبقة جديدة فى الفن العربى ٠ ولو أن جبران تشرب حب الغاب من الأدب الأمريكى حوله ، وعلى التحديد من الأديب الأمريكى ثورو (١) صاحب الكتاب المشهور Walden, or, Life in the woods (٢) فقد أولع هذا الأديب بالغاب ولعا جاوز الغناء والتغنى حتى غدا له مذهبا يعتنقه ويطبقه ، وفلسفة خاصة ينتهجها فى الحياة (٣) ٠

---

(١) Heary Dévid Thoreau ١٨١٧ - ١٨٦٢ م ٠

(٢) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل ٠

(٣) اقرأ كتاب Walden, or, Life in the woods ٠
اقرأ كتاب « حياة الفكر فى العالم الجديد » للدكتور زكى نجيب محمود ص ٧٧ - ٩٧

أقول هذا وأؤكده ، خلافا للدكتور شوقى ضيف الذى ينفى تأثر جبران فى هذا الصدد بالأدب الغربى عازيا (هذا الجانب عنده وعند زمانه الى فكرة الحنين الى الوطن الذى فقدوه ، وكثرتهم من الشام ، من لبنان وسوريا . فهذا الغاب الذى يفكر فيه جبران ليس الا لبنان . ذلك الفردوس الذى فقدوه ، وأرض الأحلام التى غابت عن بصره وراء الأفق البعيد . وهو ينظر اليها من نيويورك ، فيرى المسالك قد انسدت دونها ، فيتألم وتظلم الدنيا فى عينيه . ويتمنى لو انسلخ من محيطه الصاخب محيط الآلة الصماء والبشرية المعذبة ، ليتحد بوطنه ، حيث لا يقتحم عليه الحياة انسان ، وحيث يتمتع بمناظره ، ويشعر كأنه يحمله فوق صدره ، أو كأنه زهرة من أزهاره) (١) .

هل الحنين الى الوطن والهتاف باسمه يحتاج الى رمز وتورية ؟ ان جمال الهتاف فى التصريح باسم الوطن واللهج به ، ولو كان يعنى بالغاب لبنان فما الذى يمنعه من الغناء المباشر الصريح الجهير بلبنان ؟ وترديد أسمائه الدالة كالصنوبر والأرز ليخلع على الغناء خاصية تليق بوطنه وتميزه وحده ؟ ولكن الغاب منتشر فى غير وطن الشاعر . فهو ليس علما عليه كالأرز مثلا ؟ ألا يرى الناقد معى أن الصفات التى خلعها جبران على غابه لا تنطبق على لبنان أو أى وطن آخر ، أليس فى لبنان كما فى سائر الأوطان قوى وضعيف ، وخير ، وشر ، وراع ورعية ، وحزن وهموم ، وموت وقبور ، وغيرها من الصفات التى نزه جبران الغاب عنها ؟

ان الغاب عنده رمز الى حياة أفضل .. حياة أسعد مما نعيش جميعا فيها .. ان غاب جبران يذكرنا بالفلاسفة من أصحاب المدينة الفاضلة .

ومن العجب أن يفسر هتاف جميع المهجريين بالغاب .. هذا التفسير .. أيجوز فى منطق العقل أو حتى المصادفة أن يتفق جبران ونسيب عريضة وايليا أبو ماضى على أسلوب موحد فى حب الوطن والتغنى به عن طريق الرمز بالغاب ؟ ان الوطنيات فى كل الآداب صريحة جهيرة من حماس ، فهل شذت القاعدة الطبيعية عند المهجريين ، أليس الأولى أن يكون الاتفاق على الغاب من وحى الأدب الأمريكى الذى يلاصقونه جميعا ؟ .

* * *

---

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ١٧٤ — ١٧٥ .

أحب جبران الغاب بحكم البيئتين الأدبية والطبيعية المحيطتين به ٠٠ وعلل حبه ٠ ليس فى الغاب سيد ولا مسود ٠٠ ولا حزن ولا هموم ٠٠ لا زيف ولا خداع ٠٠٠ لا رجاء ولا ملل ٠٠٠ لا موت ولا قبور ٠٠٠ الغاب ملاذ وأمل ، **فهو يهتف وبه من وقدة الشوق عاصف :**

العيش فى الغاب ! والأيام لو نظمت
في قبضتى ، لغدت فى الغاب تنتشر

بعد أن ترنم فى حنان ولذة وذهول :

ليس فى الغـابات راع لا ، ولا فيهـا القطيـع

❊ ❊ ❊

ليس فى الغـابات حزن لا ، ولا فيهـا الهمـوم

❊ ❊ ❊

ليس فى الغـاب خليـع يدعى نبـل الغـرام

❊ ❊ ❊

ليس فى الغـاب رجاء لا ، ولا فيـه الملـل
وبمـا السعى بغـاب أملا ، وهـو الأمل ؟

❊ ❊ ❊

ليس فى الغابات موت لا ، ولا فيهـا القبور
فاذا نيسـان ولى لم يمت معـه السرور
ان هـول المـوت وهم ينثنى طى الصـدور
فالذى عاش ربيعـا كالذى عاش الدهور
اعطنى النـاى وغن فالغنا سر الخـلود
وأنين النـاى يبقى بعد أن يفنى الوجود (١)

هكذا غنى جبران متشبها هو الآخر ٠٠ فطرب الشابى من الغناء والمغنى ٠٠ كان يعانى من مثل علل جبران ، فالشعر وافق هواه والشاعر كأنه غنى على ليلاه ٠٠ ظفر عنده بالدواء والعزاء ، فأقبل عليه رأصغى اليه وتجاوب معه ثم حاكاه ، وزاد عليه فى المعانى والأصوات مع تفوق لغة **الشابى الملحوظ** ٠٠٠

---

(١) ص ١٨٦ ــ ١٧٨ من كتاب « الشعر العربى فى المهجر » ٠

ومضى الشابي يردد نشيد الغاب ، يهتف بالصوت حينا وحينا يرتمع به . ويمعن في التحليق وقد غدت مشاعره في يقظة مسحورة ...

وسنى ، كيقظة آدم لما سرى في جسمه روح الحياة النامي
وشجته موسيقى الوجود ، وعانقت أحلامه ، في رقة وسلام
ورأى الفراديس ، الأنيقة ، تنثني في مسترف الأزهار والأكمام
ورأى الملائك ، كالأشعة في الفضا تنساب سابحة ، بغير نظام
وأحس روح الكون تخفق حوله في الظل ، والأضواء ، والأنسام
والكائنات ، تحوطه بحنانها وبحبها ،الرحب ،العميق ،الطامى
حتى تملأ بالحياة كيانه وسعى وراء مواكب الأيام (١)

انه وصف الشابي لنفسه ... لادخل لي فيه ...

❊ ❊ ❊

وشيء آخر غير الغاب والتغني به .. قد يكون الشابي اقتفى أثر جبران حين ساقت هذا قدماه الى مدينة الأموات (٢) ، وفي النعي على الأغنياء وظلمهم (بين الكوخ والقصر) (٣) و (طفلان) (٤) ولو أن التقاط موضوع كهذا عن اعجاب أو استطراف شيء في رأيي غير التقليد .. أنا هنا لا أنتصر للشابي بغير قيد ولا أدفع عنه عيبا ، فقد يكون التقليد في موضع لونا من النبوغ أو المهارة على الأقل ... ولكنه رأيي بعد دراسة متحرجة ، متحرية الدقة ما استطاعت الى ذلك سبيلا ...

وهذا التقليد بعينه أعلنه في غير تردد ، حين أقف عند قصيدة الشابي (في ظل وادي الموت) ... فأنت حيال هذه القصيدة تلمس وتحس وجه الشبه بينها وبين قصيدة ايليا أبي ماضي ، لست أدري . أعني مطالعها . فان الشابي في قصيدته القصيرة نسبيا لم يعرج على البحر والدير والقصر والكوخ ، ولم يتعمق كنه الفكر والنفس والحياة على نحو ما فعل ايليا في جداوله .. ولكن الروح والطابع والحيرة واحدة في مطلعيهما ... بل اني أرى تقابلا يكاد يكون تاما بين قول الشابي :

نحن نمشي ، وحولنا هاته الأكوا
ن تمشي ، لكن لأية غايه ؟

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

(٢) ص ١٥ — ١٨ من كتاب « دمعة وابتسامة » للأستاذ جبران خليل جبران .

(٣) ص ٨٨ — ٩٠ من المصدر السابق .

(٤) ص ٩١ — ٩٣ من كتاب « دمعة وابتسامة » للأستاذ جبران خليل جبران

نحن نشدو مع العصافير للشمس ،
وهــذا الربيــع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ،
ولكن ماذا ختام الرواية ؟
هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية »

وقول ايليا أبى ماضى :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا ان شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقى (١)

لست أدرى

وطريقى ما طريقى أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه أم أغور
أأنا السائر فى الدرب أم الدرب يسير
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟

لست أدرى

جهل البداية .. جهل النهاية .. جهل الهدف من الحياة .. كنه الانسان ، وهل هو مسير أو مخير ... هذا هو فلك المعانى الذى تدور فيه القصيدتان فى مطلعيهما ...

هنا أقول بالتقليد وعقد المقارنة بين هاتين القصيدتين مستساغ عقلا ، لان المعانى الدائرة فيهما ليست من المعانى الدارجة التى وصفها أبو هلال العسكرى بأنها يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى بل انها على خاصية فيها مما يخرج على العرف العقلى والدينى ، فان الجمهرة قد اتفقت على التسليم **ببداية** لهذا العالم ، **ونهاية وسبب ومسبب** والقول بغير هذا حدث — يستحق ويحتمل النظر والمقارنة والمسايرة والمعارضة وتواجد مقلد ومقلدين ...

ولا يغض مثل هذا التقليد من الشابى ، فتدفقه بفيضه وتواصله فى حرارة وقوة وجبروت يشفع له اذ لا يعين على هذا طاقة مواضعة قانعة كطاقة المقلدين .

---

(١) لست أدرى .

هناك رصيد انسانى ضخم يرفد ٠٠٠ وموهبة أصيلة بكر تعين ٠٠٠

* * *

رحم الله الشابى الانسان ، وحيا الله الشـابى الفنان الذى مازال يعيش بيننا وسيظل بين الأحياء شعرا ، ودعاء وهتافا ونشيدا ٠ فان الفن أبدا لن يموت لأنه من الخير والجمال والحق ، وحين تزول من الدنيا العروض فان الجوهر باق فى صفاء الخير ولألاء الجمال ونور الحق ، ويبدع الخلق يضفيه على الدنيا ألوانا وأشكالا وصورا وأنغاما وقصيدا ، الرسام والمثال والمصور والموسيقى والشاعر ٠٠٠

من أغانى الحياة

شاعر ونشيد :

فى الصباح الجميل ، يشدو مع الطير ... ويمشى فى نشـوة المتحسى
نافخـا نايه ، حواليـه تهتز ... ورود الربيـع من كـل نفس
شـعره مرسل — تداعبـه الريـح ... على منكبيـه مثـل الدمقس
والطيور الطراب تشـدو حواليه ... وتلغو فى الدوح ، من كل جنس
وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول ... يرنو للطـائر المتحسى
أو يغنى بين الصنوبر ، أو يرنو ... الى سـدفة الظـلام الممسى
فاذا أقبل الظـلام ، وأمست ... ظلمات الوجود فى الأرض تغسى
كان فى كوخه الجميـل ، مقيما ... يسأل السكون فى خشوع وهمس

سهمة وتأميل :

عن مصب الحيـاة ، أين مداه ؟ ... وصميم الوجـود ، أيان يرسى
وأريج الورود ، فى كـل واد ، ... ونشيد الطيـور ، حين تمسى
وهزيم الريـاح فى كل فـج ... ورسـوم الحيـاة من أمس أمس
وأغانى الرعاة أين يواريهـا ... سكون الفضا ، وأيان تمسى (١)

مبهور مسحور حالم سعيد .. حبه

فى جوف الليـل ، يناجيه ... وأمـام الفجـر ، يمجـده
وعلى الهضـبات ، يغنيه ... آيـات الحب ، وينشـده
ويـرى الآفـاق فيبصرها ... زمرا فى النـور ، تراصده

(١) الديوان — قصيدة « النبى المجهول » ص ١٠٤ — ١٠٥ .

ويرى الأطيار ، فيحسبها أحلام الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها بسمات الحب توادده

أرأيت .. « توادده » هذه أليست عذبة ناعمة كهناءة السعيد ؟؟

فيخال الكون يناجيه وجمال العالم يسعده
ونجوم الليل تضاحكه ونسيم الغاب يطارده
ويخال الورد يداعبه فرحا ، فتعابثه يده
ويرى الينبوع ونضرته ونسيم الصبح يجعده
وخرير الماء له نغم نسمات الغاب تردده
ويرى الأعشاب وقد سمقت بين الأشجار تشاهده
ونطاف الطل تنمقها فيجل «الحب» ويحمده(١)

انه حلم الشباب فى كل جيل وكل قبيل ...

أشواق تائهة ملتاعة :

ياصميم الحياة ! انى وحيد مدلج ، تائه ، فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة ! انى فؤاد ضائع ، ظامىء فأين رحيقك ؟
يا صميم الحياة ! قد وجم الناى وغام الفضا . فأين بروقك ؟
ياصميم الحياة ! أين أغانيك فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟(٢)

وهناك قصيد استشهدت به .. فى معرض الدراسة واستشهد به غيرى ولكنه يحلو حتى على التكرار والترديد .. نعم انها صلوات فى هيكل الحب :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال ، وشباب منعم أملود
يالها من طهارة ، تبعث التقديس فى مهجة الشقى العنيد
يالها رقة تكاد يرف الور د منها فى الصخرة الجلمود

أى شيء تراك ؟

حيرة ولهى نشوان .. حيرة معسولة سعيدة .. وأكثر من هذا فى استفهام الشاعر ..

---

(١) الديوان ـ قصيدة « صفحة من كتاب الدموع » ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٢) الديوان ـ قصيدة « الأشواق التائهة » ص ١١٢ .

أى شيء تراك ؟ هل أنت (فينيس) تهـادت بين الورى مـن جديد
أنت ٠٠، ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقرى مـن فن هذا الوجـود
فيك مافيه من غموض وعمق ، وجمـال مقـدس معبـود
أنت روح الربيـع ، تختـال فى الدنيـا فتهتز رائعـات الـورود
وتهب الحيـاة سـكرى من العطر ، ويدوى الوجـود بالتغـريد
أنت أنشـودة الأناشـيد غناك اله الغنـاء ، رب القصـيد
أنت ٠٠ أنت الحياة فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشـجى الفريد
أنت ٠٠ أنت الحياة ، فى رقة الفجر وفى رونق الربيـع الوليـد
أنت ٠٠ أنت الحياة ، كل أوان فى رواء من الشـباب ، جـديد
أنت ٠٠ أنت الحياة فيك وفى عينيـك آيات سحرها الممـدود
أنت دنيا من الأناشـيد والأحـلام والسـحر والخيـال المديـد
أنت فوق الخيال، والشعر ، والفن وفوق النهـى وفوق الحـدود
أنت قدسى، ومعبدى، وصباحى، وربيعى ، ونشوتى ، وخلودى(١)

أين رأى الشاعر كل هذا الجمال ؟ لا تصف لى بعد هذا أفـراح الشفق ، ووداعة الغروب ، وسحر الأصيل ، وسر الليل ، وعذوبة الفجر ، وهدأة السحر ٠ لا تصف لى لمس النسيم ، وهمس البنفسج الخجول الحالم ٠٠ لاتصف لى وسوسة الغصون ، وهسهسة الغدير بين العشب والزهر ٠٠ لاتصف لى وخلنى فى سبحاتى مع الشاعر فى هيكل الحب ٠٠ حقا ٠ هل رأى الشاعر كل هذا الجمال ٠٠ ليتنى أتأكد حتى لا آسى عليه اخترم والعمر غض ، والشباب فينان واعد ٠٠ فساعة فى حضرة مثـل هذا البدع من الخلق تخصب العمر كله ٠ فيعدو طويلا مديدا مشبعا ممتعا ، وان كان خمسة وعشرين ربيعا فى حساب الأيام ٠٠ ليس موتا غيابه ٠٠ لقد أمعن فى التحليق فرفع ٠٠

يوم جديد :

أقبل الصبح يغنى للحيـاة الناعسه
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسه
والصبا ترقص أوراق الزهـور اليابسه
وتهـادى النور فى ذلك الفجـاج الدامسة

أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر ، والطير ، وأمواج الميـاه

(١) الديوان ــ قصيدة « صلوات فى هيكل الحب » ص ١٢١ ــ ١٢٤ ٠

قد أفاق العالم الحي ، وغنى للحياه
فأفيقي يا خرافي ، وهلمي يا شياه
واتبعيني يا شياهي ، بين أسراب الطيور
واملأى الوادي ثغاء ، ومراحا وحبور
واسمعي همس السواقي . وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي ، يغشيه الضباب المستنير (١)

بالطبع لفتك تمطى الأمواج والضباب المستنير .. هكذا رأى خيال الشابى انفراج الموج ، وشفافية الضباب التى لا تحجب النور . فمن حقه على الشاعر أن يدعوه ضبابا مستنيرا ما دام يضيء ، وإن كان لفظ « الضباب » له جرس معتم .. ولكننا هنا فى « عين دراهم » الساحرة ..

❋ ❋ ❋

عالم ثان :

فى فؤادى الرحيب	معبد للجمال
بالرؤى ، والخيال	شيدته الحياة
فى خشوع الظلال	فتلوت الصلاه ....
وحرقت البخور ...	وأضأت الشموع (٢)

❋❋❋

هتاف مهيب :

اذا الشعب يوما أراد الحياة	فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى	ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة	تبخر فى جوها واندثر (٣)

❋❋❋

اثارة مهتاجة :

أين ياشعب ، قلبك الخافق الحساس ؟
أين الطموح ، والأحلام

---

(١) الديوان ــ قصيدة « من أغانى الرعاة » ١٥٢ ــ ١٥٣
(٢) الديوان « الصباح الجديد » ص ١٦٠ .
(٣) الديوان « ارادة الحياة » ص ١٦٧ .

أين ياشعب ، روحك الشاعر الفنان
أين ، الخيال والالهام
أين ياشعب ، فنك الساحر الخلاق
أين الرسوم والأنغام ؟
ان يم الحياة يدوى حواليك
فأين المغامر ، المقدام
أين عزم الحياة ؟ لاشيء الا
الموت ، والصمت ، والأسى والظلام
عمر ميت ، وقلب خواء
ودم ، لا تثيره الآلام
وحياة ، تنام فى ظلمة الوادى
وتنمو من فوقها الأوهام
أى عيش هذا ، وأى حياة
(رب عيش أخف منه الحمام)(١)

(دم لا تثيره الآلام) بلادة متجمدة ليست من طبيعتنا الشرقية ، ولكنه من لظاه صرخ هذه الصرخة ليفتح النيام عيونهم على ما يدبره المستعمر وعملاؤه لهم ، علهم يفيقون .

(١) الديوان ـ قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ .

المراجع والمصادر

« مرتبة حسب ورودها فى الكتاب »

١ ـ رائد الشعر الحديث	محمد عبد المنعم خفاجة
٢ ـ الشـابى	أبو القاسم كرو
٣ ـ مجلة الامام	مصر
٤ ـ الشابى وجبران	خليفة محمد التنيسى
٥ ـ مجلة الفكر	تونس
٦ ـ مع الشابى	محمد الحليوى
٧ ـ مجلة أبولو	مصر
٨ ـ كفاح الشابى	أبو القاسم محمد كرو
٩ ـ شاعران معاصران	عمر فروخ
١٠ ـ الشاعران المتشابهان	أبو القاسم محمد بدرى
١١ ـ دراسات فى الشـعر العربى المعاصر	الدكتور شوقى ضيف
١٢ ـ مذاهب الأدب	محمد عبد المنعم خفاجه
١٣ ـ ذكرى الشابى	لمجموعة مـن الأدبـاء
١٤ ـ أبو القاسم الشـابى « حياته » « أدبه »	زين العابدين السنوسى
١٥ ـ ديوان بهاء الدين زهير	
١٦ ـ مجلة الآداب	بيروت

١٧ ـ مجلة الندوة	تونس
١٨ ـ الحركة الأدبية والفكرية في تونس	الشيخ محمد الفاضل أبو عاشور
١٩ ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	مصطفى عبداللطيف السحرتي
٢٠ ـ الشعر وقضيته	ابراهيم العريض
٢١ ـ الفكر العربي	رئيف خوري
٢٢ ـ فن الشعر	احسان عباس
٢٣ ـ مجلة الشباب	تونس
٢٤ ـ روابط الفكر والروح بين العرب والافرنجة	الياس أبو شبكة
٢٥ ـ المجنون	جبران خليل جبران
٢٦ ـ دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران
٢٧ ـ والدن أو الحياة في الغابة	ترجمة أمين مرسى قنديل
٢٨ ـ حياة الفكر في العالم الجديد	زكي نجيب محمود
٢٩ ـ الجداول	ايليا أبو ماضي

- الأخطل الصغيرُ

مقدمــة

بشارة الخورى أو الأخطل الصغير كما يطيب له أن يسمى نفسه ، شاعر عذب الصوت ، رقيق الشدو ، معجب الغنـاء ٠٠ وما الى تزكيته قصدت ، ولكنها صفاته الغاليـــة عليه والتى تجذب اليه محبى الأدب والشعر فى العالم العربى ، وكل مترف الحس والذوق من عشاق الفن الجميل ٠

لقد استقبل العالم العربى ديوان الشاعر (الهوى والشـباب) استقبالا طيبا حفيا جاوز تقدير الشعر الى اعزاز الشاعر وتكريمه ٠٠ ولم تقصر مصر فى هذا المضمار ، بل لعل حفلها الذى أقامته من أجل السيد بشارة الخورى هو الذى أوحى الى أن أجعل من تحيتى فى الحفل دعامة دراسة للشاعر وشعره رمزا باقيا لحفاوة ضفاف النيل بربوع لبنـــان ٠

وهذه الدراسة التى يقوم بها هذا الكتاب انما هى دراسة موضوعية بحتة لديوان (الهوى والشباب) ٠٠

وكنت أود أن أحيط بحياة الشاعر ونفسه التى كان لنا منها هذا الشعر ٠٠ حياته بتجاربها وأحلامها وأوهامها ومخاوفها وأمانيها وآلامها وأفراحها ٠ ونحوسها وسعودها ، وفشلها والنجاح ٠٠ ولكن هذا كله لا يتيسر لى وأنا فى مصر ٠٠ وكلها أمور تحتاج الى الافضاء المسترسل ، والبث الهادىء المطمئن ، والسمر الودود الصريح من اخلاص للمنهج

السليم فى البحث الأدبى .. فكيف يسمر الجبل مع الوادى وبينهما من البعد ما يضيع فيه الصوت الجهورى بله الصوت الســـمير ؟ .. اذن لنكتف الآن بهذه الدراسة الموضوعية .. الدراسة المجتزئة - الى حين - بديوان (الهوى والشباب) .

القاهرة فى ١٥ يوليو ١٩٥٤

نعمات أحمد فؤاد

شاعر الوصف

ديوان الهوى والشباب ديوان مختلفة الوانه ففيه الوصف وفيه الغزل وفيه القصة وفيه غناء بالطبيعة وغناء للانسان ٠٠ وكلها كما ترى رؤوس موضوعات ونقط ابتداء فبأيها نستهل ٠٠ أبالوصف ؟ ما من شك أن بشارة الخورى شاعر وصاف نابض الوصف بالصوت واللون والحركة ٠٠ والمثال عندى يتمثل فى وصفه لبنان الذى يحدثك عنه فى مطلع ديوانه حديث ولوع ٠٠ لبنان

كيف التفت فجدول متـــأوه تحت الغصـــون وربوة تتبسم
أكمـــاته البيضـــــاء تحت ســـمائه الزرقاء أطفـــال تنام وتحـــلم
تتصاعد القبلات من أنفاســـها وتمر بالوادى الوديع وتلثم

ثلاثة أبيـات فيهـــا من الصوت طبقتان : التأوه والهمس الذى توسوس به القبلات المتصاعدة من أنفاس الأكمات البيض ٠٠ وفيها من اللون الأبيض والأزرق ٠٠ وفيها من الحركة والهيئة والصورة ابتسام ربى ، ونوم أطفال ، وأحلام ملائكة ٠ وأنفاس أكمات ، ولثم قبلات ٠

لست أدرى لماذا يذكرنى هذا الجيشان الحافل بابن الرومى مع مابين الشاعرين ، وبين النزعتين من اختلاف ٠

وفى شعره ترف وأناقة وتفويف ونعومة المخمل أو أوراق الورد ، **وهل هناك أنعم من هذا البيت :**

ليل حريرى النسـيج كأنه شـكوى الهوى وصبابة الملتاح

ليل وحرير وشكاة هوى ووجد وظمأ قلب وتشوف حب وتحرق مشوق ٠٠ أى ليل هذا تراه ؟

وعلى الضفاف اذا تموجت الضحى لونان من أرج ومن تصداح
والغصن في حضن الرياض وسادة نمت على عنقين من تفاح
متلازمين توجسا اثم الهوى متخوفا طرف الضحى اللماح(١)

وصف مترف أنيق ..

وهو يبدع حين يصف غرام البادية فى سذاجته وبراءته كالفطرة الأولى ويتخذ مادة لوصفه « عروة وعفراء » من فتية « الأغانى(٢) » فاذا هما فى غرة الحداثة :

يتراكضان بها ـ فان هما بوغتا فيها ـ فبالأوراق يختبئان
ولطالما وقفا على الوادى وقد صرخا هناك ليلتقى الصديان
مزجا فلو خطرت (لعفرا) فكرة بدرت بها من عروة الشفتان

وصف جميل للتشارب ..

واذا التقى النظران تلمع أسطر يعيا بحل رموزها الولدان

طفولة عاشقة ولا تدرى ...

حتى اذا كبرا تولى شرح ما لم يفهما قلباهما الخفقان

لقد أدرك الصغيران كل شيء ..

فاذا وافت المحب الأمنية فانما هي :

تعمى على كبد الفتى سقطت كما سقط الندى سحرا على حران
فأحس أن له جناحي طائر وبدت له زهر النجوم دوانى
فجرى يرقص عرده الشعرى على صدر المروج ومعصم الغدران
فيصوغ هينمة النسيم قصائدا ويرد زمزمة الغدير أغانى

صورة معجبة بلا شك فيها خفة ونشوة وانطلاق ..

وقد يتهافت وصف الشاعر أحيانا رغم ما يوفره له من حلى اللفظ . وأنا هنا أعنى قصيدته (العيون) . فان وصفه للعيون سواء ما جاء به من عنده أو ما ترجمه عن الشاعر الفرنسي سوللى بريدوم ، وصف رتيب ليس فيه الحرارة والروح .. لم يرو الشاعر شيئا من حديث العيون ، ولم يفض بشيء من أسرارها ولم يترجم معانيها وهي جمة ..

---

(١) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ص ١٥٥
(٢) قصيدة (عروة وعفراء) ص ٦٨ ـ ٦٩ .

لم يحدث عن رقتها وحنانها ، وعن قسوتها وائتلاقهـــا ، وعن تغابيها وذكائهـــا ، وعن غشاوتها ونورها ، وعن بسمتها وعبوســـها ، وعن محاورتها ومصاولتها ، وعن حزنها ودموعها ، وعن دهشتها واستغرابها ، عن جهلها وحلمها وعن حدسها ويقينها ، وعن عبثها وجدها ، وعن تهافتها وقهقهتها ، عن لغاها وصمتها ، وعن هدأتهـــا وصخبها ، وعن اتزانها وعربدتها ، وعن عيها وبيانها ؟ وعن سكونها وحديثها ، وعن التياحها وريها ، وعن مناها وأحلامها ، وعن حنينها وأشواقها ، وعن قلاها وبغضها ، وعن كدرها وصفوها ، وعن يأسها وأملها ، وعن نظراتها وأسلحتها ، وعن وداعتها واستسلامها ، واذعانها وتسليمها ، وعن اصرارها وعنادها ، وعن كذبها وصدقها ، عن اخلافها ووعودها ، وعن بثها وافضائها ، وعن مراوغتها وتصريحها ، وعن وشايتها وكتمانها ، وعن صحوها ونومها ، عن فتنتها بشرها وخيرها ، وعن سعودها وأقدارها ، وعن فنها ومعجزاتها. وعن استبدادها وسيطرتهـا ، وعن نجلها وحورها ، ووطفها ودعجها ، وعن .. عن عديد من أحوالها ..

حتى سحر العيون وأفاعيل جمالها كان الشاعر يلمحها لمحا هادئا ، ولا أريد أن أقول باهتا .. في مثل قوله :

ما عجيب ومقلتـــاك ظـلام	أن تكونا مستودعا للضـــياء
تنسجان الحياة حينا وحينـــا	تنسجان الممات للأحياء (١)

لقد طابق حقا بين الظلام والضياء . والحياة والممات .. ثم ماذا ؟

(١) قصيدة العيون ص ٤١ .

الطبيعة في شعره

ويتصل بشعره الوصفي شعره في الطبيعة ، والحديث عن الطبيعة حديث موشى بطبعه ، مصقول بطبيعته • فالطبيعة من الجمال ، والخصب والغنى حافلة بمباهج شـــتى ومفاتن تأخذها العين العادية العابرة فكيف بعين الشاعر المرهف الحس ، الرفاف النفس • المفتوح العين ، المتفتح القلب ، المهيأ لاستقبال الجمال ، المفطور على التغنى به ؟ ولا يبلغ هذا الكلام تمام صدقه بقدر ما يبلغه في ديوان شاعرنا بشارة الخوري •

اننا ما نكاد نصافحه في الاهداء حتى ترقى الى أسماعنا موسيقى عذبة صافية تتألف من خرير الجدول المتأوه وهو ينساب تحت الغصون انسيابا نغميا مرسلا ، واهتزاز الربوة بالنبات وهي تتبسم ، وهمس الأكمات البيض تحت سماء لبنان الزرقاء وهي تنام وتحلم ، ووسوسة القبلات التي تتصاعد من أنفاسها وتمر بالوادي الوديع وتلثم •

ولعلك تذكـرت الآن قصـــيدة لبنان التي مرت بنا والتي أهداها الشاعر الى وطنه الحبيب •

واحساس الشاعر القوي بالطبيعة يسري منه الى قارئه •• فالأستاذ عادل الغضبان يتهيأ لتقديم الديوان فاذا بالقلم في يده يسطر مسحرا :

نفح الريحان وشعاع الصهباء •

وحمرة الشفق وخضرة الأرز •

ونعومة الحرير ورقة خدود الورد •

اذا جبلت بندى الصباح وبسمة الفجر ونفخ فيها النسيم من نفثاته كانت صورة صادقة لروح بشارة الخورى شاعر الهوى والجمال .

وهذا كلام ند لم تستطع المنافسة الطبيعية بين القرينين أن تخفى اعجابه ، و تحجب هتافه .

ولعل الطبيعة بألوانها وشبابها وتجددها وتألقها هى التى صفت نفسه حتى شفت ، وعكست عليها صور الجمال وسكبت فيها معانيه فصارت تغنى به وتتعبد فى محرابه حتى لتخال شعرها فيه ترنيمة صلاة .

يتمدح فيتمثل غرة الفجر والقطر والندى والزهر والشذى والظلال والربى .. ولقد تستغرقه الطبيعة فلا يخلص الى الممدوح الا وقد قطع من القصيدة ثلثيها .. وأنا أعنى هنا قصيدته (زاهرة الربى) فى الشاعر فارس مشرق ..

ويصف فاذا الليل والشمس والمياه والنسيم تتواكب فى أبياته كأنها فى سباق .. ويسترحم فاذا نجمة تهمس بأذن أخيها همس ثغر الندى بمسمع ورد .. ويسمع البلبل فينتشى ويمضى يؤلف ويؤاخى بين الصوت الجميل والفجر والزهر وكل ما فى عالم الروض من روائع .

ويدير الحديث بين بنية وأمها فاذا به ينسجه من الضحى والدجى والروض والرمان والغصن والورد ، والأوراق والبحر فاذا بالبنت فى عين خيالك كأن السوسن عكس على محياها صفاه فتألقت ، كأن الورد أراق على وجنتيها حمياه فأشرقت ، وكأن الغصن علمها كيف تميس فسارت ، وكأن الليل رقرق فى سمعها أناشيده فنطقت شعرا ، وتكلمت موسيقى .

ولست تسمع هذا الغناء فى حالة رضاه فحسب ولكنه فى غضباته أيضا لا ينفك يهزج باسمها ويغنى بها .. ورحم الله شاعرنا شوقى اذ يقول (ورب شجو سمعته من شاد) ..

لقد صدر الأمر باقفال جريدته فثارت شاعريته بالطبع ، ولكنك تعجب حين تسمعه ينفث مرارته على هذا النسق .

ياهند قد ألف الخميلة بلبل	يشدو فتصطفق الغصون وتطرب
هو شاعر الأطيار لا متكبر	صلف ولا هو بالامارة معجب
تتعشق الأزهار عذب غنائه	فاذا شدا فبكل ثغر كوكب

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب(١)

لا مراء أن القصيدة رمزية وأن نهجه فيها أشبه بمنهج القانونى الذى يعى باختيار حالة مضادة كما يقول الأستاذ العقاد فى موضوع آخر ·

وهو لايصف البلبل بأنه ليس متكبرا ولا صلفا ولا هو بالامارة معجب ·· لا يصفه بهذا اعتباطا ولكنه يخز أعداءه كما وخزهم مرة أخرى ببيته :

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب

ولكنه مع هذا وخز لا يسيل دما ولا ينكأ جرحا ··

وينفى الشاعر النسيان عن وفائه فيستعيد مناظر الطبيعة التى شهدت عهوده وكأنه يقسم بالجمال والجلال ألا ينسى ·· ويسمو بصره الى وطنه فيتغنى بطبيعته ويهب نفسه فداء :

لمنبت الشيح فيه ومسرح الآرام
هناك سينا التجلى ومهبط الالهام (٢)

ويقتبس عن الفرنسية قصيدة (قلب خافق) (٣) فاذا الطبيعة وسنانة حتى نجوم الأفق خدرها النعاس ·· واذا جبال لبنان :

خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام

واذا السهل فى حضن الطبيعة كالغلام ·

يغفو ويحرس ثغره روح البنفسج والخزام

حتى قصيدة عيد الجهاد (٤) فيها خضرة الأرز وفيها آيكة غريدة ·

ويرثى شباب شاعر فلا تحجب الدموع عنه مراثى الطبيعة التى يتسلل اليها من باب الرد على الدين :

عجبوا أن يموت فى ريق العمر ويطوى كالبرق سفر حياته

فكان رده :

أيلام الورد الجنى اذا جف رحيق الجمال فى وجناته

(١) قصيدة (الصوت موهبة السماء) ص ٤٩ ·
(٢) قصيدة « فدى للبنان نفسى » ص ٥٣ ·
(٣) قصيدة آه ما أحلى المميا ص ١٤٥ ·
(٤) قصيدة عيد الجهاد ص ١٦١ ـ ١٦٢ ·

وإذا كان عمره بعض يوم   وتمشى الذبول فى ورقاته
غاية الورد أن يضمخ هذا الجو بالمستحب من نفحاته
ما عليه أن جاز غايته القصوى وعد الزمان من ساعاته (١)

وعلى هذا النسق اطردت حججه الشعرية لو صح هذا التعبير ٠

والقرية والجبل والسهل والزهرة وبردى كلها له مهابط الهام وبنات وحى ٠٠ يقف ركبه عند القرية تتوج رأس الجبل فيغنيها :

أيتها الفتانة الصغيره	أنت بتاج ملك جديره
من القرى اشتقوا لك اسم القريه	وعطل السفح فكنت الحليه
شاعرك البلبل ذو الالهام	وعودك الجدول ذو الأنغام
والغيمة البيضاء مثل القبه	كأنها من الحرير جبه
تضم أعناق الربى وتلثم	فليس الا شفة ومبسم
كم طربت شمس لهذا المشهد	فمسحت جبهته بالعسجد (٢)

لا شك أنه يحس جمال الطبيعة ويسمع أصواتها ويميز ألوانها ٠ وهو مصور ٠٠ ولكن آلته الفوتوغرافية لا الريشة ، وان كان صاحب فن فى (الرتوش) ٠

وفى (زحلة) التى (أسرفت فى فتن الجمال) يقول :

يا زحل كم من شاعر لك عاشق	لولا الذى توحين لم يك شاعرا
أسرفت فى فتن الجمال كأنما	تخذ الجمال على ذراك منابرا
والنهر روح العاشقين ودمعهم	ملقى على قدميك يلهث خائرا
سالت جراحات الهوى فى صدره	ليلا فقبلها النسيم محاذرا
و (السهل) يحلم منذ كان بزورة	لبس الحلى لهاندى وأزاهرا (٣)

هو يصف الطبيعة وقد يشيع فيها الحركة ويبعث منها الصوت ولكنه لا يستنطقها ٠

ومن قصيدته (زاهرة الربى) :

لم أنس حين دخلت روضك غدوة	والزهر بين مزرر ومشقق
فقطفت أول قبلة من وردة	ورشفت أول مبسم من زنبق (٤)

---

(١) قصيدة الشباب الداوى ص ١٦٩ ٠
(٢) قصيدة القرية ص ٩٠ ٠
(٣) قصيدة (زحلة) ص ١١٣ ٠
(٤) قصيدة زاهرة الربى ص ١٢٥ ٠

تحية معجب ، ولكنها دون ولع « جرترودستيز » حين تهتف مفتونة مسحرة ٠ وقد رأيت الورد : الوردة هى الوردة ٠ هى الوردة ٠ هى الوردة ٠

لقد جنت بالورد جنونا شريفا كما يدعوه الأستاذ سلامة موسى (١) ٠

وقد يجعل ملتقاه فى حضن الطبيعة ولكنه يجعل منهـا متفرجـا فحسب ، اذ هى لا تشاركه نعيمه :

ليتهم يذكرون ليـلة كنـا والهـوى نحـن أمه وأبـوه
وعيـون النجوم ترنـو الينـا ولسـان الدجى يـكاد يفوه
والنسـيم الخفيف يلهـو بثوبينـا كطفـل أهلوه ما هذبوه (٢)

النجوم ترنو ولا تزيد ، والنسيم يلهو بثوبه كطفل عابث ٠٠ واللهو والطفولة لا يتأتى معهما ادراك ٠٠ فلم يشرك الشاعر النسيم معه ٠٠ ولم يفض اليه ولم يجعله يشاطره ٠٠ انه وصف من الظاهر ٠٠

ومن قصيدة (زاهرة الربى) :

صـلى لك الوادى برهبة ناسـك وضـباب مبخـرة وهامة مطرق
وأبو الربى صنين قام كشمعـة بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقد النجم السنى برأسـها فترى بوادر دمعها المترقرق
لك فى السـماء نجومها فتاشمى وعلى المهـاد زهورها فتمنطقى
وعليه من وشى الحضـارة مطرف رفت عليـه صـنعة المتأنق (٣)

رفت عليه صنعة المتأنق ٠٠٠ انى أحس فى تعبيره هـذا روحـا مجنحة هفافة ٠٠٠ انه شاعر متأنق ٠٠٠ ولكنه لم يأتلف بعد مع الطبيعة ائتلافا كليـا ٠٠٠

ومن قصيدته (أنا ناى الهوى)

أيهـا البلبل المغـرد فى الليل على كل أخضر ميـاد
غمرتك النجوم بالقبـل السكرى فنقر يا ساحر المنقـاد
يا شقى الهوى جفاك الذى تهوى ومل الظـلام مما تنادى
خلق الله للهوى قبلـة الروح وراء الحـدود والأجيـاد
أنا أدرى بالطير حين تغنى كم جراح سالت على الأعواد (٤)

---

(١) من مقال أشعار فى السماء ٠٠ الاخبار ١٩٥٤/٢/٢٨ ٠
(٢) قصيدة قلت أهواك يا ملاكى ص ٣٩
(٣) قصيدة زاهرة الربى ص ١٢٦ ٠
(٤) قصيدة أنا ناى الهوى ص ١٤٣ ٠

أما رأيت أنه يفهم عن البلبل نداءه ويشاطره همومه . ويحس شجى الأطيار . بل يستشفه خلل غنائها ولا يخدعه منها هذا الغناء ...
ولكن الطبيعة التى يسمعها لا تسمعه ولا تجاوبه ... وما ظلمته فهى كشجر الخابور لا يهمها منا ضحكنا والبكاء اذ هما لديها سواء ... ولكن على الشاعر وحده يقع اللوم ... اذ ينبغى أن يتقدم منها خطوة أخرى بعد الوصف الخارجى . ينبغى أن يتعمق حركاتها وسكناتها ويرهف السمع فى مجاليها فيسمع هتفة الوردة حين تخرج من الكم ، ويسمع لفيف الزهرة حين تخايلها الفراشة ذات الألوان ، ويسمع حفيف الشجرة فى جوقة الألحان ، ويسمع زفيف الريح حتى فى الليل الصاخب ، ويسمع انثناءة الغصن فى حنوه على الغدير ، واعتداله ، فى انصياعه للنسيم ، يسمع كل خطرة وكل رفة ، وكل لفتة ... ينبغى للشاعر أن يصطنع مع الطبيعة سيرة النحل مع الزهر يتودد اليها ويسارها ويشاكيها الهوى ويشور جناها ، ويزيد عليه ان يستنطقها ويكب عليها من نفسه ولو قدرا تحس به معه ، وتشاطره ، وتختلج من أجله .

يقول الأخطل الصغير (١) :

أنا ساهر والسهل فى	حضن الطبيعة كالغلام
وكأمه فتحت ذرا	عيها ليهنأ بالمنام
يغفو ويحرس ثغره	روح البنفسج والخزام
السهل نام فلا حرا	ك ولا هتاف ولا بغام

صورة هادئة كالعناصر المشتركة فى تكوينها فالأمومة المفتوحة الذراعين ، والطفولة الوسنانة الموعودة بالهناء الماثل ، والاغفاء والبنفسج كل هذا يلطف ويفتر . واذا كان السهل قد غشته تهويمة من نعاس فلا غرو أن تكون صورة الشاعر هادئة ساكنة لتكون انعكاسا صحيحا للجو الذى صورته ، وترجمة صادقة للمنظر الذى تحتفل به وله .

أنا ساهر والبحر أخرس لا هدير ولا احتدام
كالمارد الجبار منطرح على صدر الرغام
فكأنه والرمل الفا صبوة منذ الفطام
فتعانقا عند المنام وملء ثغرهما ابتسام
فى ذلك الصمت الرهيب وذلك الليل الجهام
ما كان يخفق غير قلب كاد يتلفه السقام

---

(١) قصيدة قلب خافق ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

ليس بينه وبين الطبيعة تجاوب ... هو حقا مفتون بها افتتانا ينم عنه وصفه لها وغزله فيها ولكنها ... لكنهـا هى لا تشاكيه الهوى ولا تصغى اليه مجرد اصغاء .. بله مجاذبة الحديث ومشاطرة الأسى حين البأساء ومضاعفة الفرح عند الظفر ...

ما أعظم الضوضاء يحدثها ... فـؤاد المستهـام
اذ راح يخفـق وحـده ... خفقـان أجنحة الحمـام
فى مثل ذا الصمت الرهيب ... ومثل ذا الليل الجهـام

يرى فى خفوق قلبه وحده ضوضاء تهوله ، وأرى فيه وحشة ترهق .
وقد قرأت له قصيدته (سلى الليل) (١) حتى بلغت قوله .

حيـاتى هل ثغر البنفسـج يفتر ... كعهدى وهل يجرى كعادته النهر
وهل يذكر الصفصاف اذ نحن عنده ... وفى اذن الظلماء من همسنا نقر

ففرحت له وحسبته بدأ ينسل بين منعطفات الطبيعة ليتصادق معها ، فاذا به يقف عند الخطوة الأولى لا يريم اذ أخذ فى موضـوع آخر وشرع **يقول :**

سقيت مرارات الحيـاة فلم أجـد ... كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر

ولست أنكر أن الشاعر يسنح له أحيانا الاتصـال بالطبيعة فى مواضع متفرقة من ديوانه ... بل انى أتلمس هـذه المواضع تلمسا لأهتف بها وأفرح بوثبة شعرنا العربى عامة نحو هدف كريم ، ولكنها مواضع معدودة وان حفل الديوان بوصف جمال الطبيعة ... وصف المشاهد الدقيق الملاحظة لا وصف المندمج فيها ، المتحد بها ... ليته **يكثر من مثل قوله :**

عـذرتك ياقلب من للهـوى ... أنتركه بعـدنا يـذبل
سكتنا فمـا غرد العنـدليب ... وتبنا فمـا صفق الجـدول (٢)

وقوله :

كلمـا غنيـت لحنـا ... فى ديـار البلبـل
سرق اللـحن وألقـا ... ه بـأذن الجـدول (٣)

---

(١) قصيدة سلى الليل ص ١١٨ .
(٢) قصيدة كفانى يا قلب ص ١٤٤ .
(٣) قصيدة آه ما أحلى الحميا ص ١٤٥

وقوله :

أنا طيــــف من خيـــالات الليـــالى
من صدى الوادى ومن همس الدوالى
كم على الصــحراء وشى من خيـــالى
وعلى البحر يتيماتى الغــــوالى (١)

وقوله :

أن يمر الغيم أسرابا عليهـــــا   يتخذ شكلا ليغرى ناظريهـــا
صــورا أو لعبــا تحــلو لديهــا   تارة يدنو وحينــا يعتلى
راقصــا بين ازرقاق الجــدول   والســــما الزرقــــاء (٢)

صورة غنية للغمام يبدو فيها الواقع فى سمة الخيال .. حقا ان من يخلو الى الغمام يتراءى لعينه صورا وأشكالا وهيئات لها نظائر عند رائيه فلم يقل الشاعر غريبا . ولعل أكبر ما لفتنى فى صورته ، تلك الشفافية التى ترقص الغمام (بين ازرقاق) الجدول ! .. انها عين شاعر تلك التى ترى الظلال بين انعكاسات اللون وتموجاته .. وقد تخطىء عيون الأشياء نفسها لا الظلال ، والجــدول بلونه ولحنه لا (ازرقاق) الماء فيــه ..

(أزرقاق) ! كلمة واحدة تجسم لعينى تدرج اللون بين الشفافية والعمق وهى فى تجسيمها التدرج اللونى تمثل لى أيضا الصفاء النقى الذى يتيح ويتسنى معه ملاحظة التدرج .

(ازرقاق الجدول) كما تطربنى هذه الكلمة بايحائها ورؤاها ..

والغمام يرقص بين ازرقاق الجدول .. ان عين الشاعر تخترق سطح الماء وتنفذ الى الصورة المتراقصة تحت السطح فى ثنيات اللون الأزرق .. الى الصورة الراقصة بين ازرقاق الجدول ..

وبعد هذا لا زالت نفسى ممتلئة من التعبير الشاعر والشاعر المعبر ، لازالت نفسى ممتلئة من رقص الغمام بين ازرقاق الجدول .

والشاعر أشد ما يكون احتفالا بالطبيعة فى أغانيه فهنا يجلوها جلوة عروس ويحثها على أن تعير الانسان غير قليل من اهتمامها وحبها ..

ففى أغنية (الصبا والجمال) يجلس عروس الأغنية على عرش

---

(١) قصيدة من رأى الشاعر تاب ص ١٤٨ ــ ١٤٩ .

(٢) قصيدة الجبل الملهم ص ١١٦ .

الحسن ويجعل السماء تسكب زرقتها اللازوردية فى عينيها ، والهزار يرسل أغاريده ترنيمات تسرى فى أذنيها ، والروض على عطره ورياه يثمل بسكرة كبرى عند مجرى العبير من نهديها ... والورد يجن من جمالها ، وتستبد به الغيرة فيقتل نفسه حسدا منهـا ويلقى دماه فى وجنتيها ، والأنسام تحدث الفراشات عنها حديثا يزهدهـا فى الزهر مختلفة ألوانه ويهفو الى شفتيها ... وهنا يحس الشاعر أنه أبدع من عروس الأغنية آلهة من آلهة الأغريق ، ويرضى أن وفر لها كل ما فى طاقة الحقيقة والخيال من الجمال (العبقرى السنا) .. **واذ يحس هذا لا يلبث أن يقول :**

رفعوا منـك للجمـال مثـالا	وانحنوا خشعا على قدميـك (١)

انها ملكة جمال منذ استهلت القصيدة ... ملكة ملك يديهـا تاجان ، الصبا والجمال ..

الصـبا والجمـال ملك يديك	أى تـاج أعز مـن تاجيـك
نصـب الحسن عرشـه فسـألنا	من تراهـا له فدل عليـك
فاسـكبى روحـك الحنون عليـه	كانسكاب السمـاء فى عينيـك
كلمـا نافس الصبا بجمـال	عبقرى السنا نمـاه اليـك
ما تغنى الهـزار الا ليـلقى	زفرات الغـرام فى أذنيـك
سكر الروض سـكرة صرعتـه	عند مجرى العبير من نهديك
قتل الورد نفسـه حسـدا منـ	ـك وألقى دمـاه فى وجنتيـك
والفراشـات ملت الزهر لمـا	حدثتهـا الأنسـام عن شفتيـك
رفعوا منـك للجمـال مثـالا	وانحنوا خشـعا على قدميك (٢)

حق لمن ترقرق لها هذه الأبيات والصفات أن يضل الهرم طريقه اليها لتدوم لها نعمة تاجيها .. الصبا والجمال ..

وفى أغنيته (يا ورد من يشـتريك) (٣) نجد الشاعر فى أسرة الطبيعة كأنها أحد أفرادها يحنو على الجميل الغضبان ، والعليل الأسوان ويتسمع شكاة الشاكى ، ويرقأ دمعة الباكى ، ويسائل ويناجى ويهون هم الشقى ، ويرمز من وراء هذا كله الى من يعنى ... الى التى تعبث خدودها المفداة فى مهجته ...

---

(١) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٢) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٣) أغنية (ياورد من يشتريك) ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

أن الشاعر ينحنى على الورد الأحمر ليقطفه ... كلا ... انه صديق يحنو عليه ليسائله :

يا ورد يا حمـــر قـــولى مـين دا اللى جرحـــك
جرح شفـــايفك وخـــلى عـلى شفـــايفك دمـــك

وهو اذ يقترب من الـورد الأصـفر يسكب عليه من روحـه وهو يقول له :

أصفـــر مـن السـقم أم من فرقة الأحبـــاب
ياورد هـون عليـــك ....

يا ورد ... يا صافى الود .. هون عليك ... فهل ترد للشاعر ولى هذا الرجاء ؟

هنا والحق يقال قد دنا الشاعر من الطبيعة خطوات .. كدت أقول (خطوتين) على طريقته فى ايثار المثنى .. وهل أعز على الطبيعة من يحنو على الورد يمسح دموعه ويضمد جراحه ؟

وبعد ، فان الشاعر بسلبيته وايجابه ازاء الطبيعة لو جاز هذا التعبير يقف منها موقف المشاهد فى المعرض الحافل ... المشاهد المتذوق الذى تعجبه هـذه اللوحـة أو تلك . فيحرص على اقتنائهـا ليزين بها بيته فحسب .. لا شك أن لمثل هذا المشاهد فضل الاختيار ، وفضل التذوق ، وفضل التقويم ... ولكنه بعد هذا ليس كالآخر الذى يرى العمل الفنى فيقف عنده طويلا ويتأمله طويلا ويعيش فيه حتى ليمر بالتجربة التى مر بها صاحب الأثر نفسه .

وهذا اللون من التذوق ، وهذا الطراز من الاعجاب يكون موقف صاحبه من الطبيعة موقف المتحد بها الذى يسمع أو يخيل اليه أنه يسمع الليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس . يسمع الزهر وهو ينبعث ، ويحنو كالشاعر كيتس على العصـفور وهو يلتقط الحب فيحس صـادقا أنه يلتقط معه ...

ولكن شاعرنا يبدو كالصانع الماهر الذى تتلألأ تحت عينيه حبات الماس فيلمسها فى رفق ويختار منها فى ذوق ، ويرصع بها قلائده بيد صناع ... وما باليسيرة ولا الهينة مهمة الذوق والتنسيق والترصيع ..

شعر الجمال والغزل

وبعد الطبيعة بمفاتنها ننتقل الى لون آخر من الجمال وقف عنده الشاعر وأبدى رأيه فيه ذلك هو جمال المرأة .. والشاعر يرى رأيا فى الجمال عند العرب وعند الافرنج ضمنه قصيدته (وصف فتاة) فجسمها (عند العرب) فى الشعر والخد والنهد ، وتمثلها عند الافرنج فى الهدوء والشاعرية والملائكية حتى ليتهيب أن يسمى الجسم فيها بأوصافه المادية فيتملاها من بعيد وقد :

رقدت ترشف الكرى مقلتاها	مثلما ترشف العطاش المياها
صاعدات أنفاسها هادئات	كصلاة الأطفال طهر شذاها
تخضل الحلم لؤلؤيا فتمليه	طهورا على الصبا شفتاها
وأزاح النسيم عن صدرها الثو	ب فلاحا • ولا تقل نهداها (١)

هنا مقام تصوف يغنى فيه الرمز عنده ، وينوب التلميح عن التصريح .

أحسب أن الفتاة العربية غيور من هذا التفضيل عليها . ولعلها عاتبة على الشاعر أشد العتب تلهيته لها ببضع صفات مادية حسية ان دلت على جمالها فهى لا تسجل لها فضلا فيه على كل حال • فالجميل وهب الجمال هبة ولم يكتسبه اكتسابا ينبىء عن فضل أو اقتدار .

وما هكذا جميل النفس ، جميل الروح ، جميل الصفات • فالجمال المعنوى لصاحبه دخل كبير فيه يوجب اكباره • ويستأهل التقدير حتى ليقف الشعر ازاءه متحرزا يتحفظ فى التعبير ولا ينطق فيه • فاذا تجرأ النسيم العابث وأزاح الثوب عن صدر جميلة النفس فذاك لا يعقل ومن

---

(١) قصيدة « وصف فتاة » ص ٣٥ .

ثم فهو غير مسئول • أما الشاعر المتذوق المقدر فقد أقصر الوصف عند فعل النسيم ثم لم يتجاوزه الى النتيجة ، بل حذرك أن تفعل أو (تقل نهداها) ..

لقد شاد بالعفة وافتخر بها بين نساء العرب ... ولا شك أن العفة قدس لا يرام بل نحن بما فينا من وراثات ، وما ينحدر في عروقنا من دماء — مجنونون بالعفة ندين بها ونفتديها • ولكنى مع هذا تواقة جد مشوقة الى من يصفنا نحن العربيات .. نحن الشرقيات بجمال النفس بمواهب العقل .. بمعجزات القلب .. باشراقات الروح .. أنا مشوقة متطلعة الى من يصفنا بهذه الصفات ... دون أن يقتصر على محاسن الجسم ... بل لا على الواصف أن يدعها .. مزايا الجسد هذه اذا سجل لنا كرائم الخلال والأعمال •

ولكنى أخشى أن يكون الشاعر ممن لا يرون في الجمال الشرقى الا محاسن جسمية .. فهناك غير قصيدة (وصف فتاة) قصيدته (هند وأمها) التى تشى بهذا رغم ما خلعه عليها من ألوان الروض والورد • ولكن (هند) أو أمها بعد هذا لا تزيد الواحدة منهما عن دمية تجذب بالألـوان والبريق ، ولكنها هيهـات أن تصـل الى مرتبة (فتـاة الافرنج) (١) التى :

تحلم الحـلم لؤلؤيا فتمـليه طهـورا على الصبا شـفتاها

ولى على قصيدة (هند وأمها) فضل آخر من تعليق .. فالقصيدة طريفة لولا أن رد الأم يشى بزهوها ، بجمالها ، حتى على ابنتهـا .. ومن طبع الأمومة أن تزكى جمال البنت وتقدمه على جمالها وجمال سائر الحسان ...

★★★

وللشاعر ألفاظ يصوغ منها شعره في وصف الجمال النسوى ... هذه الألفاظ بمثابة علبة ألوان عند رسام يفتحها كلما شاء التلوين ..

وكذلك يفعل الشاعر في علبة ألفاظه .. فالورد اللون الأحمر ، والثنايا اللون الأبيض ، والليل اللون الأسود ... وقل مثل هذا في الباقى .. لقد صاغ الشاعر قصيدة لطفلة في الخامسة — (ندى) (٢) •

نـداى من سلسل الخمـ ـر في الثنايا العـذاب

---

(١) قصيدة (وصف فتاة) ص ٣٥ •

(٢) قصيدة (ندى) ص ١٥٢ •

من صفف الشعر فوق الـ ـجبين سطر كتاب
رددت لى بعد يأسى حلم الهوى والشباب

من أنت ! !

الله الله لما عضت على العناب
وصفقت بيديها وغمغمت بالجواب
سل الرياحين عنى وسل حنين الرباب

ندى ، ندى بسمة الور د للندى فى الصباح
رضابها للحميا والخد للتفاح

وصف حسى حتى لبنت الخامسة ... الورد والعناب والتفاح .. بل الحميا والرضاب والثنايا العذاب والهوى والشباب .. كأنه يصف كاعبا فى العشرين . وكان الأخلق بالسوسنة الغضة أن يتحدث راثيها عن البراءة فيها والصفاء ، والطفولة الواعدة : ومرحها وعذوبتها وسيل أسئلتها ودميتها وألعابها ... وكم ... وكم فى الطفولة من معان ...

وهو يدين بالجمال الممنع المحمى .. شأن كل عربى .

اذا ما وردة عرضت لنذل كرهت الورد تقبيلا وشما
لشوكته أحب الورد حتى اذا يد سافل غمزته أدمى (١)

والذى يصف جمال المرأة هذا الوصف ولوع بها حفى . ومن يكون للمرأة غير شاعر الهوى والشباب .. وهو فى الحب يتفانى شأن كل أصيل فى الهوى من شعراء الغزل . ويبلغ به الايثار حدا يقول معه :

ولو أن النعيم كان جزائى فى جهادى والنار كانت جزاها
قلت يارب أى ذنب جنته أى ذنب لقد ظلمت صباها
أنت ذوبت فى محاجرها السحـ ـر ورصعت باللآلىء فاها
أنت عسلت ثغرها فقلوب الـ ـناس نحل أكمامها شفتاها
رحمة رب لست أسأل عدلا رب خذنى ان أخطأت بخطاها
ذع سليمى تكون حيث ترانى أو فدعنى أكون حيث أراها (٢)

وقد تغزل طويلا فى المرأة . وغزله روى من الدلالات ، نباه من العذوبة والرقة . وهو عميد ملقى السلاح ، لم لا والحبيب مغرى العينين . فلا غرو أن يكون الشاعر مقتلا مغلوبا على أمره :

---

(١) ص ١٠٢ .

(٢) قصيدة « بلغوها اذا أتيتم حماها » ص ٣٦ .

جفنه عـــلم الغزل ومن العــلم ما قــتل (١)

ليس الذنب ذنبه ، وانما جفنه علم الغزل !

وهو يسخر من العاذل وكأنه يعتذر اليه :

قل لمن لام في الهـــوى هكـــذا الحسن قــد أمر
ان عشقنا فعـــــذرنا ان في وجهنــا نــظر (٢)

ويرتفع حينا بالحب فيرى في الحبيبة فوق شخصها خيالات أمسه ، وذكريات صباه ، وأحلام نفسه ، وصفوه وانسه :

كيف أنســاك يا خيــالات أمسي ذكريات الصــبا وأحـــلام نفسي
كيف أنسى الأيام صفوا وأنســا كيــف أنسي ... ... (٣)

وهو رقيق حين التذكار ... تلمح عليه هذه الرقة حين يقول من قصيدته زاهرة الربى .

لي فيــك عنـــد المنحنى وعقيقه ذكرى تطــوف بالجفــون وتستقي

شاعر يترقرق كدمعه ...

وهو على حبه الحب وتفانيه فيه تعجبه الثورة من أجل الكرامة . **وهل غير الاعجاب والتأييد دفعه الى تعريب قصيدة (الى امرأة) عن الشاعر الفرنسي (لويس بويه) ومنها :**

مــاذا ؟ أحقــا كنت بي تهــزئين وكنت في حبــك لي تكــذبين
مهـــــــلا فمصباحك لم يأتلــق الا بمـــا من شعلتي تقبسين
هل كنت في أبهى ليالي الهــوى أيام كنت فتنــة النـــاظرين
هل كنت اذ ذاك ســـوى آلــة ألحانها مني ومنها الرنين (٤)

لقد درست أكثر من شــاعر من شــعراء الغزل فاذا هم باذلــون متفانون ، حتى اذا ثاروا أو بالأحرى استثيروا عرفوا أقدارهم ، وقدروا أفضالهم ، وغالوا بشعرهم ورأوا فيه خلاقا صناعا بعد أن قدموه قربانا ورفعوه صلاة الى عين الحبيب .

وفي شعره سهاد ، ولكنه نزر الكلام على ما يبدو ، فلم يحك لنا

(١ ، ٢) قصيدة (جفنه علم الغزل) ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٣) قصيدة « كيف أنسى » ص ٥٠ .
(٤) قصيدة « الى امرأة » ص ٧٥ .

مرة خيالات سهاده . ورؤى أحلامه فيه ... قصارى ما تسمع من شكاته قوله (١) :

أبــدا ســـاهر كئيب لا صـــديق ولا حبيـب
ومـع الليـــل لى نحيب كنحيب الحمامتيـــن

بعـد بـين

وفى قصيدته (اغضاضة يا روض) (٢) يقص حديثه القطيعة فيكون قصاراه أن يسرد ما دار من عتاب أو بعضه وكفى ، ولا يتدسس الى مطاوى النفس عنده وعندها ليتقرى كافة مشاعرها فى تلك اللحظة الرهيبة فى حياة المحبين ..

وفى قصيدته (خيال من دمر) (٣) ، يتذكر فيقرى السلام ، ويجدد العهد والميثاق ، ويناشد العيون الوفاء فى ايجاز ، ويروى طرفا من حديث خاطف دار بينهما ثم يصمت ...

أين أمانى اللقاء ؟ أين أحاديث النفس وأحلامها عند مرور موكب الذكريات ؟ أين وحى الطبيعة - وهو من المفتونين بها ... أين وحى الطبيعة بنسيمها وبلابلها وبدورها ونجومها وليلها وسحرها فى تلك الساعات الحساسة من العمر ؟ ... هذه بعض الأسئلة التى تحيك فى نفسك وأنت تقرأ ذكرياته .. أتراه يرسل الشعر على طريقة العصفور عندما يحسو ماء القطر فى اجتزاء سريع ؟ ... ربما .

وهو شاعر عاطفى تستهويه لغة القلب ويطربه حديثه .. ينم عن هـذا شعره واقتباساته .. فقـد اقتبس عن الفرنسـية قصـائده : (العيون) (٤) ، (أنا لو كنت يا سليمى) (٥) ، (قلب خافق) (٦) ، (الى امرأة) (٧) التى عربها حرفيا عن الشاعر الفرنسى (لويس بويه) كلها قصائد غزلية أو فى حكمها ..

ولكن شاعر الهوى والشباب له طابع خاص فى الغزل .. طابع يمثله هذا البيت :

المهـا أهدت اليهـا المقلتين والظبـا أهدت اليهـا العنقـا

---

(١) قصيدة « آه يا هند لو ترين » ص ٤٥ .
(٢) ص ١١٠ .
(٣) ص ١١٣ .
(٤) ص ٤١ .
(٥) ص ٥٥ .
(٦) ص ٦٤ .
(٧) ص ٧٥ .

أرى مادة غزله محدودة ·· العيون من المها ··· العنق من الظبا ·· والروض يتكفل بالباقي يضع في الصدر رمانتين ، وعلى الخد وردتين ، وعلى المبسم اقحوانه ، ويقد القد من خيزران ، وما على الليل الا الشعر ·· والفجر الا الثغر ··· وكأنه بين الشاعر وبين هؤلاء عقد مكتوب فقد صنعوا (هند وأمها) كما صنعوا له (مى) عذراء لبنان التي ذهبت الحرب الأولى بوالديها ضمن نصف سكان وطنها ···

ولعل هذا المضطرب الضيق في التعبير عن الجمال يرجع الى ميل الشاعر الخاص ، فهو يحب الجمال النسوى ولكن حبه له حسى كحب عمر ابن أبى ربيعة وهو شاعر أثير عنده ··· قلما يحدثنا بشارة عن لواعج الشوق وخيالات الأحلام ، وأمانى القلب ، واليأس والرجاء والفداء والوفاء وغيرها من المعانى التي تلون حياة المحبين وتخصبها ، ولو فعل لتعددت معانيه ، وتنوعت أوصافه ، وتفننت أساليبه وشف حديثه ··· ولكنه يبدو أن الجسم راقه الى حد غفل معه عن الروح ، عن النفس الانسانية وخوالجها ومكنوناتها ·

ولما كانت مقاييس الجمال في الجسم تكاد تكون محدودة على اختلافها فلم يجد الشاعر بدا من أن يدور تبعا لهذا في فلك ألفاظ وأوصاف معينة محدودة هي الأخرى ·· ألفاظ وأوصاف لا تتجاوز حدود الروض ··· حقا فيها من جماله اذ لا يصدر عن الروض الا جميل الطابع ··· ولكن الدنيا ··· دنيا النفس بل ودنيا المادة أيضا فيها من ألوان الجمال الأخرى ما يسبى ويفتن ···

ولكنه على تكرار أوصاف الجمال عنده يؤنسك ويمتعك فما تمل حديثه مهما تشابه ، من جمال الوشى ، ولطف الأداء ، وملامسة التعبير ·

القصة

ومن فنون شعره القصة .. وفي الحق أن الشاعر قصاص أصيل . وهو يستطيع أن ينقلك الى عالمه فتعيش مع أبطاله وتتألم لآلامهم ، وتشرق لفرحهم ، وتقيد خطاك بخطاهم ، تماما كما يفعل الكاتب الذي لا تقيده القوافي والأوزان . وهو على ايجازه في شعره الغنائي ، طويل النفس في القصة ، يفصل الحوادث والحوار ، ويترجم الانفعالات ، ويصور الأخلاق والناس ويتعمق أحاسيسهم ... لقد قرأت قصته (الريال المزيف) (١) مرات وشجيت بها وانفعلت بما فيها من مشاعر وصراع نفسي عنيف . ولا شك ان هذا التأثير قدرة تحسب للشاعر ...

وقصته لا تنقصها مقومات القصة الفنية من عوامل التشويق وخلق العقدة وحلها ... وأبطاله أشخاص عاديون نلمحهم في الحياة الجارية كل يوم .. وفي قصصه عنصر المفاجأة ، وفيها نقد ، وفيها صور ، وفيها استقصاء . وفيها بعد هذا تدفق في السياق يستلك الى عالمه ولا تدرى ...

سنرى مصداق هذه كله في قصة (الريال المزيف) التي استهلها بهذه الصورة :

ويح الفقير فما تراه يـــلاقي	سدت عليـــه منافذ الأرزاق
عصفت به وبسربه ريح الشقا	فتساقطوا كتساقـط الأوراق
فاذا بصرت به عجبت لشمعة	كالزعفران تجول في الأسواق
علق المجاعة مص بعض دمائـه	وتعسف الحـكام مص الباقي
أخذ الشقا يدها فسارت خلفه	والليل ممـــدود على الآفاق

(١) قصيدة الريال المزيف ص ٥٩ ــ ٦٣ .

سارت ، فماس الخيزران بقدها ... ورنت، فذاب السنحر فی الأحداق
وتلوح آثار النعيم بخـدها ... كالفجر قبل تكامـل الاشراق

ثم يكفهر وجهها فجأة :

أخذ الشقا يدها فان هي فكرت ... بمصيرها صعقت من الاشفاق

ثم تهاوت مما تلاقی :

ووهت عزيمتها فألقت نفسـها ... فوق الثرى وشكت الى الخلاق
تشكو بمدمعها وذل فؤادهـا ... وبما تحس به من الاحـراق

ماذا تراها تبغي ؟ ما قصتها ؟ انها تفضفض ..

يارب · قالت وهي جاثيـة له ... ان شئت حل من الحياة وثاقی
قد عشت عمری ما عرفت بريبة ... وعبدت بعـدك عفتي وخلاقی
والآن والأيام مـلأی بالأذی ... قد أصبحت وقرا على الأعنـاق
زوجی يحارب فی التخوم وطفلتی ... فوق الفراش تزيد فی ارهاقی
من أمها تبغی الغذاء لجسـمها ... من أمهـا تبغی الدواء الواقی
وطرقت أبواب الكرام فأوصدوا ... أبوابهم فرجعـت بالاخفـاق

أبواب الكرام .. ان الشاعر هنا ينتقد المجتمع .. يسخر منه ..

سام الفتى عرضى فيالك من فتى ... كاسى الغنى عار من الأخـلاق

ان الغنى شیء .. والأخلاق شیء آخر ..

ثم تبدأ العقدة بهذا الصراع :

أأصون عرضي؟ وابنتي؟ وحياتها ... وعلاجها يحتـاج للانفـاق
أنا أن أعف قتلتها فعـلام لا ... تحيا بمـاء تعففی المهـراق
لا .. لا تموت فانها لبريئـة ... حسناء ما شبت عن الأطواق
أنی مفـارقة ابنتی أو عفتی ... فعلی كلا الحالين مـر فراق
والذنب للأيام في حدثانهـا ... والذنب للأخلاق غـير رواقی

ويلها ! ما عساها فاعلة ؟؟

رباه حلمك فالمصائب جمـة ... وأنا بواحدة يضـيق نطاقی
لو شئت موتا لابنتی لأخذتها ... وجعلت طهری قدوة لرفاقی
لكن أردت بقاءها وأردت لی ... فقری · أتظمئنی وأنت الساقی
ستعيش بنتی وليكن ما شئته ... ستعيش .. لكن من لهی العشاق

لقد بكى قلبی ...

ثم حلت العقدة حلا داميا وانكفأت الشقية راجعة ..

رجعت وفي يدها الريال ورأسها — لحيائهــا متواصــل الاطـراق
وكأنها خطرت لها ابنتها ومـا — تلقاه من ألم الطــوى المقلاق
فأصابها مثل الجنون فتمتمت — بشراك أني عــدت بالترياق
هو ذا الريال فانه نعم الذي — يهب الشفاء لنا ونعم الراقى
هو ذا الريال وقد تألق ماحق — دجن الهموم وقد أردن محاقى
هو ذا الريال ولم يكن لولا ابنتى — ليســومنى نكرا على الاطـلاق

مسكينة ، انها تبرر وهى تتمزق شر ممزق !!

هو ذا الريال وقد تألق ماحق(١) — دجن الهموم وقد أردن محاقى

(وقد أردن محاقى) أليست كناية حنانة عن تهـديد المرض حياة ابنتها ؟

ومضت الى الطباخ تلجم ما بها — لفتاتها من لاعج الأشـــواق
قالت ـ وأدته الريال ـ ألا اعطى — بعض الغـذا واردد على الباقى

ان الريال المشئوء ثروة المسكينة ..

أسرع فانك ان تؤخرنى تذق — من جوعها بنتى أمر مــذاق

سحقا لهذا الجوع .. ما أقساه ..

نقف الريال بأصبعيه وجســـه — وانهال بالارعـــاد والابـــراق

(نقف) ان اللفظ يرسم حركة خاطفة عابسة ..

قبحا لوجهك .. سيدى أتسبنى — عفوا وتحسبنى من السراق ؟
لا . فالريال مزيف .. أمزيف ؟ — صاحت وقد سقطت من الارهاق

يالشقاوتها .. تسرق أغلى ما تملك ثم تتهم .. بالسرقة ! عقدة جديدة .

سقطت على قدم الشقا فبكت لها — عين العلا ومكارم الاخــــلاق
وبكى عفاف الآنســـات عفافها — خلل السجوف بمدمع مهراق

انسانية عاطفة مشاركة ..

يا طير عفتها فديتك طـائرا — هلا حذرت حبائل الفساق

---

(١) صواب اللفظ (ماحق) (ماحقا) « حال » فهل تدافع الشعور عند الشاعر جرف الألف فحسب الخطأ على الشاعر ؟ لست أدرى ...

ملام اسوان مشفق ··

ثم يحل الشاعر العقدة الجديدة حلا داميا أيضا ··

طلعت عليها الشمس وهى سجية ... وفتاتها ضيف على الأسواق
أما الأثيم فلا تزال شباكه ... منصوبة لنواعس الأحداق
يسقى الرحيق بأكؤس ولواحظ ... والله يكلأ « وهو نعم الواقى »

والله يكلأ ·· هنا غموض لعله مقصود ·· « والله يكلأ » هل يعاتب عدالة السماء ويستحثها أن تأخذ بخناق ذلك الآثم وتتقاضاه ثمن جريرته ؟

أم « الله يكلأ » الأعراض الغوالى ؟

على كل حال الشاعر مفطور ·· موزع القلب ·· مفتت الاعصاب··

هذه قصة اجتمعت لها كما أسلفت كل مقومات القصة الفنية · ولعل الأبيات التى سقتها للتمثيل تدل فى نفس الوقت على التدفق فى السياق ·· فمن أجل هذا الغرض سلسلت عددا منها فى مواضع الاستشهاد ··

وبه نزوع الى القصة يتنفس فى مثل استهلاله قصيدة « سلمى الكورانية » ··

أتدرى كيف كان ·· لقد صاغه على هذه الصورة أو صاغه فى هذه القصة :

تعجب الليل منها عندما برزت ... تسلسل النور فى عينيه عيناها
فظنها وهى عند الماء قائمة ... منارة ضمها الشاطى وفداها
وتمتمت نجمة فى أذن جارتها ... لما رأتها وجنت عند مرآها
أنظرن يا اخوتا هذى شقيقتنا ... فمن تراه على الغبراء القاها
أتلك من حدثت عنها عجائزنا ... وقلن أن مليك الجن يهواها
فاطلق المارد الجبار عاصفة ... تغزو النجوم فكانت من سباياها
قصت نجيمتنا الحسناء بدعتها ... عن (نجمة الشط)والآذان ترعاها
وكان بالقرب منها كوكب غزل ... يصغى ، فلما (رآها) سبح الله
وراح يقسم أن لا بات ليلته ... الا على شفتيها لاثما فاها (١)

ان الشاعر قد يصطنع التشبيه للتبيين أو التهويل فيسوقه قصة

---

(١) قصيدة « سلمى » الكورانية ص ١١٩ ·

في القصة كما فعل في قصة (عروة وعفراء) •• أراد الشاعر أن يهول نبأ زواج عفراء يسمع به عروة فكانت هذه القصة :

ما عامل في الحقل حمل يومه	ما ليس يحمل مثله الهرمان
يمشي لمنزله بنفس مغـــالب	مر الشقا بحلاوة الوجدان
يمحو بفكرته عبوسة دهـره	بتبسم في آله وحنـــــــان
يمشي وما هو ان دنا حتى رأى	في كوخه المحبوب سحب دخان
ورأى اشتعال النار في أخشابه	وبكا النسا وتهافت الشـبان
فأحس بالجلى فأسرع ليتـــــه	أودى ولم تسرع به القدمان
فاذا قرينته الحبيبة جثــــة	ويجنبهـــا ولداه يحتـــرقان
ما خطب هذا وهو أهول مارأت	عين وما ســـمعت به أذنان
بأشد من قول الرواة لعروة	عفراء أمســـت زوجة لفـلان

أليست هذه قصة بكل مقوماتها من تشويق ومفاجأة ووجود العقدة وحلها • وغير هذا من عناصر ؟

وشيء آخر ، ألا ترى معي أن النبض في شعره القصصي أزخر حياة منه في سائر شعره ؟ أترى السر في الموضوع الذي يمضي فيه وهـــو مسحر بجوه ؟ أم السر في تعاطف الانسان وتجاوبه مع ذي الالم حتى عبر الزمان الخالي والمكان ؟

ان الشاعر متمكن من القصة على كل حال •••

وله قدرة عجيبة في سلسلة الحوادث مهما تعقدت • وصياغة الحبكة الفنية وادارة الحوار وتوثيق العقدة وحلها •• اقرأ له (سلفين وجيروم) ثم أنصفه •••

والقصة عنده ملكة طبيعية فهو أشد ما يكون انطلاقا حين يقص نعم بعض ما ورد بالديوان من قصص انما هو قديم موجود لم يبتكر حوادثه بل صاغهـا شـعرا •• ولكن صياغة موضوع ما صياغة شعرية على هذا الطراز فضل يحسب لصاحبه بلا مراء •

المجتمع والوطن في شعره

ولم يغفل شعره المجتمع الذى يعيش فيه ، وكيف وهو ينبع منه ويصدر عنه – ولعل ما فيه من سبحات في الجمال وتأملات في الطبيعة ، مهرب – ولو الى حين – من الواقع المرير لفرط احساسه به ..

وهو كشاعر مرهف الحس أعمق تأثرا ببلايا المجتمع بل أنى أحس كربه وغصته وهو يعالجها حتى ليتجه الى الله فى ضراعة لهيفة فاقدة اللب يختلط عليها الأمر فترجو وتستكين وتتمنى وتعتب .. ضراعة محروب لا يتحرج أن يلوم غير ملام :

رب . قل للجوع يصبح شبعا　　وانقذ الطهر الذى قدسته
أو مر الفسق فيغدو ورعا　　ان يكن شرا فلم أوجدته
طبعته قدرة فانطبعا　　أي شيء أنت ما قدرته
ملك حطمت منه الجانحين　　فهوى من بعد ما قد حلقا
ما ترى يفعل مكتوف اليدين　　أترى يقدر أن لا يغرقا (١)

ليس هذا وصف شاعر .. انما هو حرقات قلب ملتهب ولو لم تمسسه نار ..

وهو يتهم الأغنياء بقصور النظر أيضا وسوء الطوية ويجابههم :

أيها الناس الألى خاطو الكفن　　لفقير كى يفوزوا بالثراء
هب ورثتم بعده الأرض فمن　　يصلح الأرض لكم يا أغنياء
فاذا طاح بذى الفقر الزمن　　فالغنى أن يشمل الناس عناء (٢)

(١) قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٨٨ – ٨٩ .
(٢) قصيدة « من مآسي الحرب » ص ٧٧ – ٧٩ .

سخرية ومرارة ونداء ملح بالاصلاح ..

وهو يرى فى المجتمع صورا بشعة تغثي نفس الكريم فيسخر من مرارته .

أيها الفقر وان كنت كما	زعم الزاعم قواد الزنى
لك ـ ولتهنأ ـ شقيق فوق ما	تتمنى ، انه حب الغنى
كم أب أمل منه مغنما	ورأى فى بنته نيل المنى
فرمى بالعرض عرض الحائطين	ومشى بابنته للملتقى
فهو من ذاك وذا صفر اليدين	شرف مات وعرض مزقا (١)

صورة بشعة .. ولكنها من صور المجتمع ..

وهو ينعى على المال خبله للعقول والضمائر :

قوتل المال فكم من رجل	مثل هذا قاد يوما واستقاد
رد عنه المال سيف العذل	ووقاه ألسن اللوم الحداد
ولكم من غادة لا تأتلى	تطرح الجسم على مهد الفساد (٢)

ان الرجل يتململ مما يرى حتى لقد أعدى تلظيه الكون :

وفؤاد الكون محموم كئيب (٣)	وفؤاد الكون محموم كئيب (٣)

وهو يحنو على الضحايا ويرسم لها صورا تستنهض الخامد . وتحرك ضمير الجامد .. صورا تبرز الشر رغبة فى القضاء عليه .

وقفت (مى) بباب الحاكم	كملاك الله مقصوص الجناح
وقفت عطشى كطير حائم	حول ماء يحسب الورد مباح
وتخطته برجلى صائم	أو برجلى ثمل من غير راح
وهى لو أن لديها كسرتين	لثنتها عزة عن ذا اللقا
انما يأس الفتى ليس بهين	لا يبالى يائس أن يخفقا (٤)

صورة شاحبة فيها صراع وفيها ظمأ موعود ..

وهو يسخر من المجتمع الذى يرفع العابثة ويخفض المتصونة المترفعة ، ويريق هذه السخرية فى خطابه (لمى) احدى ضحايا الحرب :

« مى » ما لسحر سوى ما رسمت	ريشة المبدع فى هذه العيون

(١ ، ٢ ، ٣) من قصيدة « من مآسى الحرب » ٧٧ ـ ٨٩ .

(٤) من قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٧٧ ـ ٧٩ .

لم تصادف مهجة الا رمت — وأصابت هكذا الفتك يكون
فهى لو رقت لمن قد تيمت — وأباحت ذلك الثغر المصون
لجرى التبر اليها واللجين — وكلا الاثنين يبغى السبقا
ومشت من زهوها فى موكبين — وحنا الرغد لديها العنقا (١)
هى بنت الفقر يا بنت الغنى — تؤثر الموت على العرض السخيف
فارتمت (مى) على مهد الضنى — وتراميت على مهد (منيف)

سخرية لاذعة بلا شك ..

فاذا ضرى الجوع وهدد العرض صرخ مروعا :

يا سما قولى لنا الانصاف أين — أتراه ضل عنا الطرقا (٢)

ويطرد حديثه عن المجتمع سلسلة من القصص .. تبدأ بحياة الفضيلة على لظى الحرمان حتى اذا احترقت أو كادت التمست الضماد عن علم أو جهل أو تغرير عند تجار الأعراض أو دعاة الخنا . فتزهق منها روح كانت ذماء فى كيان مجروح .. وتمضى ملوثة بعد أن تترك الوغد يصعق البائسات منه فحيح ..

* * *

من الناعب قبل الفجـ — ـر من هذا على الباب
أعيذ القبح من قبح — بأظفار وأنياب
أقبل الشمس فى الآفا — ق والعصفور فى الغاب؟
وما زار الكرى جفنى — ولم تعلقه أهدابى
ولا غذيت أطفالى — سوى همى وأوصابى
فراشى يا وقاك الله — منه بعض أعشاب
وهذى كوبتى الفخا — ر ما فيها سوى صاب
فما تبغيه فى بابى — ومن أنت أنا الجابى (٣)

أتحسب هذه الأبيات من شعر المهجر ؟ .كلا .. انى لازلت أحدثك عن الشاعر بشارة الخورى وعن شعره الاجتماعى . وهذه الكلمات المتوقدة التى تمور بعض قصيدته (الجابى) .. قصيدة (الجابى) التى أرسلها عندما أطلقت وزارة المالية جباتها فى القرى اللبنانية يمعنون فى الأهلين ارهاقا لتحصيل بقايا الأموال الأميرية خلال أزمة مضنية . فأوحى ذلك الارهاق بهذه القصيدة .. الجابى .. ولكنها بحرارتها وتلهبها وتسعرها

(١ ، ٢) من قصيدة « من مآسى الحرب » ٧٧ ـ ٧٩ .
(٣) قصيدة (الجابى) . ص ١٨٠ .

وروحها تذكرني باخوان لنا كرام في المهجر وخاصة الجزء الأول منها الذى اضعه الآن بين يديك .. هذا الجزء يطفح بالمرارة والسخرية اللاذعة المنتقمة التي مسخت ذلك الجابي وشوهت خلقه حتى غدا بوما ينعب ووحشا يطل منه ظفر ويبرز ناب ، ونذيرا بالسوء يسوء وقوفه بالباب فيرد آنا ، ويسأل في استنكار من هو ، مع دلالة شكله عليه ..

أعيذ القبح من قبح بأظفار وأنياب

حتى القبح يعيذه منه ؟ ... اذن ما أقبح شكل هذا الجابي ..

أقبل الشمس في الآفا ق والعصفور في الغاب

تبا له وسحقا ما أفظعه ... أعفريت بليل ؟ أم شيخ سار ؟

وما زار الكرى جفني ولم تعلقه أهدابي

ويله ! أين قلبه ؟ ألا ذماء من مروءة ..

ولا غذيت أطفالي سوى همي وأوصابي
فراشي يا وقاك اللـ ـه منه بعض أعشاب
وهذي كوبتي الفخا ر ما فيها سوى صاب

لهم الله أولئك الصبية .. لا كان العوز ولا كان الجابي ..

لمن ينساق هذا الما ل قولي يا سما قولي
أأيلول على الأبوا ب لا عشنا لأيلول (١)
يباع الخبز في بيتي لتزمير وتطبيل
ولا يرثى أولو الأمر لأشباح مهازيل
فما في الغاب من ناب فزمجر أيها الجابي

لا تلمه ان ضج أو سخط أو حار في حكمة القدر فقد سئم الحياة ونمنى الموت .. وكيف لا يفعل من تنتزع اللقمة من فمه ، وتملأ الكئوس من دمه ؟ ولكن لولا من يقبل الجور ما وجد من يجور .

فما في الغاب من ناب فزمجر أيها الجابي

حق له أن يستنفر ...

***

وما يزكو الاحساس بالمجتمع الى هذا الحد الا ووراءه وطنية ذكية حساسة هادفة . ونحن ما نكاد نصافحه في مقدمة الديوان حتى يفضي الينا كصديق بموقفه من الدولة العربية وما اعتصره من أجلها من شعره .. ذلك الشعر الذى لم يبق له منه كما يقول الا كبقية الوشم في ظاهر اليد .

---

(١) أول ايلول عيد اعلان لبنان الكبير ...

ومن القليل الذى استشهد به تتراءى لك ثورته المتأججة وحماسته المتسعرة ، وتستطيع أن تلمس مرارته فى هذه النفثات :

الجسم نسبانك الجسم	فالمسوت للمتبكلم
لا يسألونك ان أخذ	ت أثمت أم لم تأثم
فالخبل شر مرحب	والعنق خير مسلم
والسجن أكرم صاحب	والنفس أيسر مغنم

ولست أرى الشعر القومى فى القصائد السياسية فحسب ، فان لبنان – كما يقول الأستاذ عادل الغضبان وهو يقدم ديوان الشاعر – (لم يرزأ فى جهاده الطويل بالاحداث السياسية فقط ، بل نكبه الدهر بكثير من الاحداث الاجتماعية) .. وتلك عندى علة العروبة فى أوطانها جميعا .. أدواؤنا متعددة وهى فى تعددها متشعبة .. والوطنى الذكى الحس والفؤاد يشعر بأدق الاهتزازات فى وطنه أيا كان مصدرها وأيا كان نوعها .. وليس كالفن تأثرا بما يجرى حوله ، وليس كالفنان مسجلا لما تطالعه به الدنيا من أحداث .. وهو أشد ما يكون استجابة للدانى القريب منها المنتمى الى قلبه بوشيجة الوطنية ، الموصول به برباط الانسانية الخيرة ، المنتسب اليه بمعنى من تلك المعانى التى تمثل كرائم الانسان .

فلا غرو أن يتصل الشعر القومى بالشعر الاجتماعى ماداما يستقيان من نبع واحد من منابع الاحساس ..

كان الشاعر بشارة الخورى يرى كشاعرنا شوقى أن الدنيا انما تؤخذ غلابا .. فعندما تقدم بعض اللبنانيين سنة ١٩١٤ الى الدولة العثمانية بما سموه مطالب الاصلاح شهر الشاعر فى وجوههم هذه الأبيات :

متى أراكم تسكرو	ن كسرة للأمام
وتلبسون الى الحـ	ـق خوذة الاقدام
وتدرسون على المجد	كره الاسترحام (١)

ويثوده حمل وطنه من الاستعباد فيجار :

لبنان ما لفراخ النسر جائعة	والأرض أرضك أعلاها وأدناها
أللغريب اختيال فى مسارحها	وللقريب انزواء فى زواياها (٢)

---

(١) قصيدة « فدى لبنان نفسى » ص ٥٣ .

(٢) قصيدة « سلمى » ص ١٢٢ .

وهى شكوى كل عربى زفرها بشارة فى بيتيه هذين وضمنها شوقى من سينيته هذا البيت :

أحـــرام عـــلى بلابله الدو ح حلال للطـــير من كل جنس؟

ورقته التى لمسناها لا تعارض حماسته ولا تحجبها · ولهذا تجـد الشاعر الرقيق ·· شاعر الهوى والشباب اذ تثور فلسطين ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ يهتف :

يا جهادا صفق المجـــد له لبس الغار عليه الأرجوانا (١)
يثرب والقدس منـــذ احتلما كعبتانا وهوى العرب هوانا
شرف للمـوت أن نطعمـــه أنفســـا جبـارة تأبى الهوانا
وردة من دمنـــا فى يـده لو أتى النار بها حالت جنـــانا
غذت الأحداث منـا أنفســـا لم يزدهـا العنف الا عنفوانا

ولو أنه يغلب عليه الغناء أحيانا حين يتحمس فيعلق بهتاف الحماسة بعض ألفاظه كقوله من قصيدة عيد الجهاد (٢) :

لن نراها ان لم نمت فى **هواها** أمة حرة ودنيـــا جـــديدة

أليس (فى هواها) من ألفاظ الغزل التقليدية لو جـــاز هـــذا التعبير ؟ ·· عندى أن بيته الحماسى يقتضى فى موضع (فى هواها) ·· « فدى لها » مثلا ·

وفى مجال الحماسة نذكر للشاعر هذه الأبيات :

لبنان يا وله البيـــان أذاكر أم لست تذكر نجدتى وكفاحى
قبلت باسمك كل جرح سائل وركزت بندك عاليا فى الساح
أنا ان نجحت فليس ذاك بضائرى وعلى الخـواطر غدوتى ورواحى
تتحجب الأرواح وهى خـــوالد وترى العيون زوائل الأشباح
ولربما خدعتك صفحة هادىء منى وفى الاحشاء عصف رياح
انى اذا جنت رياح سفينتى ذهب الجنون بحكمة المـــلاح (٣)

ولاشك أن هوى الشاعر مع العرب أجمعين ولكن شعره الحماسى كان للشام ، فى حين عزف شوقى لكل بلد عربى على قيثاره لحنا مفردا

---

(١) قصيدة (يا جهادا صفق المجد له) ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ·
(٢) قصيدة (عيد الجهاد) ص ١٦٢ ·
(٣) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ص ١٥٦ ·

عبر ألحانه التي تجمع بينها جمع الأم أبرار البنين ... وهذه الاشارة مني لمحة من عتاب الصديق للصديق ، لا منة مزهو ، ولا زهو منان ..

وما تستعلن وطنيته في شعره كمثل قوله :

برب الارز حـــدثني أحقا قولهم حقا (١)

برب الأرز .. ألا تروقك منه كلبناني هذه النسبة ؟ هذه الاضافة ؟ ان بدائع الله في السماء والأرض لا يحلو منها في عين الشاعر غير الارز، ولا يسمو الى مقام الاضافة الى الله غير الشجر الحبيب ... انى أشيم عنا وطنية وصوفية واعزازا وولاء ..

وهو على عبادته لوطنه يشكوه احيانا :

مت اذا شئت أن تكون أديبا أو فبـــدل بغير لبنـان دارا (٢)

ولكنها شكوى الولى المخلص الذى تفانى وقدر لنفسه موضعا يكافىء ولاءه فأخطأه التقدير .. وهي بعد هذا شكوى موقوتة ما أسرع ما تنداح اذا مسح الوطن عارض ، فاذا الشـــاكى أول من يتفزع ويدمى .. **أنا أعرف هذا عن تجربة فقبل بشارة الخورى شكا مصر شاعرنا حافظ ابراهيم صاحب البيت :**

ما أنت يا مصر بدار الأديب وما أنت بالبــلد الطيـــب

وحافظ نفسه هو الذى استطاره الحزن والحب فى دنشواى وغير دنشواى مما كابدت مصر .. وحافظ نفسه هو الذى قال :

لا مصر تنصفني ولا أنا عن مودتهـــا أريم
واذا تحـــول بائس عن ربعهـــا فأنا المقيم

هل صح عندك ما أقول ؟ .. ان السيد بشارة الخـورى يؤيدنى بهذا البيت :

ويمطر الضيم فى أرضى وأشربه وكنتلا أرتضى أن أشرب السحبا

على أن الشكوى فى مقام الأوطان كشكوى الابن المـدلل فى حضرة أبر الآباء وأحنى الأمهات فهو يشكو من فرط حبه ، ويشكو من عظم مـا كان ينتظره ، ثم هو يعلم علم اليقين أن الذى يشكوه هو الروح التى لا يتصل بدونها له حياة ... حياة كريمة رحيمة فينانة لا حياة الأيام والسنين .

---

(١) قصيدة (الجابى) ١٨١ .

(٢) قصيدة (حكمة الدهر أن تعيش سكارى) ص ١٧٧ .

أسلوب الشاعر في ديوانه

ويجدر بحديث يجرى عن بشارة الخورى أن يقف مليا عند أسلوبه، وهو من أصحاب اللوازم .. ومن لازماته الظاهرة شيوع المثنى :

ما حــرام أن أرى هــذا الغصــين
ذاويا من بعــد ما قــد أورقا (١)
وهو لو شــاء لأجــرى نبعتــين
من ينــابيع الأمــاني واســتقى
ونــدى الحــاكم يزرى المزنتــين
فمتى تســتمطريه اغــدقا

لماذا (نبعتين) و (مزنتين) وليست نبعــة أو ينابيع ، ومزنة أو مزن .. انه الولع بالمثنى ..

لمن القصــر بدت فيــه الشموس
فعلى وجه الدجى منــه نهــار
يسبح النذل بــه فى لجتين
ويقــاسى الحر منــه الحرقــا (٢)

وما دام نذلا فهو يسبح فى لجج لا لجتين فقط ..

وقد لاحظ بعض كبار كتابنا تشبثه بالمثنى فى التعبير .. والملاحظة صادقة فى جملتها وتفصيلها .. اقرأ له قصيدة (آه يا هند لو ترين) :

آه يا هنــد لو تــرين موقــفى بين حــائطين

(١ ، ٢) من قصيدة « من مآسى الحرب » ٨٥ ـ ٨٧

لا يحسبيران أخرسين وعلى الخد دمعتين

لو ترين

يا لأحلامى العذاب ذابلات مع الشباب
فكأن المنى ضباب يتلاشى بنفختين

اثنتين

ألا ترى معى أن لفظة (دمعتين) موضوعة لاحكام القافية ‥ والا فالدموع لا تعرف التحديد ان جاز أن يحدد النفخ بنفختين اثنتين ٠

وهو يمدح فيذكرنى بالبحترى وأبى تمام وأضرابهما من شعراء المديح ‥ يذكرنى بشعراء العباسيين ونزعتهم فى تعظيم الممدوح ٠ وصورهم فى هذا الميدان التى تبسخر النجوم والشمس والقمر ‥ ويذكرنى أيضا بالصفات العربية التقليدية للسادة ‥ فحين أراد الشاعر أن يرفع تحيته الى الأمير العربى عبد الله الفيصل آل سعود حشد له سيادة السيف والقلم والعزم والمكارم والفخار والقصاد الوقوف بالباب ‥ غير أنى لا أقر الشاعر على (عتبة من جباه (١)) وأحسب أن الأمير الأبى يحب الاباء للآخرين ‥ ولكنه اندفاع المدح وجموح العاطفة الشرقية التى تورط الشعراء فيقولون مالا يفعلون ‥

وعلى أناقته الحضرية يحن الى سمات البادية فى المديح من شعره حتى الندامى بعد وصفه الحضرى للخمر وبساطها يصفهم كما وصف حسان الأنصار بأنهم شم الأنوف صباح ٠

أهل الندى والبأس ان تنزل بهم
تنزل على عرب هناك فصاح
الشام منبتهم وكم من كوكب
هاد وكم من بلبل صداح
وطن أعار الخلد بعض فتونه
وسقى المكارم فضيلة الأقداح (٢)

---

(١) جاء هذا الوصف فى قصيدة (تحية الشعر) ص ٣٢ والأبيات

سيد السيف واليراع فلا العز م بناب ولا البيان بواه
جده جده الذى شيد الملـ ـك على مفرق النجوم الزواهى
قبة من مكارم وجدار من فخار وعتبة من جباه
أنت للذروة المشعة منه فى الروائين من شباب

(٢) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ١٥٩ ٠

والبيت الأخير فخر (شعرى) لو صح هذا التعبير فلا يعتمد على وقائع من التاريخ أو سند من ضروب المجد ، على غنى الشام بالمسطور من تاريخه وأمجاده .

ومن حلى الأسلوب عنده التقسيم أو التنغيم كما أراه كقوله :

في مثل ليلات الوليد نقول للكاسات فيضى
بين الكواعب من حباب والنواهد من بغيض
فاذا نظرن فعن مريض واذا بسمن فعن وميض (١)

وهو يقابل .. ومن مقابلاته اللطيفة ...

انها الحرب .. ولم تترك على سطحها الا جسوما باليه
ونفوسا حوما حول البلى تتمشى في صدور خاويه
تشتكي الجوع وتقرى العلا عجبا منها جياعا قاريه (٢)

ويجانس فيخاطب ملك الأرض .. ملك الأيك .. البلبل الصداح وكأنه يلاطفه :

صفق كما شئت بهذا الجناح فلا جناح
وشم خد الزهرات الصباح فهو مباح (٣)

وعنده التفات .. ففى قصيدة (صداح) خاطب البلبل طويلا .. ثم التفت فى نهاية المطاف الى الحبيب قائلا :

وبعد فافعل ما تشا في فتاك فشفتاك
حسبى فماذا تبتغى مقلتاك (٤)

وله خيال مفوف :

يا جنة الدنيا وسيدة الربى
هذا رسول الشعر جاءك زائرا
ان شئت شق من الرياض صحائفا
حتى تكون لمعصميك أساورا (٥)

---

(١) قصيدة (حلم عربى) ص ١٠١ .
(٢) ص ٨١ .
(٣) ص ٤٠ .
(٤) ص ٤٠ .
(٥) ص ١١٤ .

ومن طرائفه في التعبير تشبيه سلسلة الحديث ومتسلسله بالدمع يفجر بعضه بعضا :

وله حديث كالدموع اذا جرت
جذبت نظائرها من الأجفان (١)

وأسلوبه حيي الصوت فهو يهمس غالبا :

همست نجمة بأذن أخيها همس ثغر الندى بمسمع ورد

وألفاظه ممتلئة موحية :

أنا ساهر وجبال لبنان عليها الصمت حام
خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام (٢)

ما أغناها مواهب الجلال .. أليس كذلك ؟

وان كنت تقع له أحيانا على ألفاظ غريبة كقوله :

والغصن والأوراق آذان له ماذا ترى فيها النسيم يتبتب (٣)

وقوله :

أى رجا رقى لذين الطائرين قد رأيناك نشرت **الدبقا** (٤)

وقوله :

وكأنها خطرت لها ابنتها وما تلقاه من ألم الطوى **المقلاق**

وألفاظه صريحة تنم عنه ولا تدعك الى الحدس والتخمين .. وما حاجتك اليه وأنت تقابل في ديوانه مثل هذه الألفاظ :

رهبة ، ناسك ، مبخرة ، هامة مطرق ، شمعة ... (٥)

---

(١) ص ٦٨ . (٢) ص ٦٤ .

(٣) ص ٤٩ . (٤) ص ٨٥ .

(٥) الألفاظ من هذه الأبيات التى انتظمتها قصيدة « زاهرة الربى » :

صلى لك الوادى برهبة ناسك وضباب مبخرة وهامة مطرق
وأبو الربى صنين قام كشمعه بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقد النجم السنى برأسها فترى بوادى دمعها المترقرق

القصيدة ص ١٢٦

انه شاعر مسيحي وتلك انطباعات المسيحية فيه المسيحية القريبة الينا نحن أهل الاسلام ، والمسيحيون أقرب الناس مودة لنا ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وشعراء ٠

والشاعر من طبعه الايجاز ، وهو يوجز أحيانا حتى لتحسب معانيه وأمانيه رؤوس موضوعات تشير ولا تحيط ٠

وأسلوبه بعد هذا أسلوب تصويري يطربك في السرور كأن انشاده غناء ، ويشجيك في الحزن فرط أسى ٠ ومن صوره هذه الصورة التي صور فيها يائسا من الحياة مهددا بالحرمان فهو نهم يسوده ألا تغرب الشمس عن يومه ليعيشه أعواما طوالا ٠٠

لا ، لا أنام ولا أذوق كـــرى ... ان النهار مضى ولم يعـــد
لا ، لا أنام ولا أذوق كـــرى ... أنا لست من يحيا لفجر غد
سلمى أحس النـــار سائلة ... بدمي وتجرى معه في جسدي
وأحس قلبي فاغرا فمـــه ... للحب ، للذات ، للرغد (١)

وأسلوبه أملس تغلب عليه ألفاظ معينة تكاد تكون لازمة لصاحبها تذكر في عداد اللوازم ٠ فالورد والروض والعطر (وأفعاله) والضحى والدجى والنجوم والجدول وما يشاكلها من ألفاظ أسرة الطبيعـــة ٠٠ فمن هذه الألفاظ صاغ أناشيد غزله ، ومن هذه الألفاظ وصف مشاهداته، ومن هذه الألفاظ أرسل أغنياته ٠٠ ومن هذه الألفاظ بعينها نظم دموعه على أحبابه الذين راحو لغير اياب ٠٠ فالجزء الأخير من ديوانه يتضمن أربع قصائد ذرفها على هؤلاء لا تخلو واحدة منها من ألفاظه التقليديـة التي أشرت اليها ٠٠

فمن قصيدة (الشباب الذاوي) :

أيـــلام الورد الجنى اذا جـــف ... رحيق الجمـــال في وجناتـــه
واذا كان عمره بعض يـــوم ... وتمشى الذبول في ورقـــاته
غاية الورد أن يضمخ هـــذا ... الجـــو بالمستحب من نفحاتـــه
ما عليـــه ان جـــاز غايتـــه القصـــوى ... وعـــد الزمـــان من سبـــاعاته
أفذنب الهـــزار أن هـــنامت ... الأقفـــاص بالساحرات من آياتـــه
توقظ الروض من كراه وتجـــتلو ... بسنـــمات الضحى على أزهراته
غاية الطـــائر المغرد من دنيـــاه ... أنشـــودة عـــلى هضباته

---

(١) ص ١٦٩ ــ ١٧٠ ٠

ما عليه اذا تعجل فى الشد و وروى الخلود من نغماته

ومن قصيدته « شاعر يترك الخيال كسيحا » .

أيها الجدول الوديع الذى ينشر سر الحياة فى جريانه
أيها المدمع الحنون الذى لو لاه ما افتر مبسم عن جمانه
أيها المنشد الكئيب الذى تسمر زهر الدجى على تحنانه
أمن العدل أن تعفر فى التر ب ويزهو ورد على أغصانه
أمن العدل أن تنوح على العشب ويشدو طير على أوكانه
هكذا الشاعر الشقى ، يغنى فيغذى الافراح من أحزانه

وجبران خليل جبران عنده :

ذلك الجدول الذى يملأ الوا دى اخضرارا والضفتين ازدهارا
تستحم النفوس فيه فلا تب رح الا جوانحا أطهارا
وتود النجوم لو سمر الليل فظلت لشجوه سمارا

ومن القصيدة الرابعة وهي دمعة على الغريدة اسمهان :

يا منهل الفن قد غاضت منابعه ماذا فعلت بقلب المدنف الصادى
تلك الأصائل من ورد ومن حبب وأنت فى صدرها ريحانة النادى
هل الغناء اذا جرحت آهته سوى عصارة أكباد لأكباد
كأنه موجة بيضاء ناعمة يمشى الشراع بها فى بحره الهادى
تأوى الأغاريد منه حين ترسله الى وريف ندى الظل ممداد
وينثر الروض سكرانا براعمه كالسنن الطير شقت نصف منقاد(١)

ان ألفاظه كثياب بعض طوائف الشيعة لا تحلولك فى الحزن ولكنها ترمز اليه وتعبر عنه بالغلائل البيض ..

وبعد ، فان السيد بشاره الخورى شاعر لا يعوزه الحس اللفظى ، والخيال الشعرى ، والروح الشفافة التى تشيع الشاعرية فى جوه ، وتمد الظل من شعره فتهدأ عنده وتستريح ... ولعل هذه الراحة وذلك الفىء بنعيمه وسلامه ونداه هو الذى يحدونا أن نتمنى له المزيد من الطاقة الشعرية ، وهو فى الحقيقة دعاء لنا بالمزيد من فنه الشعرى الطروب ...

---

(١) ص ١٧٨ .

وفي الديوان غير هذا كله لمحات تكشف عن نفسه وتومىء الى شخصه ·

فقد لخص الشاعر تاريخه في هذه الأبيات ··· في الحب والخمر كابن مخزوم :

فتن الجمال وثورة الأقداح صبغت أساطير الهوى بجراحي
ولد الهوى والخمر ليلة مولدي وسيحملان معي على ألواحي
قد عشت بينهما على نغم الصبا كفراشة علقت ثدى أقاح
أشتف روحهما وأعطى مثلها روحا وأسلم ليلتى لصباحي
روح كما انحطم الغدير على الصفا شعبا مشعبة الى أرواح
للحب أكثرها وبعض كثيرها لرقى الجمال وبعضها للراح (١)

وهو يدعو الى المتعة وانتهاب اللذات واهتبال الفرص :

فانهب العيش لا أبالك نهبا واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح حط في الدوح لحظة ثم طارا (٢)

ويطوف بالشاعر أحيانا سانح من يأس فيتمتم ·

الهوى والشباب والأمل المنشود توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود ضاعت جميعها من يديا (٣)

(١) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ٥٤ ·
(٢) قصيدة« حكمة الدهر ان نعيش سكارى » ص ١٧٥ ·
(٣) قصيدة (الهوى والشباب) ص ٣٣ ·

هذا يومه .. أما غده فهو بالطبع على غير يقين منه فى هذا الجو النفسى .

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى لغد فى قرارة الكأس شيا
لم يكن لى غد فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيا

حتى الحب لم يعد يشتهيه .. بل لعله ضاق به فى هذه الساعة العصيبة التى مرت به ... ألم يقل :

أيها الخافق المعذب ياقلبى نزحت الدموع من مقلتيا
أفحتم على ارسال دمعى كلما لاح بارق فى محيا

لسنا نحن الذين حتمنا هذا يا شاعر الهوى والشباب ... ولكن الجانى هو ذلك الخافق الذى أنضب الدموع من مقلتيك والذى لا يدعك تقول ...

أنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيا

حتى يدفعك دفعا نحو الحبيب بمهماز مسحور ثم يستحثك أن تناجيه :

اسقنى من لماك أشهى من الخمـ ـر ونم ساعة على راحتيا
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب نغمات الحنان فى أذنيا

ان الشاعر رقيق حنان ..

ولكن هذه كلها عوارض من اليأس لا بد أن تعترى النفس الانسانية، كل نفس . فاليأس حالة من حالاتها الكثيرة .. ولكن الشاعر فى ديوانه بعامة بادى الطموح ، كبير الأمل ، متجدد الحياة ، وليس أبغض لديه من أن تلمح له بالمشيب يوشع فوديه فانه لا يلبث أن ينهاك :

دعنى وما زرع الزمان بمفرقى ما كنت أدفن فى الثلوج صداحى
من كان من دنياه ينفض راحه فأنا على دنياى أقبض راحى (١)

انه يحب الحياة رغم ما كابد فيها .. نعم كابد فيها .. بهذا يحدثنا بيته :

سقيت مرارات الحياة فلم أجد كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر (٢)

(١) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ١٥٤ .
(٢) قصيدة (آه ما أحلى الحياة) ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

غير أنه صفوح ... وفي بناء الفعل للمجهول دلالة واسعة فهو لا يريد أن يعين غريمه لما في هذا التعيين من معنى التشكي وهو زاهد فيه ، مترفع عنه ، غير مؤمن به ، ولعل الزهد والترفع يرجعان الى عمق احساسه بما لاقى . فهو لا يريد ذكره الا لمحا حتى لا ينكأ اجترار الحديث الجرح من جديد .

وفي الشاعر سماحة تبدو لك في قوله :

خلـــق الله فــــؤادي من شبعـــاع ودمـــبوع
قبسا في وجـه طــــه ذاب في جفني يســوع (١)

وهو يصور بذل الفنان وتضحيته في بيتيه :

ليس مايشجيـــك مني نغمـــات في فمــي
انهـــا والهـــف نفسي قطـــرات من دمـــي

وهكذا كل فنان صادق يا صديقنا الشاعر .

وهو يغني لنفسه في جل أشعاره ويصدر عنها . فاذا أرادوه على خطة أخرى لم يتجاوب معها ونم على فعلتهم شعره .

مـــلأوا كأسي خمـــرا ليس من خمـري ودني
ونقوا عـــودي فغني وفــؤادي لم يغـــن
أكمـا شـــاءوا غنـــائي وكما شـــاءوا نـواحي
أفليس اللهـــو لهـوى والجراحات ... جراحي (٢)

مرارة وسخرية وتهانف أيضا .. أليس كذلك

ويمدح زحلة فتتمثل له القيم التي تكنها نفسه ويجلها رأيه فلا يلبث أن يقول :

هل تنبتين سوى النساء خوافــرا أو تطلعين سوى الرجال مفاخـــرا
أن رق شعر كنت بيت قصيـــده أوزاق وجه كنت فية الناظرا (٣)

هي هي قيم العربي التي تتمثل له غاية السعادة في عفـة النساء وخفرهن ، وتلخص محامد الرجال في الضيف والقلم والكرم ... وهي قيم ترجح بها عند الحساب كفة الميزان .. وما يماري في هذا انسان .

---

(١) قصيدة (سلى الليل) ص ١١٨ .
(٢) قصيدة « آه ما أحلى الحميا » ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .
(٣) قصيدة « زحله » ص ١١٤ .

لولا أن هناك قيما أخرى تضاف اليها ولا تحجبها .. قيما للنبيياء وللرجال على السواء .

وهو من سلام الفن يحب السلام ، وتقزه الحرب حتى ليعتب على السماء أن تقع الحرب على الأرض ولو أرادت لبطل وقوعها وانتفت دواعيها .

رب . لو شئت لما سالت دما   أمرك الأمر فمن ذا ينكر
ولما يتيم من قد يتما   ولما استل السلاح العسكر(١)

واذ يجد نفسه فى مأزق ، لا يجد الخلاص منه الا بتحميل الانسان تبعة أعماله .

رب . ان نحن بلغنا الهرما   أو يكن حان الذى ينتظر
من ولا كفران ذين الكوكبين   يخرقا الناموس أو يحترقا
واسترح منا فنغدو بعد عين   أثر لابد أن ينمحقا(٢)

لا تصدق أن الشاعر يئس من الانسانية ولكنه حائر لهفان على مصيرها وحالها .. حتى ليطلب لها الفناء من خالقها لا عن قلى فى الحقيقة ولكن فرط اشفاق اذ ضاق ذرعا بالحروب ومآسيها .. كما ضاق ذرعا بأطماع الانسان ونوازع الشر فيه .. انه يتمنى على الله أن ارفع من قيم الانسان .. و .. وأعد خلقه .

واخلق الانسان خلقا راقيا   واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الها ثانيا   واسجن المال ولا تبق الرياء
وليكن كل امتياز لاغيا   يخرج الناس على حد سواء(٣)

ألم أقل لك انه يستمطر السلام والحب للانسانية ؟

وفى شعره صلاة عميقة تغريك بالخشوع :

رب ان الكون مهما عظما   هو فى عينك لا يحسب شى
قدرة ذلت لديها العظما   كلهم فان وسبحانك حى (٤)

وبعد . فقد بقيت لى كلمة الشاعر وديوانه .. ان ديوان (الهوى والشباب) انما هو شعر العمر شبابه وكهولته وما بعد الكهولة .. وان كان الشاعر لايزال متعلقا بالشباب يحس فى قلبه حنة اليه

(١ ، ٢ ، ٣) قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٧٧ ـ ٨٩ .
(٤) من قصيدة (من مآسى الحرب) ص ٨٧ ـ ٨٩ .

فيغنيه في شعره ، ويسمى به ديوانه .. ولكن الأخطل الصغير جاوز الشباب ، وبلا الحياة والناس ، واختزن من التجارب ما كان يظن معه شموع الحكمة في ديوانه . لكن الديوان كما ترى يلذ ويروق ، لا ينصح ولا يعظ .. وكأني بالشاعر زهد في التحدث عن تجـاربه الخاصـة ودلالتها .. ولعله قصد الى هذا لأنه يعـرف من هذه التجارب التي أغفلها أن الحديث يشوق اذا تناول موضـوعا مشتركا بين صاحبـه وسامعه ، ويشوق أكثر اذا تنـاول موضـوعا طليا تستروحه النفس وتطرب له ومن ثم احتفل الديوان بالهوى والشباب .. وكل له هوى وله شباب حتى أولئك الذين أصبح الهوى بالنسبة اليهم ذكرى وردية ، والشباب وهما كطيوف الأحلام ، حتى أولئك الذين يقفون على عتبـة الشباب والهوى يتنسمون الأخبار حالمين من أفواه الشعراء والفنانين .. هؤلاء جميعا لا يحتملون الحكمة طويلا بل لعلهم ينفرون منها أو يدعونها على الأقل الى حديث الهوى والشباب .

فالشاعر حكيم لبق في اختياره وان لم يصطنع الحكمة في شعره .

ولا يحتج هنا بما سنح منها سنوحا في شعره الاجتماعي فانما هذا وليد احساس اللحظة الراهنة لا التجارب الماضية .

أو لعل الشاعر أحس من نفسه أنه بطبيعته وامكانياته الفنية أقرب الى شعر الهوى والشباب ، ولا عليه فكل ميسر لما خلق له .

الشاعر وناقدوه

اختلفت الآراء حول الشاعر بشـــارة الخورى بين مادح وقــادح فابتعدت فى جملتها عن النقد المجرد السليم · فمـــا كان النقد الفنى مدحا ولا قدحا ، ولكن ضوءا قويا تظهر فيه كافة جوانب الأثر الأدبى فيبدو المشرق اسطع لألأء ، ويبدو المظلم محددا للعين العادلة لا تجور ظلمته على ما يحيط به ·

وعندما أردت الكتـــابة عن ديوان (الهوى والشباب) تنسمت ما كتب عن الشاعر فاذا بين يدى كتـــابان أصدرهمــا مواطنان له من لبنان · أما أحدهما فهو كتاب (الأخطل الصغير) للأستاذ نسيب نمر ·· والآخر كتاب (على المحك) للاستاذ مارون عبود الذى تناول عددا من الشعراء من بينهم بل من اوفرهم نصيبا من التفات الناقد ــ الشـــاعر بشاره الخورى :

قـــد حصلت على الكتابين ولكنى نحيتهما جانبا قبل الشروع فى الكتابة وتعمدت عمدا ألا أقرأهما الا بعـــد دراستى الشخصية للديوان حتى لا يعلق بقلمى أثر منهما مهما بلغت قيمة هذا الأثر ، حتى أصدر عن رأيى الخاص بلا ايحاء أو تأثير ··

والآن وقد انتهيت من دراستى الخاصة لديوان (الهوى والشباب) ابدأ فافتح الكتاب الأول وهو ··· (الأخطل الصغير) ···

قرأت هذا الكتاب فاذا بالكاتب ــ ولو أن هذه ملاحظة عابرة ــ قد اتخذ منهجا غريبا عانيت منه وأحسب أن ســـائر القراء أحسوا ما احسست به ·· سار الكتاب على هذا المنهج ·

١ ـ الرجل (نشأته)

٢ ـ شعر بشاره الأول (الشعر الثورى)

٣ ـ الشعر الغزلى ٠

٤ ـ شعره الحديث ٠

٥ ـ حيـــاته ٠

٦ ـ الجمال فى شعره ٠

٧ ـ الصورة ٠

٨ ـ الشعر الوطنى ٠

٩ ـ بعض عيـوبه الشعرية (العيب الفنى ـ العيب الموسـيقى ـ ضعف بشارة)

١٠ ـ بين أيدى النقاد ٠

منهج مضطرب فنشأة الرجل وحياته من عادة التاريخ وطـابع التأليف أن ينتظمها فصل واحد ٠

وشعر بشارة الأول وشعره الحـديث ينتظمهما فصل تطور شعره مثلا ، وما دام شعره الأول ثوريا فمن براعة الحديث وسلسلته أن يتصل هنا الكلام عن الشعر الوطنى ٠

والحديث عن الصورة وعن العيوب الفنية كان الأخلق بالمؤلف أن يتكلم عن فن الرجل الشعري بمحاسنه وعيوبه التى يراها على السواء ٠

ولكننى على كل حال ليس موضوعى كتاب الأسـتاذ الناقد ٠٠ وما ذكرته ان هو الا اشارة اقتضتها المناسبة فحسب ٠٠ والآن نستعرض ما وجهه الناقد الى الشاعر أو بعضه ٠ وماه فى مستهل كتابه بالضعف والاستخذاء والتناقض واستشهد بالبيت :

أن للفقر ثورة لو علمتم ٠ تسبح النـــاس دونها فى الدماء

ثم بالبيت :

أيهـا الحاكم الذى راح يلهـــو ان فى اللهـو لو علمت شـقانا

هنا يظن الناقد أن (فى صدر بشارة فكرة يداور للافصاح عنها ، كمن يخشى أمرا ما ، لأن من يتوعد ، بثورة تسبح النـاس دونها فى الدماء) لا يقول :

أيها الحاكم الذى راح يلهـــو ان في اللهـــو لو علمته شقانا

فهذه « اللو علمت » فيها الكثير من الذل · وكان الأجدر ببشارة أن ينبه الحاكم وأسا ويحذره بلا واسطة ···) (١) ·

وعندى أن (لو علمت) هذه فيها الكثير من التبكيت والتأنيب والمرارة لا الكثير من الذل كما ظن الناقد ·· وكيف يذل للحاكم وهـــو يتهمه باللهو والعبث أى بغفلة الضمير ··

ان حكم الطغيان كالصخرة العاتية وأجدى لمن يريد الانقاذ شاعرا أو كاتبا ألا يصرخ فى الصخرة أن تتزحزح بل يتحدث عنها أولا بالرمز والايحاء والتلميح ، وحينا بالتصريح حتى ينبه الغافل ويوقظ النعسان · فاذا سرى شعور الوعى صرخ فى الصاحين داعيا الى ازالة الصخرة الكئود · ولكن يبقى بعد هذا حديثه الأول الموحى الموقظ الذى يشبه فى عملـــه وأثره قطرة الماء ، تبدو ضعيفة ولكن الصخرة تخشاها اذ تذوب وتتفتت من سقوطها عليها ولو قطرة قطرة ·· هذا مثال ·

والشاعر يجب أن يكون فنــانا ، ملما بكل شىء ، قديما وحاضرا ومستقبلا ، دارسا أصول التطور ، وطرق التقدم ، مستنتجا من الماضى خطوطا للمستقبل ، ليستطيع أن يبنى نظريات ثابتة » (٢) ·

الناقد يطلب الى الشــــاعر أن يدرس أصول التطور ···· الخ · لا ··· ليس من عمل الشاعر أن يبنى نظريات ثابتة أو متغيرة ، ان الشعر دفق من الشعور يصوره الشاعر بالألفاظ ـ أداة الأدب ـ وهذه المشاعر التى تزخر بها النفس الحساسة متغيرة مثلها ومعرضة للمد والجـــزر والتحول ··· وقد تجود النفس وتثر الشاعرية دون دراســـة لأصــول التطور وطرق التقدم ··· وقد تدرس هذه الأصول وتلك الطرق وما تبض بشىء ···

« والشاعر ، أو الأديب ، أو الفنان ، يجب أن يكون مقياسه فى انتاجه ، لا كيف أنتج ، بل لماذا أنتج » ··· (٣) ·

ان الفنان الصادق لا يدخل فى اعتباره كلا المقياسين ، لا يدخل فى اعتباره (كيف أنتج) ولا (لماذا أنتج) ·

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » للسيد تسيب نمر ص ٢٣ ·
(٢) كتاب (الأخطل الصغير) للسيد تسيب نمر ص ٢٥ ·
(٣) كتاب الأخطل الصغير ص ٢٥ ·

ان الفن لا يكون قطعة من الحياة الا اذا كان انبعاثا شخصيا صادرا صدورا تلقائيا عن شخصية صاحبه نحو أمور معنوية ·

ان الفنان كالطفل ··· هل الصغير حين يتكلم يقصد أن ينقل الينا تجربة ·· كلا انه يشعر بشيء فيستجيب له استجابة صوتية · كذلك الفنان فهو فى انبعاثه التعبيرى لا يقصد التوجه الى آخرين ولكن الأصل فى العمل الفنى هو أن يعبر الفنان عن شعوره لنفسه · قد ينقله الى آخرين ليشعروا بشعور مماثل · ولكنه اذا أدخل فى حسابه رضاهم أو غضبهم ضعفت الفنية فيه ·

والناقد ينعى على الشاعر سقوطه « عندما تقدم الى بحث فلسفة الفقر » ·

من ترى يشرح لى ذنب الفقير	أو ترى يظهر لى فضل الغنى
يرقان البؤس والعيش النضير	ويقيمان كذا فى الكفن
أفهذى حكمة الله القدير	لا وجل الله عن ذا الغبن
انما هذان مثل البذرتين	نشرا فى الأرض حتى انبثقا
فكسا المقدورتين النبتتين	هذه قبحا وهذى رونقا

يرى الناقد أن « هذه الفلسفة بعيدة جدا عن المنطق ، فالفقر ليس قبحا ولا الغنى رونقا كرونق الورد ، وانما هى فروق غير طبيعية ، ولا انسانية ، وهى ، فوق ذلك ، تناقض التطور الانسانى نحو الحق والحرية والخير والجمال ·· » (١) ·

ان فلسفة الفقر كما يقول الناقد ما على الشاعر أن يشرحها ··· ان البؤس ألم من آلام الانسانية · والفن كثيرا ما يتناوله من الظاهر بل هو يؤثر أن يتناوله تناولا عاطفيا ·· تناولا حافزا موحيا مؤثرا ·· أما الفقر كظهر اقتصادى له أسباب وله نتائج فذلك موضوع آخر ، ومنهج آخر واختصاص آخر كذلك ··

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشاره الحديث ·· فلم يشبع الكلام عن تطور شعره ··· لقد قرر أن شعر بشاره رق كجسمه ، وانه تأثر بشيخه اسكندر العازار ، وأن تجاربه أقنعته بحكمة عمر الخيام والشيخ الرئيس ابن سينا فأطلقها صريحة سافرة ·

حكمة الدهر أن نعيش سكارى	فاجمعا لى الكؤوس والأوتارا

(١) كتاب الأخطل الصغير ص ٣١ ·

ثم تذكر أنه قد نسي شيئا فأخذ يتحامل على الشاعر متذرعا بأبياته في الزهاوي :

بغداد ما حمل السرى	مني سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت	الكثيب الى الكثيب
وتنصبت زمر الجنادب	من فويهات الثقوب
يتساءلون وقد راوا	قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه	مضرجات بالنسيب
يتساءلون من الفتى العر	بي في الزي الغريب
أنا دمعة الأدب الحزين	رسالة الأدب المذيب

وهذه الأبيات من الشعر التي حملها بشارة الى بغداد تدل على أنانية مكبوتة ونفسية عصبية ، وتيه يتجلى في تساؤله :

« من الفتى العربي في الزي الغريب » .. وهل للسقيم الضعيف من مفاخر سوى التباهي بنحوله وسقمه وتضحيته في تكبد المخاطر لاظهار فكرة وانشاء مجد ؟ » (١) .

أليس هذا تحاملا صارخا ؟ ان الرجل يريد أن يقول لبغداد أن فجيعتها في شاعرها أضرته ولكن (الألم المذيب) لم يقعد به عن السعي الى بغداد للعزاء . فأي أنانية مكبوتة أو ظاهرة في أبياته ؟ وأي تفاخر فيها ؟ ان الرجل لم يخطر له فخر ولا مجد شخصي حين قال ما قال . أخشى أن يكون الناقد قد اضطرب في يمينه الميزان ..

(ويحمل بشاره بتيهه ومطامعه الى البلاد العربية فنقرأ حياته من قصائده التي تعبر عن أفكاره ومكنوناته كأنه في خلوة مع نفسه .

اسمعه في ذكرى تنصيب رئيس جمهورية سوريا ١٩٤٦

ولد الهوى والخمر ليلة مولدي	وسيحملان معي على الواحي
قد عشت بينهما على نغم الصبا	كفراشة علقت ثدى أقاح (٢)

أي تيه وأي مطامع ؟ وهل المشغول بالهوى والخمر يخشى منه تكالب وأطماع ؟ .. اني على العكس أرى في البيتين صدقا فنيا . فالرجل طالما تغنى بالجمال والحب ، طالما طرب للأنغام ممزوجة برنين الكأس فهو لم يعد أن صور نفسه .

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٣٨ .
(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٣٩ .

وتلوح أحيانا بارقة رضا من الناقد عن الشاعر فيرى أنه (على الرغم من البديع المسيطر على « قصيدة الصبا والجمال » تبقى مستحبة لأن قالب بديعها وافق ظاهره ، فالطباق في اللفظ والابدال وايراد المقابلات كان طريقا خرج منه الشاعر بلباقة وأناقة (١) .

قتل الورد نفسه حسدا منك والقى دماه فى وجنتيك

ولو أن هذا لا يعد مدحا خالصا اذ أردفه بقوله : (فلولا هذه الموسيقا وتلاعب بارع فى البديع ، وتصوير رسام فى الخطوط ، لكانت قصيدته لا تعلو عن شعر المناسبات ، وربما كانت أدنى منه) (٢)

وعلى كل حال فقد استنفد السيد الناقد البقية الباقية من رضاه ص ٩٣ حيث علق على البيت نفسه :

قتل الورد نفسه حسدا منك والقى دماه فى وجنتيك

« ان هذا النوع من البديع أصبح مبتذلا ، والشاعر يعلم ذلك ، لكن الحال تدعو الى القول ، والجماعة المستمعة تجهل اللغة العربية ، فعلى الشاعر اذن أن يجد المعانى الدائرة على كل لسان فى ألفاظ موشاة رقيقة فأنتج هذا البيت الذى لا يختلف عن قول العامة « وجهها مثل الورد » الا بألفاظه الجذلة ، فدار على لسان عبد الوهاب فاذا به فى فم كل منشد (٣) » .

وغير خاف أن « وجهها مثل الورد » تشبيه قريب لاخلق فيه ولكن بيت الشاعر صورة مركبة وراءها خيال فهو اذن يختلف عن قول العامة الذى احتج به الناقد .. ولو أنى اختلف بدورى مع الشاعر ولكن من ناحية أخرى . فصورته على ما فيها من عوامل الخلق لا أسكن اليها لأنى لا أريد أن ألصق حتى بالورد الجميل القتل والحسد — ولو فى الخيال — لا أريد أن نعتدى على مثال الصفاء والجمال والعطر والسحر.. حبذا لو رسم الشاعر الصورة وقد جعل الورد الجميل يتهلل للجمال فى الآخرين ويحييه فيهدى حسناء الشاعر شرابا ورديا فاغما ، أو يهب خدودها المنورة من دمه هبة وتقديرا . لا عن طريق القتل حسدا منها .

ويرمى الناقد الشاعر بالخوف (اذا لم يكن الخوف هو السبب فى صمت الشاعر وضعف شعره الوطنى ، وجعله يمر بالحوادث مر الكرام ،

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٥١ .
(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٥٢ .
(٣) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٩٣ .

اذا فما الذى جعله يقول في عيد جلوس رئيس جمهورية سورية :

منى على وجه الرئيس تحية كتحية الأطيار للادواح
الذائد النفاح دون عرينه والقاذف المجتاح بالمجتاح (١)

انى أسائل الأستاذ الناقد هل الخوف أيضا الذى أنتج قصيدة « الجابى » وفيها ما فيها من استنفار واثارة وثورة ؟

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشارة الوطنى خرجت منه وطنية الشاعر مثخنة الجراح .. وقد حشد فى هذا الفصل كثيرا من الأحداث التى مرت بلبنان بملابساتها والوجوه التى ظهرت فيها . ولا أريد أن أناقش هذه المحاولة التاريخية التى يعرفها أهلها وشاهدوها .. ولكن نزعة التحامل التى تسود الكتاب تجعلنى أتردد كثيرا فى تصديق التهم .. أنا أخشى أن أصدق لأول وهلة (أن بشارة من الرجال الذين كانوا يخافون المستعمر يوم كان فى البلاد راتعا ، وعليها حاكما ، فيمالئونه ، ويداورونه ، ولا يجرحون « كبرياءه » اما خوفا ورهبة ، واما طمعا وضعفا، واما .. حتى اذا ولى ، بخيله ورجله ، ونفوذه وظلمه ، أظهروا « بطولتهم » وأفصحوا مقالتهم فاذا هم أقوياء بايمانهم ، أعزاء بعقيدتهم ، والله شاهد على ايمانهم) (٢) .

ثم يتساءل الناقد (هل أسكته الآن ما أسكته سابقا ، فتجاوز عن ثورة ١٩٢٥ ، وعن انتفاضات ١٩٣٦ ، حتى قال فيه الشاعر القروى :

يا شاعرا لا كالأخيطل عنده من كل أنواع البديع الأملس
الشام تشغلها الدموع وقلبه بالحب تشغله العيون النعس

ما باله ساكت ، أخرس ، لم يذكر الشباب الطامح الذى دفع دماءه ثمن الاستقلال ؟

الا يشاهد أمامه ، فى غدوه وطوافه ، ما يحرك شاعريته ، ويوقظ قريحته ، واذا كان الصراع الذى خرج منه لبنان ظافرا . باستقلاله وجمهوريته ، لم يشحذ قريحة الشاعر ، واذا كان توثب الشعوب العربية اليوم ــ الى الانطلاق ، لم يحرك منه نغمة ، أو ساكنا . فأى حادث يستطيع حك هذا الجوهر ؟) (٣)

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٧ .
(٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٨ .
(٣) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٩ .

عتاب مقبول لو توفر لصاحبه الوقت الكافى لصقله وتلطيفه واختيار ألفاظه . فلا يحزن الشاعر لأن المسئولية لا تحمل غير قدير ، والرجاء لا يناط بغير جدير .

على أن بعض وقفات الناقد لا غبار عليها . فقد أخذ على الشاعر قوله فى رثاء المغفور له أحمد شوقى (١) :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره فسدرة المنتهى أدنى منابره

وعد هذه الصورة بعيدة عن الخيال والمنطق . والنقد هنا سليم والبيت جناية من جنايات المبالغة الموسوم بها شعر المديح فى الأدب العربى .

ويسجل الناقد للشاعر صورة أخرى ولكن فى غير انصاف هذه المرة اذ يرى قول الشاعر :

وكان بالقرب منها كوكب ذكر يصغى فلما رآها سبح الله
وراح يقسم أن لا نام ليلته الا على شفتيها لاثما فاها

يرى الناقد فى هذين البيتين (صورة نافرة بعيدة عن الألوان الفنية لأنه مهما بلغ جمال المرأة فلن يكون منارة ، ومهما هامت المخلوقات بالجمال لا تستطيع ايجاد كوكب يصغى الى الحديث ، ووصف الجمال فيسبح الله ويقسم على السهر حتى يبلغ أمنيته ، ولاسيما عندما نجعل من الكواكب « ذكرا وأنثى ») (٢) .

وهذه حملة أخرى لأن الصورة على ما فيها من شطحات الخيال على عادة القدامى الذين يلمحهم بشارة الخورى ، الا أنها لا تصل الى حد النفرة . وأسباب الناقد متعسفة لأن تشبيهات الشاعر قصد بها المجاز لا الحقيقة ولو اتخذنا رأى الناقد مقياسا نقيس عليه لسقط معظم الشعر العربى ان لم يكن كله .

ومن عجب أن هذه الثلمات كلها لم ترد الناقد عن اعتبار بشارة الخورى (شاعر العرب) (٣) وكيف ؟ سله هو .. فعنده لا عندى الجواب .

وقد عاب الناقد على الشاعر تكرار الصور لأنه فى تقديره يفقد

---

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٩١ .
(٢) الأخطل الصغير ص ٩٣/٩٤ .
(٣) الأخطل الصغير ص ٩٤ .

قصائده الغرار رواءها (ان التكرار واستعادة الصور والألفاظ في غرار قصائده يفقدها رواءها وجمالها كما يلبس الفنان صفة « ضيق الخيال والضعف الفنى ») (١) ٠

ومع ما ينطوى عليه هذا القول من بعض الحق اذ خصب النفس خصب الخيال ، متجدد دائما ، الا أن تكرار الصورة قد يرجع الى عامل نفسى ٠ فقد تكون هذه الصورة أو تلك لها ذكرى خاصة أو أثر خاص في نفس الشاعر فهو يكررها لينفض عنه ألمها هادفا بهذا الى راحة نفسية ، أو يكرر ليستعيد جوها المنعم ٠ ومن النوع الأول الصورة التى استشهد بها الناقد (٢) فقد كرر الناقد فى مواضع متفرقة من كتابه أن الشاعر مريض ضارع الجسم ٠ حزين بل قال بالحرف الواحد وهو بصدد صورة « المسلول » « لكن قصيدة المسلول لم توضع لتصوير اللهو والخمر ٠ بل لتصوير المرض والاعياء ، والرهبة والوحدة ، لقد وضعت لتكون صورة ناطقة للشاعر ومرضه ، وضعفه ، وانفراده ، ووحدته ، عنوانا للنفس الحزينة ، وأشياء أخرى ٠٠)(٣) ٠

« أشياء أخرى » هذه هى التى أعنيها ٠٠ ان الشاعر اذن لا يكرر لمجرد التكرار فقط ولكن وراء هذا أسباب ذكرت بعضها ٠٠ والباقى يتمثل فى قول الناقد « ٠٠ أشياء أخرى ٠٠٠ » ٠

على أن الناقد نفسه يجنح فى هذا الكتاب الى التكرار فيبدىء ويعيد فى مآخذ له على الشاعر ٠٠ وهو حتى ليس تكرارا لنوع واحد ، **ولكنه المأخذ عينه يكرره فى صفحات متفرقة من الكتاب ٠٠ فقد عاب الناقد مثلا على الشاعر قوله :**

ومن الدمع ما يهزك للعطف ومنه المدمدمات الهوادم

فى الصفحات ٨١ ، ٩٩ ٠ الخ ٠

وعند الناقد أن (أكبر عيوب بشارة هى غلوه فى تقدير نفسه ، لأن هذا التقدير يفقده الميزة الفنية ويحط به عن سدرة الأبراج العاجية ، ألا فاسمعه يمدح نفسه (٤) :

ذرنى وما زرع الزمان بمفرقى ما كنت أدفن فى الثلوج صداحى

---

(١) الأخطل الصغير ص ٩٨

(٢) الصورة المشار اليها صورة السراج المتهافت الضوء والعليل المشفق ٠

(٣) الأخطل الصغير ص ٤٧ ٠

(٤) الأخطل الصغير ص ١٠٣ ٠

او قوله :

ورب أخ رأى فرجا بذمى فقلت رضيت ذمك لو شفاكا
أتطمع أن تحسلق للثريا فتطفئها عدمت اذا حجاكا)

اترى غلوا فى تقدير النفس ؟ واذا كان :

ذرنى وما زرع ..

غلوا فماذا يسمى السيد الناقد قول المتنبى ـ وهو شاعر اثير كما يبدو من حديثه عنه فى كتابه .. بماذا تسمى قول المتنبى :

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

أما البيتان الآخران فان المسألة فيهما نفسية . ان الشاعر يرد على غريم ينتقصه .. وان أشد الناس تواضعا اذا استهين به انتفض وألحق المهانة بصاحبها وهو ما يسمونه فى علم النفس « الاسقاط » ثم يستعلى بصفات ينسبها الى نفسه لأن فيها ما يشرف به ، أو لأنه يحب أن يوصف بها . **وقد حمل الناقد نفسه البيتين محمل العذر للشاعر بعد قليل أى فى ص ١٠٤ حين قال :**

(نقدنا احتكرته عصبة لا عمل لها سوى حرق البخور لأفرادها ومهاجمة كل غريب عنها .

هذه الأقلام لاحقت بشارة كما لاحقت سواه فكان أمره معها قوله :

ورب أخ رأى فرجا بذمى فقلت رضيت ذمك لو شفاكا
أتطمع أنا تحلق للثريا فتطفئها عدمت اذن حجاكا)

ومع أن الناقد يقول فى حديثه عن عيوب بشارة (فاننا نكتب عن الفن فيحتم علينا واجبنا اظهار الصور الشعرية البديعة والقبيحة سواء بسواء ..) (١) الا أنه لم يتكلم عن محاسن الشاعر .. فهل النقد الفنى اظهار عيوب فقط ؟؟

صه .. يبدو أن الناقد الفاضل قد أحس فجأة أنه قسا على الرجل فشام انصافه .. ومن ثم قرر فى آخر كتابه فى سمة المعترف ان شعر بشارة (لم يعرف قدره ولم تعرف قيمته بل بقى كالأرض البكر لا يعرف

---

(١) الأخطل الصغير ص ٩٠ .

غثها من سمينها ، وما على الراغب في دراسته سوى تناوله بأقلام صحاح وتجرد وايمان) (١) .

وهو رجوع الى الحق يحمد لصاحبه .

وعندي أن هذه الصفات التي تمناها الناقد ، صفات الصحة والتجرد والايمان تتوافر أكثر في البعيد منها في القريب ، لأن الأول لم يختلط فهو لم يتأثر بما ينجم عن الاختلاط والمعرفة القريبة من احتكاك وتصادم منافع وايحاءات الوسط المحيط به وفيه العدو والصديق . ومن ثم يتنزه حكمه عن الغرض ؛ ويبرأ من الهوى ، ويسلم من التعلات ، وينجو من التعصب ، ويسمو على الانتقاص .

البعيد ليس أمامه الا الأثر الأدبي فمآخذه في مواضع الضعف ..، وهتافه في مواضع السبق أدنى — ولو الى حد بعيد — الى العدالة واشبه بالنقد الفني .

ومن هنا أردت كمصرية أن أضيف الى رأى بعض أبناء لبنان في شعر الأخطل الصغير ، رأيا محايدا متجردا مبلورا للقيم الفنية والانسانية في ديوان الرجل في غير افراط وتفريط .

***

أما الكتاب الثاني « على المحك » فقد أوسع صاحبه ، الشاعر نقدا . كان الأستاذ مارون عبود مع الشاعر بشارة الخوري كعادته مع منقوديه يتندر عليهم متوسعا في التندر والسخرية حتى كاد جده أن يغيب في طيات سخره ، وحتى كان نقده على صواب في بعض آرائه ، يحمل الطابع الشخصي . وهو طابع يتهم دائما بالغرض ويتعارض ولو في الصورة على الأقل .. مع المنهج العلمي في النقد الفني .

وقد يكون عذر الأستاذ مارون عبود أن كتابه « على المحك » قام على مقالات متفرقة نشرت في الصحف .. والمقالة الصحفية ثرثرة بليغة ولا تزيد .. فلما جمعها في كتابه (على المحك) تخلف عنها العذر الأول وأصبح ينظر اليها ككتاب .. وهنا ظهرت لها عيوب أخرى منها التكرار والفضول وضياع المنهج ، وهدر النقد .

ولست بهذا أنتصر للشاعر . أو أنتقص من الناقد .. فهما صنوان في وطن يجمع بينهما — وان اختلفت آراء — الكثير من وشائج

---

(١) الأخطل الصغير ص ١١٢ .

القرب حين تبعد بي على الضفاف الخضر في مصر حدود من صنع الطبيعة أو صنع الانسان ٠

ان حديثي عنهما يحدوه العامل الأدبي وحده بحيث لا أتردد عن تقدير الحسنات عند كل منهما أو مناقشة نواحي الضعف ٠

ولست بهذا ألوم الناقد لنقده ٠٠ فالنقد توجيه أمين للأدب ٠٠ وما ذكره من مآخذ ذكرت أنا نظائر لهـــا توخيا للامانة العلمية التي لا تهون الجيد ولا تغفل الضعف ، بل تعطي لكل ناحية ما تستحقه من الدرس والاحتفال ٠

ولكن ما أختلف مع الأستاذ مارون عبـود فيه هو التمـادي في السخر والامعـان في التندر حتى ليكاد المنقود أن يمسـخ أو يصـــير أضـحوكة ٠

وقد لاحظت حين قراءاتي كتاب (على المحك) أن معظم ما أورده الأستاذ مارون عبود وتناوله بالنقد من شعر بشارة الخوري لم يرد بديوان (الهوى والشباب) ٠ فهل نحاه الشاعر زهدا فيه ، أم أسقطه تحت ضغط النقد وهو غير يسير ؟ على أي حـال ان الشاعر لم تعزه اللباقة والذوق حين اختار لديوانه ٠

صـور

مناجاة رفيق

اسقنى من لماك أشهى من الخمـ ... ـر ونـم ســاعة على راحتيــا
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب ... نغمات الحنــان فى أذنيـــا

حنين

أترى يذكرونه أم نســوه ... هم سقوه الهوى وهم أسكروه
عللوه فكـان أقتـــل شيء ... ذلك الصـد بعـــد ما عللوه
قلت أهـــواك يا ملاكى فردت ... مقلتـــاه لـكن تلعثم فــوه

ســهاد

أنـا ســاهر والكون نـا ... م وكل مـا فى الكون نـام
نـام الجميـع ومقـلتى ... يقظى تجـول مع الظــلام
حتى نجــوم الأفــق نـا ... مت فوق طيـات الغمـام
صـمت يقــزك فيــه خـ ... ـب النمل فى ملس الرخــام
ما كان يخفق غـــير قــلـ ... ـب كـــاد يتلفـه السـقام
قـــلب تآكله الغــــرا ... م وظل يخفق للغــرام

شاعر الهوى والشباب

أنا وقد أبناء الصبابة ساجد ... من ترب عذرة فى أذل مكـان
استنزل الوحى الذى طفرت به ... شعراء عذرة فى الزمان الفانى
فتسوغ فى أذنى «جميل» رنتى ... وتطيب نفس « كثير » ببيـانى
مهد الغرام ومسرح الغــزلان ... حيث الهوى ضرب من الايمان

يتعانق الروحان فيه صبابة ... ويعف أن يتعانق الجسدان
فاذا سمعت بعاشقين فقل همسا ... ملكان متصلان منفصلان
ما دار ثم سوى الحديث كأنه ... راح يدير كئوسها الملكان
سل عروة بن خزام عن غصص الهوى ... تسمع جواب فتى الغرام العاني
تحنان ساجعة الحمائم في الضحى ... وزفير أعواد الجحيم الثاني
وله حديث كالدموع اذا جرت ... جذبت نظائرها من الأجفان

صورة لعليل الرئة

هذا الفتى في الأمس صار الى ... رجل هزيل الجسم منجرد
متلجلج الألفاظ مضطرب ... متواصل الأنفاس مطرد
متجعد الخدين من سرف ... متكسر الجفنين من سهد
عيناه عالقتان في نفق ... كسراج كوخ نصف متقد
أو كالحباحب باخ لامعة ... يبدو من الوجنات في خدد
تهتز أنمله فتحسبها ... ورق الخريف أصيب بالبرد
ويمج أحيانا دما فعلى ... منديله قطع من الكبد
قطع تقول له ، تموت غدا ... واذا ترق تقول بعد غد

حنين

قل للألى أحببت زحلة فيهم ... أنا لا أزال لهم محبا ذاكرا
لبكيتهم لو كنت أملك أدمعا ... وعطفتهم لو كنت أعطف هاجرا
يتمثل الأمس البعيد لخاطري ... فأكاد أرشفه لمى ومحاجرا
ان السنين دقائق لمتيم ... ذكروا له الماضي فمل الحاضرا

سر الكأس

يا صارف الكأس عنا لا تضن بها ... ويا أخا الوتر المكسال لا تنم
أدر علينا من الصهباء أفتكها ... وخدر العصب المحموم بالنغم
قد يشرب الخمر من تغلو الهموم به ... وقد يغني الفتى من شدة الألم

موكل بالهوى :

كفاني يا قلب ما أحمل ... أفي كل يوم هوى أول
أفي كل وجه لنا مرتع ... وفي كل ثغر لنا منهل
عذرتك يا قلب من للهوى ... أنتركه بعدنا يذبل
سكتنا فما غرد العندليب ... وتبنا فما صفق الجدول

تقاليد الشراب :

يا ذابح العنقود خضب كفه ... بدمائه بوركت من سفاح

أنا لست أرضى للندامى أن أرى ... كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب اذا المدامة عربدت ... فى كأسها أن لا تكون لصاحى

دعوة جريئة :

حكمة الدهر أن نعيش سكارى ... فاجمعا لى الكئوس والأوتارا
واجلواهـا دنيا ممتعة الحسن كما تجلوان احدى العذارى
هى كالورد تحمل الشوك والعطر و ان خين اللبيب اختيارا
كلنا كلنا نجاذبها الوصل ونجنى اللذائذ الأبكارا
انما ذاك يرفع الصوت فى النا ... دى وهذا يلقى عليها ستارا
فانهب العيش لا أبالك نهبا ... واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح ... حط فى الدوح لحظة ثم طارا

أسمهان :

هل الغناء اذا جرحت آهته ... سوى عصارة أكباد لأكباد
كأنه موجة بيضاء ناعمة ... يمشى الشراع به فى بحره الهادى
تأوى الأغاريد منه حين ترسله ... الى وريف ندى الظل مداد
وينشر الروض سكرانا براعمه ... كألسن الطير شقت تصف منقاد

الجابى :

من الناعب قبل الفجر ... من هذا على الباب
أعيذ القبح من قبح ... بأظفار وأنياب
أقبل الشمس فى الآفا ... ق والعصفور فى الغاب
وما زار الكرى جفنى ... ولم تعلقه أهدابى
ولا غذيت أطفالى ... سوى همى وأوصابى
فراشى يا وقاك اللـ ... ـه منه بعض أعشاب
وهذى كوبتى الفخا ... ر ما فيها سوى صاب
فما تبغيه فى بابى ... ومن أنت ؟ أنا الجابى (١)

---

(١) لقد وقفت عند هذه القصيدة وقفة مستأنية فى الصفحات السابقة ولكن نفسى لا زالت ممتلئة بها ... ومن ثم ترانى أعود اليها مرة أخرى فاعرضها بين المختار من شعره لما فيها من صدق الواقع وصدق الفن وبساطته وحرارة الروح فيه .

من مؤلفات الكاتبة :

- من عبقرية الاسلام
- أعيدوا كتابة التاريخ
- شخصية مصر
- النيل فى الأدب المصرى
- خصائص الشعر الحديث
- الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد
- أدب المازنى
- أحمد رامى (قصة شاعر واغنية)
- أم كلثوم وعصر من الفن
- الأدب والحضارة
- قمم أدبية
- مشروع هضبة الأهرام آخر اعتداء على مصر
- أزمة الشباب وهموم مصرية
- الاسلام وانسان العصر « العودة الى المنبع »
- رسائل الى ابنتى
- القاهرة فى حياتى
- رحلة الشرق والغرب « الانسان والزمان والمكان »
- التراث والحضارة
- فى بلادى الجميلة
- فى أدب الرافعى
- صناعة الجهل
- قبة الامام الحسين (قضية حكم)

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٢٢٦٨

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٢٧٦ ـ ٣

إبراهيم ناجى　　أبو القاسم الشابى　　الأخطل الصغير

شعراء ثلاثة التقوا فى الحياة وفى هذا الكتاب ، على الغناء للجمال فى الطبيعة والإنسان . وقد وقفت الدراسة فى كل ديوان من دواوينهم بالتحليل والاستشفاف ، على الانسان ، فى الشاعر . . . وعلى الشاعر بين فنون القول ، وعلى دوره فى حياة الفنون والناس .

وفى عصر محموم يتصارع بعض أهله ، فى شرق وغرب ، على المادة إلى حد الخروج على الإنسانيات والقيم حتى تاجر فاقدو الضمير فى اللبن الملوث . . . يبيع المتمدينون الموت وهم يعرفون . . . يعرفون كل شئ إلا حق الحياة وحرمة الإنسان على أى أرض وفى أى مكان .

فى مثل هذا العصر ، تشتد الرغبة فى العودة إلى النقاء يلوذ به الإنسان المكروب . . . العودة إلى الفنون . . إلى دنيا أخرى يفىء إلى برد الظلال بعد وقدة السعير ، لا الهجير .

وهذا الكتاب واحة راحة .

ولمحة جمال . .

ونفحة صفاء .